
الطبعة الأصلية
رواية
غَزْلُ البنات
د. حنان لاشين
(أم البنين)
دار البشير للثقافة والعلوم
تصميم الغلاف : الشيماء أحمد

1

أضواء مصابيح الشارع تصدر انعكاسات زرقاء على زجاج نوافذ البيوت التي ألقت ببعض البقع الفضية المتناثرة على الأرض حيث خلّف المطر خلفه غدرانًا صغيرة من الماء فأضفت على الشارع الساكن مظهرًا خلّابًا، رائحة التراب المبتلّ، وصوت المطر، وهواء بارد... إنه نوفمبر.

كانت الساعة قد شارفت على السادسة والنصف مساءً حين كانت "رحمة" تسير في طريقها عائدة إلى بيت عمّتها، لم تنتبه إلى "عمر" الذي كان يسير خلفها من بعيد، وعلى مهل سالكًا نفس الطريق، كان قلقًا عليها، فالشارع بدا خاليا تمامًا من المارّة، إنه الشتاء عندما يطلّ بهيبته. كانت أوراق الشجر الجافة التي تحملها الريح تلسع وجهه كشفرات حادة، أما هي فكانت تحتضن كتبها وتسير بهدوء تكاد تطير مع الهواء لرقّتها.. ترفع يدها من آن لآخر محاولة تفادي أوراق الشجر التي تشاكسها وهي تسير.

من بعيد ثمّة رجلين على الرصيف المقابل، حطام يتسكع بثياب رثّة ودبقة تثير الاشمئزاز، عبرا الطريق واقتربا منها، وفجأة..انبثق أمام عينيها نصلٌ برّاق كالشعاع من يد أحد الرجلين، ووقف الآخر خلفها حيث شعرت وكأن صوته الغليظ يخترق قفصها الصدري ويرتجّ فيه:

- أعطني الحقيبة...وإلا..

كان وجه اللص مثقوبًا بعينين ضيقتين مخيفتين تلمعان جنونًا، أما الآخر فكان وجهه يبعث الرعب..فكّ مجوف وعيون محتقنة بالدم.. لم تفعل شيئًا سوى إغماض عينيها وضم يديها إلى صدرها بخوف ثم الوقوف متسمّرة في مكانها..

ركض "عمر" ثم وثب من خلفها برشاقة وارتمى بشراسة على أحدهما وأسقطه أرضًا وجرّده من سلاحه، هرب الآخر فنهض"عمر" بوثبة واحدة، وقنص على اللص الذي كان على الأرض من ياقة معطفه، ثم جرّه ورفعه وألصقه بالحائط بقوة، ثم أمسكه من بلعومه ونشب أظافره في قصبته الهوائية..

وشدد من قبضته مضاعفًا من ضغطه على رقبته، في تلك اللحظة كانت "رحمة" تصرخ صرخات مكتومة..

فجأة أرخي "عمر" قبضته وأطلق سراحه مضطرًّا، فقد جرحه اللص جرحًا عميقًا في يده بسلاح آخر فسال الدم منها.

هرب اللص وهو يمسّد عنقه والتفت مهددًا بصوت مشروخ:

- ستدفع الثمن أيها الأحمق.

أطلقت "رحمة" صرخة مقتضبة ووضعت يدها على فمها عندما رأت الدماء تسيل من يد "عمر" ثم قالت وهي ترتجف:

- لابد أن نسرع إلى المستشفى الآن.

أغمض"عمر" عينيه للحظة محاولًا أن يعيد أفكاره إلى نصابها، ثم نظر إليها وقال بثبات:

- بل سنسير إلى نهاية الشارع لعلّنا نجد سيّارة أجرة تقلّك إلى بيتك، ومن فضلك لا تسيري في هذا الشارع المهجور مرّة أخرى في

مثل هذا الوقت، انتهت المحاضرات منذ ساعتين!

لماذا لم تعودي مبّكرًا إلى البيت؟

كانت في غاية الحرج وهي تقف أمام الدكتور "عمر" الذي يدرّسها في كلية الهندسة، والذي كانت طوال العام الماضي تعامله كأستاذ لها فقط، ثم فوجئت بعد انتهاء الامتحانات أنه يتقدّم لخطبتها..

رفضَتْه رغم مميزاته لأسباب تراها كافية لها، لكنها غير كافية له، وما زال يتواصل مع عمّتها "دعاء"؛ حيث أعطته رقمها بنفسها، وبدأت الآن تحبّه وتشجعها على الزواج منه...

قالت "رحمة" معللة موقفها بعد أن حدّجته بعينيها للحظات: - كنت أحتاج إلى بعض المحاضرات من زميلاتي..

قال وهو يضغط على يده محاولًا تقليل نزف الدمّ: - وهل المحاضرات لا تظهر إلا الآن!، ماذا كنت تفعلين طوال النهار؟

تابعَتْ محاولة ألا تنم قسمات وجهها عن بادرة من الانفعال وقالت:

- كنت أدرس.. كنت مشغولة... يبدو أنها فشلت في إخفاء انفعالها من كلماته مما جعله يرتبك، فهو لايَوَدُّ إغضابها.

لاحت ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يقول: - آسف لم أقصد اتهامك، ولكن انتبهي لنفسك، لا تسيري في هذا الشارع فهو غالبًا يخلو من المارّة الشارع في الجهة الأخرى أكثر أمانًا، وحاولي دائمًا أن تسيري في مجموعة ولا تكوني أبدًا وحدك...

هيا من فضلك سيري أمامي حتى أراقبك، وسأسير خلفك حتى نخرج من هذا الشارع الموحش المظلم... بسرعة.

سارت بتوتر أمامه وهي ترتجف، أسنانها كانت تصطك من برد

أصابها في حضرة الخوف من أن يظهر اللصان مرّة أخرى، التفتت ناظرة إليه تستمد الأمان، فهزّ رأسه وأشار إليها لتكمل الطريق وزال خوفها بحضوره..

كان وجهه نبيلا يبعث الثقة والراحة والاطمئنان..

سارا بخطى سريعة في البرد القارص حتى وصلا إلى ميدان كبير يكتظّ بالناس وتدور فيه سيارات كثيرة... أوقف لها سيارة أجرة، ثم أعطى السائق بعض النقود وزاده.. وطلب منه أن يوصلها إلى بيتها حيث ستخبره بالعنوان بعد لحظات.

التفت إليها قائلا قبل أن يغلق باب السيّارة بعد أن اطمأن أنها ركبت:

- سأطمئنّ عليك من عمّتي بعد قليل. استدارت بتؤدة نحو صوته المطَمْئن وقد لاحظت إطلاقه لقب "عمتي" على عمّتها "دعاء" وكأنها قريبته هو !!

وقالت:

- آسفة لجرحك أستاذي.. ودّعها على نحو مقتضب وهو يحدث نفسه بقلق:

حتى متى سترفض "رحمة" الزواج مني، إنها حتى ترفض أن أزورهم بالبيت مع أمي!

راقبته هي من خلف زجاج السيارة المغطى بالبخار، فأحسّ بنظراتها تستقر عليه وراح يرمقها بلا حيلة وهي تغادره، ثم سار وحيدًا مهدل الذراعين يبحث عن أقرب مستشفى، ودماؤه تسيل من يده.

❊ ❊ ❊

بعد دقائق.. رنّ جرس الباب رنينًا حادًا متلاحقًا فأسرعت "دعاء" لتفتح الباب، في نفس اللحظة كان رنين هاتفها النّقال يتصاعد.

أسرعت تجيب بعد أن دلفت"رحمة" بعصبية من باب بيت عمّتها الذي فتحته وهي تضع الهاتف على أذنها

كان "عمر" الذي أراد أن يطمئن على "رحمة"..

دار حوار قصير فهمت منه العمّة ما حدث، أنهت حوارها معه وأسرعت إلى "رحمة" واحتضنتها طويلًا..

انفجرت "رحمة" تؤنّب عمّتها قائلة:

- كان يسير خلفي، إنه يراقبني.. بل ويؤنبني لأنني مكثت قليلًا مع زميلاتي في الكلّية، ويبدو أنه اتصل بك أكثر من مرّة فهو يعلم أنني أحبك، ليتني ما أعطيته رقم هاتفك... إنه يريد منك أن تؤثري عليّ وتقنعيني بالزواج منه... أليس كذلك؟

ثم أردفَتْ بغيظ:

- إنه يناديك "عمتي"!.

وقفت "دعاء" بابتسامتها الرقيقة، وقامتها المتوسطة الطول، وجسدها النّحيل، وقد زيّن وجهها عينان عسليتان وكأنهما ثغران باسمان ضاحكان، يعلوهما قوسان رقيقان أسودان يظللان على أهداب ترفرف حول نظراتها الحانية.. تراقب "رحمة" وهي تتحدث بغضب، ثم استدارت دون أن تردّ عليها، وسارت إلى المطبخ فتبعتها "رحمة" وأسندت ذراعها على الباب ووقفت تؤنب عمّتها وتطالعها بعينيها التي ورثت لونهما العسلي عنها:

- استمرارك في التواصل مع "عمر" خطأ يا عمّتي ويضايقني كثيرًا، فأنت تعلمين أنني لن أتزوجه، لماذا تعاملينه هكذا؟!، ولماذا تعطينه أملًا في الزواج مني وأنا أرفضه؟، ألم نتفق على أن تكوني صديقتي!

اقتربت "دعاء" من ابنة أخيها وقبّلتها على جبينها، وسألتها بهدوء:

- لماذا ترفضينه؟ إنه شاب رائع!

أجابتها بعد أن زفرت بحنق:

- هو رائع وخلوق ووسيم... لكنني أود الزواج من شخص أكثر تميزًا منه، هناك جوانبٌ أخرى في الشخصية أبحث عنها. سحبتها عمّتها من يدها إلى غرفتها ووقفت في وسطها للحظات وكأنها مترددة قليلًا.

فتحت فمها كأنها ستتكلم، ثم همهمت بحروف مبتورة ودارت في الغرفة بنظرات مضطربة

وأخيرًا نظرت إليها بجدية وكأنها اتخذت قرارًا حاسمًا وقالت:

- أريد مقعدًا خشبيًا من الصالة يا "رحمة"..

زفرت "رحمة" زفرة طويلة وقامت لتجلب لها الكرسي، عادت سريعًا وهي تجرّه خلفها ثم ناولته لعمتها التي وضعته أمام خزانة ملابسها وصعدت عليه بحرص ومدّت يدها فوق الخزانة وتحسست المكان قليلًا وحرّكت يدها يمينًا ويسارًا حتى التقطت شيئًا ما..

عضّت على شفتيها وابتسمت وقالت:

- ها هو...

وسحبت صندوقًا ملفوفًا بعناية في قماشة زرقاء بلون السماء تتناثر عليها ورود تتوسطها حبات اللؤلؤ، بدا القماش وكأنه فستان خطبة قديم..

صاحت "رحمة":

- ما هذا يا عمتي... أتخفين كنزًا؟!

أجابتها "دعاء" وقد بدأت عيناها تلمعان:

- هنا أسراري كلّها يا "رحمة"، وستطلعين عليها اليوم.

شعرت "رحمة" بالفضول وتسارعت دقات قلبها واقتربت من عمّتها بشغف، جلست "دعاء" على طرف فراشها تحلّ عقدة القماشة الزرقاء حيث تناثرت بعض حبّات اللؤلؤ على أرض الغرفة، لملمتها في وجل وإشفاق في كفّها ووضعتها داخل لفافة القماش بحنان وكأنها تضع رضيعًا في مهده...

ثم سحبت صندوقًا خشبيًا بديعًا عليه نقوش جميلة، قفل الصندوق يبدو وحده تحفة فنية رائعة، أمسكته بعناية ومسّدته وكأنها تمسّد بشرة طفل صغير، ثمّ فتحته بعد أن بدأت ملامحها الرقيقة تتغير وتشي بالكثير من الحنين إلى الماضي، وسحبت من داخله دفترًا قديمًا غلافُه وردي، قد اصفرّت أطراف أوراقه قليلًا، وفتحته ثم رمته بنظرة واستردتها سريعًا.

كانت صفحته الأولى تحتضن كلمتين..

"غزل البنات"

أغلقته لتضمّه إلى صدرها لوهلة ثم ناولته لابنة أخيها وقالت بحنان:

- اقرئي هذا الدفتر يا "رحمة"، ولا تخبري أحدًا أبدًا بما فيه، فهنا سرّي الذي لا يعرفه أحد عنّي. غضّنت "رحمة" جبينها وتناولت الدفتر، وتأمّلت الخط المسطور على الصفحة الأولى وتبيّن أنه خط عمتها.

غادرت "دعاء" الغرفة إلى المطبخ وأغلقت الباب على "رحمة" التي وثبت- وقد تعملق الفضول داخلها- فلزمت فراش عمّتها تحت الأغطية لساعات كما لو كانت في حالة بيات شتوي حيث كانت تقرأ..

2

"دعاء" عندما أبحر في أعماق نفسي أشعر بحنين يدعوني لأستدعي تلك الذكريات، وأن أقصّ حكايتي على البنات، فقد حان وقت البوح...

كنت وبعد وفاة أبي، ما زلت في بيته الكبير، صالة واسعة تلقي بأذرعها أمام أربعة أبواب عالية لأربع غرف كبيرة أسقفها عالية.

على جدران بيت أبي كانت اللوحات الزيتية الرائعة تشرف على المكان من علوّ، وعلى الطاولات المتوزعة في أركانه كانت تستقر مجموعة من الصناديق الخشبية الأنيقة عليها نقوش ومنحوتات رائعة، على كل صندوق منها قفل بديع وكأنه تحفّة فنيّة وحده، أهداها أحد أصدقاء أبي إليه منذ سنوات بعد عودته من الهند، حيث كان في بعثة علمية هناك.

أما مطبخ بيتنا فيسبح دائمًا في روائح حلوة، ويلازمه ضوء الشمس طوال النهار فيغمره بضوء لطيف تأنس به أمي وهي تجلس على الطاولة لتعد لنا الطعام الشهي والأرز باللبن الذّي كنت أعشقه وأحبّ أن أتناوله من صنع يديها...

بنايتنا كانت قديمة، يحتضنها شارع جانبي دافىء، تطلّ شرفاتها على مقهى مشهور في حيّنا، تفوح منه رائحة القهوة ولا ينطفيء مذياعه أبدًا- والذي يعلو صوته دومًا بالقرآن- إلا عندما يغلق أبوابه آخر الليل...

رائحة الريحان الحلوة تتراقص بدلال وتتعانق نسمات الهواء على

نوافذ جيراننا، وصوت شقشقة العصافير كل صباح يوقظني من نومي، فأقوم وأنا أكبح تثاؤبا؛ لأراقب أبناء جارتنا الثلاثة وهم يصرخون فرحًا وهي تفتح القفص بحرص وتمدّ يدها بهدوء لتغيّر الماء للعصافير ثمّ تضع لهم المزيد من الحبوب...

كان لكل منهم عصفورٌ قد تبنّاه وأطلق عليه اسمًا مميزًا قد اختاره له، كنت أقتبس من وجوههم السعادة لأبدأ بها يومي.

عشت أستظل بظلّ أمي وأتنفس رائحتها الزكية، وتنتظم حياتي بانتظام نبضات قلبها الحنون، أكاد ألامس طرف ثوبها بقدميّ وأنا ألاحقها، تارة وهي تعدّ الطعام فأراقبها في صمت، وتارة وهي تراقبني وتنصت إليّ وأنا أوجع رأسها بكلام البنات.

أبتسم إن ابتسمت، ويرقّ قلبي إن حزنت عندما يتحوّل الحوار ليكون عن شقيقتي "حنين" التي توفاها الله منذ سنوات وهي عروس في العشرين.

كانت تطيل الحديث عنها، وأنا أستمع وكلّي آذان صاغية، تصف لحظات حلوة مرّت بها معها فتبتسم وتلمع ثناياها، ثم سريعًا ما تبكي حتى يبتل رداؤها، شوقًا إليها وأسفًا عليها، فقد كانت فرحتها الأولى وحلمها الَّذي يمشي على الأرض،

فكنت عندما ألحظ تلك الدمعة الرقراقة التي تترجّح في مقلتيها كلّما حَاولتْ أن تسيل تمسكها وتستمر في الحديث أقوم لأشاكسها ولا تهدأ نفسي إلا وقد أضحكتها.

وحتّى في تلك المرّات التي كنت أدخل عليها فيها في غرفتها لأجد في يدها صورة فأتبيّنها، فإذا هي صورة شقيقتي "حنين" رحمها الله...

كنت أخطف من يدها تلك الصورة وأقبّلها وأغيّر الحديث لألفت نظرها لشيء آخر فأنتشلها من بئر الحزن، وأنا على يقين أنها تركت قلبها المهترىء هناك..

وكنت بعدها وفي كلّ مرّة أهرب إلى نافذتي؛ لأخفي دموعي عنها، فأنا أيضًا أتوجّع وأشتاق إلى أختي، ثم أرفع نظري إلى السماء لأسأل الله أن يرحمها ويجعلني عوضًا عنها لأمي، وأن يصبّ الصبر على قلبها صبًّا..

تخلّيت عن بعض أحلامي، وتركت عملي كاختصاصية اجتماعية؛ لأسكن تحت جناحها وأشعر بالأمان وأشعرها به وهي تحاول أن تحتويني.

اكتفينا بمعاش أبي، والإيجار البسيط لشقق البناية القديمة التي نسكنها ونملكها، ظانين أنني سأتزوج في وقت قريب جدًا، لكنه... لم يحن بعد!

كان القلق لا يفارق نظرات أمي، وهي تكرر من آن لآخر تلك الدعوة التي لا تفارق شفتيها:

- اللهم ارزقها زوجًا صالحًا قبل أن أموت.

كانت كلماتها توجعني، فكنت أسرع قبل أن تسيل الدمعة التي ترقرقت في عينيها؛ لتحرق قلبي

وأقول بعد أن أطبع قبلة على جبينها النديّ:

- ستلبسينني فستان زفافي بيديك يا أمي، وستقرّ عينك بأولاد أولادي إن شاء الله، وسأسمي ابنتي على اسم أختي "حنين".

وتبدأ كالعادة في لومي وهي تكفكف دموعها بمنديلها القماشي

الأبيض، ثم تطيل النظر إلى يديها وهي تطويه لتدسّه في كمّها وتقول:

- وكيف سأفرح وأنت ترفضين كل من يطرق بابنا وتتفننين في البحث عن عيب جديد في كل عريس نستقبله يا ابنتي؟

لولا أنك حبيبتي "دعاء" وقد ربيتك بنفسي، وأعلم خبيئتك وكيف تفكرين وتتصرفين، لظننتك تعيشين قصّة حبّ في الخفاء، وأنك على علاقة بشخص ما وتنتظرينه ليتزوجك، وتخفين عنا الأمر.

وكنت أجيبها برجاء:

- إذًا فعليك بكثرة الدعاء لي ياغالية... وكانت تغمرني في الحال بالدعاء.

❊ ❊ ❊

3

في كلّ مرّة كانت تعلن فيها أمي عن خاطب جديد سيزورنا، كنت أراجع في ذاكرتي تلك المقاييس التي وضعْتُها لاختيار شريك حياتي، وفارس أحلامي المنتظر.

كل ما تمنيته من زخارف الدنيا، رفيق آنس بقربه، أسكن إليه، أجد لذّة العيش في التحدث معه... وكنت أنتظره.

متديّن جدًا، مثقّف، صاحب فكر وله رأي ويؤمن بقضيّة، ناجح في عمله، والكلّ يحبه، وسيم، وطويل ومفتول العضلات!

أعلم أنني لست بكاملة، لكنني أحتاج لشخص رائع وكامل، لا أشعر بجواره بنقصي، أملت أن يأتيني كما تمنيته.

يأخذ بيديّ فيرفعني لأعلى، يحلّق معي فوق السحاب، ويرضيني، ولهذا كنت أردّ الكثير من الخطاب لأسبابٍ كثيرة

وكانت نهاية زياراتهم دائمًا دموع أمي، وحوار يتكرر بتفاصيله كل مرة.

وكان آخر حواراتنا بعد زيارة من شاب خلوق جاء ليخطبني بعد أن رشّحتني له جارتنا الغالية التي تحبني كثيرًا، والتي تقطن في الدور الأرضي من بنايتنا وتعيش وحيدة بعد زواج أبنائها، تتسلى بالبحث عن زوج لي ولبنات الحيّ الذي نسكن فيه...

حيث زارت أمي التي رحّبت بزيارتهم لنا في حضور أخي "جمال".. وقد حدث بالفعل وتم اللقاء وبعد انصرافهم.

كنا نجلس على فراش أمّي التي رفعت حاجبيها ثم مصمصت شفتيها بعد أن أبديت رأيي في العريس ورفضْتُه وقالت بنبرة حادة:

- لماذا ترفضينه يا "دعاء"؟

أجبتها بتبرّم وهي تتفحّصني وتنتظر مزيدًا من التوضيح:

- لا أشعر بالرّاحة يا أمي..

قالت وهي تتعجب:

- وكيف هذا؟! إنه شاب رائع، وشكله مقبول، وعائلته معروفة، وأضيفي على هذا كله أن لديه شقة كبيرة في وسط البلد.

حاولت أن أحافظ على هدوئي حتى لا يشتعل الحوار وقلت بأدب:

- لا تهمني تلك الأشياء يا أمي، المهم الإنسان نفسه، فأنا جلست وتحدثت معه، وأفكارنا مختلفة تمامًا،

كما أنه يرى المرأة كائنًا من الدرجة الثانية، ويشعر أن الرجل أفضل منها!

تأمّلت أمي وجهي قليلًا وكأنّها تفكّر للحظات، وأمسكَتْ بذقنها ثم قالت:

- فلندعوه ليزورنا مرّة أخرى، وتجلسين معه ونسمع قرارك بعدها

ألا توافقني الرأي يا "جمال"؟

التفتت أمي لأخي "جمال" الذي كان ينصت إلينا وهو يقلّب في هاتفه الجوّال دون أن يرفع عينيه عن شاشته المضيئة، حيث قال بصوت رتيب:

- والله يا أمي هي من ستتزوج ولا أستطيع أن أفرض عليها أي شيء، يكفي أننا ضغطنا عليها عندما خطبت لـ "أحمد" وسريعا ما رفضته، فأنا حتى الآن أشعر بالحرج كلما التقيتُ به.

اعتدلت أمي في جلستها وقالت بحسرة:

- "أحمد"، يا للخسارة، لا أدري كيف رفضتِ الزواج منه يا "دعاء"؟!

فقد كان وقور السمت، ذا ملامح طيبة حنونة تهرب الأنظار إليها، وكان مهذبًا، قليل الكلام.

قاطعتها وأنا أحاول إيقاف تيّار المدح الذي يتدفّق من بين شفتيها في كل مرّة يتردد فيها اسم "أحمد" في بيتنا، وقلت:

يا أمي أنا لن أتزوج إلا مرّة واحدة فاتركيني أختار بنفسي.

قالت بتبرّم:

- تنتظرين زوجًا لم يولد بعد...أين هذا الملاك!

أخشى أن يمرّ وقتك الذهبي، فلكل فتاة وقت وموسم تخطب فيه ويكثر طلّابها، وبعد هذا يخفت الضوء ولا يسمع عنها أحد ويزهدون فيها.

قلت بيقين:

- لا تخافي يا أمي ألم تخبريني أن الزواج رزق!

قالت بضيق:

- نعم قلت هذا ولكنك لا بد من الأخذ بالأسباب!

أنتِ ترفضين وترفضين، لأسباب عجيبة...وللناس ألسن يا ابنتي، سيشاع أنك لا تريدين الزواج، أو سيظنونك معقدة، وستظلين معي بالبيت، والعمر يمرّ كالبرق وتأكل السنون من أعمارنا ما تأكله،

وأنا لن أدوم لك وأخشى عليك من ضربات الدهر القاسية، ووحشة الليالي الطويلة، وقسوة الأيام البالية

وأنا ككل أم أرجو لك زوجًا حنونًا وشهمًا يكون لك وتدًا تتكئين عليه، وظلًّا تلجئين إليه، ولم أجد هذا إلا في "أحمد".

قاطعتها بتبرّم مرّة أخرى وقلت:

- وكأن الدنيا ليس فيها إلا "أحمد" يا أمي!

أضافت وهي تطالعني بنظرة جادة:

- لا تقولي أنك لا تحبينه، فالحب سينمو ويزهر بينكما بعد الزواج.

ثم شردت بعينيها قليلًا وقالت بعد أن تنهّدت بعمق:

- ما زال حبّ أبيك يموج في قلبي، وأحنّ إليه رغم وفاته منذ سنوات، وما زالت الحنايا تشكو ألم الفراق، وقد تعلّمت الحبّ على يديه.

تقبّلني بعيوبي وفرح بما فيّ من مميزات، فصرت أصلح من نفسي لأرضيه، وتقبلته بعيوبه... بل رضيت ببعضها؛ لأنني أحبه ولأنها أمور أستطيع أن أغمض عيني عنها طالما أنها لا تغضب الله، وإنما هو اختلاف في الطباع، ومضت الحياة بحلوها ومرّها، وكنا معًا.

قلت بثقة:

- نحن لا نشبهكم يا أمي، جيلنا مخيف وصارت قصص الطلاق كثيرة حولي، كما أن معظم الفتيات يتزوجن ممن يظنَّنّ أنه على خلق ودين ويفاجأن بعد الزواج بالعكس.

وأنا أريد أن أشعر بالحب...أريد حبًا يناسب كبريائي، الحب الحلال يا أمي.

رفعت أمي يديها وحركتها في الهواء ثم قالت:

- أي كبرياء تتحدثين عنه يا "دعاء"، أتظنين أن الحب فعلا كما ترينه في الأفلام والمسلسلات!

الحب بناء يا ابنتي، كالهرم وليس مجرد وردة حمراء أو قلب مرسوم يقطعه سهم، الحب شيء يحتاج وقتًا لكي يولد، وعندما يولد يعيش طويلًا.

قلت بصوت هاديء، وقد سرقتني معاني كلمات أمي العميقة:

- لعلّ الله يرزقني قريبا ما يفرحك ويفرحني يا أمّاه..

قال أخي وما زالت عيناه على شاشة هاتفه:

- وكيف ستعيشين قصة حبّ تناسب كبرياءك؟، وأنت تنتظرين شخصا على دين وخلق.. بل ويحفظ القرآن!..لا بد أن يطرق الباب أولًا ويسعى للزواج منك ثم نفتح له الباب ونرحب به ليدخل خلفه الحب الحلال...أليس كذلك؟!

انعقد لساني ولم أتمكن من الرد على كلامه، وظلّت أمي مطرقة للحظات ثم تمتمت بخفوت:

- كنت أحبه وكأنّه ولدي، وكان دخوله علينا فرحة لقلبي...

طالعنا أخي بنظرة خاطفة وعاد لتفحص هاتفه وهو يقول:

- كان واضحًا منذ البداية أنه يحبك... سكونه عندما تمرّين من أمامه، وتصرفاته اللاإرادية التي تشي بالكثير.

سارعت محاولة أن أغلق باب الحديث عن "أحمد" وقلت وأنا أتجنب نظراتهما:

- "أحمد" إنسان ممتاز، لكن ليس هو الشخص الذي أتمناه..إنه... ينقصه شيء ما.

انتبه أخي لكلماتي الأخيرة ونظر إليّ وبدا الانفعال عليه، وقال بلهجة بدت لي ساخرة قليلًا:

- ليس متدينًا جدًا، بل هو إنسان عادي، ولم يتم حفظ القرآن كاملًا، ولم يدرس العلم الشرعي

أليس كذلك؟!

انتظرت حتى ينهي كلامه ثم هززت رأسي وقلت بإصرار:

- نعم، وليس عيبًا أن أتمنى زوجا بتلك المواصفات، بل هذا هو الصواب، وبالتأكيد هناك الكثيرون هكذا وأفضل، فأنا لا أفكر في نفسي فقط، بل أفكر في مستقبل أبنائي، وكما اشترط هو أن تكون زوجته محجبة، أنا أيضًا لي شروطي.

نظر إليّ أخي بِلَوْمٍ، وأردف قائلا:

-لا يوجد إنسان كامل يا "دعاء"، كما أنه يصلي، وخلوق، ومهذب، ولا يقبل الحرام، ولا يدخن، ولم أشهد عليه يومًا أنه يتتبع النساء بنظراته فهو شاب عفيف، ومشغول بعمله كمهندس عن دراسة العلم الشرعي، وإتقانه لعمله مهم أيضًا وسيحاسب عليه، وكلّنا نتمنى حفظ القرآن كاملًا ونحاول، وقد كان صريحًا وأخبرك أنه يحاول، أنت تعجّلت ولم تصبري عليه، تريدين ملكًا من السماء، وشيخًا فقيهًا، رغم أنك أنت نفسك لست بشيخة، ولا حتى أتممت حفظ القرآن.!

شعرت بضيق عندما واجهني أخي بالحقيقة، فأنا فعلا لست مثالية، فملابسي فضفاضة قليلًا، ولكن حجابي عادي، وربما هو أفضل بالمقارنة مع غيري فقط.

وبعض من حسن الخلق أحرص عليه إرضاءً لربي، فقد عشت متسمة بالتحفظ والاعتدال في نمط حياتي لكنني بالتأكيد مقصّرة، ولا أحفظ إلا القليل من القرآن، وكنت أمنّي نفسي بزوج يعينني ويغيرني

وكنت أنتظره، بل وازداد إصراري الآن، كدت أرد على أخي لولا صوت أمي الذي أسكتني وهي تهز يدها وتقول:

- أنت لا تقدرين ما خسرتِه وستندمين يومًا ما، فأنت لا تدركين معنى النظرة التي كان يطالعك بها يوم خطبتكما، كان فرحًا بك وكنت "قرّة عين" له، ولا أظنك تفهمين معنى هذه الكلمة.

لاحظ أخي - الذي همّ بالانصراف - توتري وحيرتي فقال بصوت هادئ:

- أرجوك يا أمّي، فلنغلق هذا الموضوع، هي اختارت بنفسها وأبدت رأيها بكلّ صراحة، وليس هناك داع لنعيد جدالًا لا فائدة منه ولعلّه خير.

مالت أمي برأسها على أخي وسألته باهتمام:

- ألم يطلبها منك مرّة أخرى يا "جمال"؟

زمّ أخي شفتيه وأجابها وهو يهزّ رأسه نافيًا:

- لا يا أمي، لم يفاتحني مرّة أخرى ولم يلمّح حتى بكلمة، لا هو ولا زوجتي "نور" منذ جلستنا الأخيرة هنا أنا وهو وخالي "محمد"، عندما أبلغناه برغبة "دعاء" في الانفصال عنه، حتى أنني لم ألتقِ به غير مرّة أو مرّتين، فقد شُغل بعمله في الشركة الجديدة التي انتقل إليها، وقلّت زياراته، وكما تعلمين، هو جاد ومهتم بعمله كثيرًا.

تنهّدت أمي بحسرة وأطرقت في هدوء، ثم استندت على عصاتها لتقف وقالت:

- سبحان الله، الزواج رزق ومكتوب، فاللهم رزقًا حسنًا لابنتي...

جلست أمي إلى جواري تحيطني بذراعيها وقبلتني على وجنتي في حنان، وعلى وجهها ابتسامة لا أدري كيف استطاعت أن تضعها على فمها رغم حوارنا الذي انتهى للتو، وأخذت ترقيني ولسانها يلهج بالدعاء.

❋ ❋ ❋

4

منذ شهرين، كنت وبعد ضغط كبير من أمي وأخي، قد خطبت لفترة قصيرة جدًا، أسبوعين ويوم واحد بالتمام والكمال- لشقيق زوجة أخي المهندس "أحمد"، والذي يكبرني بست سنوات.

خطبتي له كانت كبطاقات الزينة الأنيقة التي ترسم فيها ورود رائعة، بألوان زاهية، لكنها بلا روح ولا رائحة، وكأنّ مشاعري قد حفظت في لوح من الثلج.

كان هادئًا، وكنت كتومة، أذكر جيدًا اليوم الذي زارني فيه لأوّل مرة، كانت ابتسامته رائعة، لكنني مررت بها وبعينيه العسليتين الواسعتين بنظراتهما العميقة مرورًا عابرًا ولم أتوقف، تحدثنا طويلًا، وسألته الكثير من الأسئلة، وكان يجيبني بكل بساطة ووضوح.

أرهقته بأسئلتي التفصيلية، وظل يجيبني حتى تقلّصت ابتسامته، وبدأ يتصبب عرقًا، ويتأملني بنظرات عميقة، وانتهى اللقاء ولم يسألني يومها عن أي شيء!

واكتفى بالإجابة عن أسئلتي فتعجبت!

لم يعجبني قبوله لي دون أن يستكشف عقلي، أو يحاول حتى التجوال في فكري ليستنبط ملامح شخصيتي ويتأكد أنني أناسبه ولو بسؤال بسيط يستفزني به!

لماذا لم يسألني عن نفسي؟

وظننته لن يعود مرة أخرى، لكنه عاد وأكّد لي أنه يرحب بالارتباط بي، وينتظر رأيي!

وظل الكل يسألني، بل في الحقيقة هم لقنوني الإجابة:

- بالتأكيد ستوافقين.

- عريس رائع.

- بلا شك....ألف مبروك.

- على بركة الله، مبارك يا "دعاء".

استسلمت لفرحتهم، وخدرتني فرحته بي، كانت المرة الأولى التي أرى أمي فرحة فيها منذ وفاة أبي

ووجدتني بعد أيام أجلس بجواره في غرفة "الصالون"، أتمسك بيد المقعد المذهّب، وأقبض عليها بشدة وأحاول أن أخفي توتري.

والبيت ممتلئ بوجوه الجيران وبعض الأقارب، وأنا بفستان أزرق أنيق أكمامه واسعة، ينعكس الضوء الملون على الفصوص البراقة التي توزعت على أطرافها بعناية، وكأنها تشير إلي وجهي لتعلن للجميع أنني قد قمت بخطف قلب "أحمد" مع سبق الإصرار والترصد.

كان فستان خطبتي بزرقة صفحة السماء، تناثرت على ذيله وردات بيضاء بارزة تتوسطها حبات اللؤلؤ التي تعكس ألوان الطيف عندما يلثمها الضوء، ارتديته مع حجاب أبيض بسيط، أخبرني "أحمد" يومها أنني أشبه الفراشة الزرقاء.

وكان هو أنيقًا وفاتنًا، ما زلت أذكر عطره الرائع الذي اخترق أنفي بلا استئذان، وابتسامته المشرقة

رأيت في عينيه شيئًا ما، شيئًا لم أنسه أبدًا انطبع في ذاكرتي، لكن

قلبي لم يدقّ له!

كان يراقبني كلّما التفت إليه، وكنت أتخبط من خجلي والكل يراقبني.

حاولت بعدها أن أكون سعيدة، ولكن... لم يدقّ قلبي "دقّة الحب" التي كنت أنتظرها، شعرت بفتور شديد

قارنته بفارس أحلامي الذي كنت أحاوره منذ سنوات في خيالي، طابقتهما وخسر "أحمد"، وفاز الفارس

ورغم مميزات أحمد وإقباله عليّ، لم أكن سعيدة به.

أخبرتني أمي بعد أن صارحتها بمشاعري أن أصبر وأنني سأحبه؛ لأن الحب الحقيقي لا يأتي فجأة!

وأخبرني أخي أنه الزوج المثالي الذي يحلم لي به.

ومرّت أيام على الخطبة..

وبعدها هاتفت خالي وطلبت منه أن يأتي على عجل، كان خالي "محمد" شيخًا هرمًا نيّف على السبعين من عمره، يعتمد دائمًا على عصاته العجراء، كانت له هيبة، وكان الأقرب إلى قلبي، وأكثر من يفهمني، أتى لزيارتنا بعدها مباشرة.

أخبرته أنني أود الانفصال عن "أحمد"، الذي زارني بعد حفل الخطبة ثلاث مرات فقط..

كنت فيها ألتزم الصمت في كثير من الأحيان، وهو يلقي عليّ نظرات من آن لآخر، ثم يستردها سريعًا.

كنت أشعر أنها تخترق رأسي، خشيت أن يقرأ أفكاري فيسخر مني وكنت أهرب من عينيه.

كان القرار صعبًا، فقد كدّت أتراجع تعاطفًا معه، لكنني قررت أن أكون حاسمة من أجل نفسي.. وحتّى لا أظلمه، قال لي خالي وهو يمسح على لحيته البيضاء:

- أخبريني بسببٍ واضحٍ يا "دعاء"!

لا يوجد عيب أو سبب وجيه لكي ترفضيه!

شعرت للحظات أن لساني قد انعقد وتخشّب في فمي، لكنني أجبته في النهاية:

- هو شاب طيّب وخلوق يا خالي، لكنني لا أشعر بالفرحة.

لم أشعر أنه خطف قلبي، وأنني مشتاقة لزياراته، كما أنني أتمنّى زوجًا أكثر منه تدينًا،

هل حرام عليّ إن رفضته لهذا السبب؟!

قال خالي برجاء:

- مرّ أسبوعان فقط يا "دعاء"، فلنمهله قليلًا، وهي فرصة لك لتفكري مرّة أخرى، وحتى لا نظلمه

بملامح متكدرة رفعت عيني إليه، وقلت وصوتي يشي بالندم:

- ضميري يؤنبني لأنني وافقت وعلّقته بي أكثر، كان لا بد أن أكون واضحة من البداية وأقول

"لا"

المشكلة أن أمي و"جمال "يحبانه جدًا، ففي مظهره من الوسامة واللطف ما يحبب الناس فيه، كما أنه فعلًا خلوق وطيب الخصال، وكلما فتحت فمي يقولان لي كما قلت أنت يا خالي في بداية حديثك..

"لا يوجد عيب أو سبب وجيه لكي ترفضيه!"، وكلامي دائمًا لا يعجبهما.

رفع خالي نظره إلى سقف الحجرة وصمت للحظات قليلة، ثم قال:

- هذا زواج يا" دعاء"، لا بد أن يرضيك أنت وليس أي أحد منّا، لا يهمك رأينا، لا بد أن تشعري بالفرحة عندما ترين زوجك، أي يكون "سكنًا" لك، ليملأ عينك، ويرضي نفسك...

أن تكتفي بوجوده عن الجميع، أن يكون إقباله فرحة، وإدباره انتظارًا لعودتها، وحضوره هو عين السعادة ورؤيته بعينيك تغمرك فيها، إن لم تشعري بأي من هذا، فلماذا ستتزوجينه إذًا؟

فكّري جيدًا واتخذي قرارك وأنا معك يا ابنتي، ولكن تذكّري أنه ربما يرحل بلا عودة، وربما لن يتاح لك اللقاء بشاب رائع مثله مرّة أخرى.

أراحني موقف خالي رغم قلقي من جملته الأخيرة، واتّخذت قراري، وقلت له وهو يربّت على كتفي:

- إن شاء الله لن أندم، والله يعلم ما بنفسي وما أتمنّاه، وسيرزقني، وربّما.. الله يصرفني عنه لأنه يستحق من هي أفضل مني، أو ربما أنا لا أستحقه!

اقتنع خالي وتحدث إلى أخي وأمي، وتحررت أخيرًا من قيد ضايقني وجوده رغم أنني لم أتوجع منه يومًا، والجميع يراقبني ويتعجب!

❊ ❊ ❊

5

ومرّت الأيام، وأمي تكرّر دعوتها:

- اللهم ارزقها زوجًا صالحًا قبل أن أموت.

وأزداد أنا التصاقًا بها، لا أفارقها إلا عندما أهرب لغرفتي وأغرق بين سطور رواياتي، أقلّب صفحاتها بحذر وأنا أخشى النهاية وترتعش نبضاتي... تتوقف أنفاسي أحيانًا وأنا أتنقل من سطر إلى آخر، وكأنني أسابق الأحداث..أشم رائحة أوراقها، أتأمل أغلفتها، أتخيل أبطالها.

كنت أشعر بوخزة في صدري وضيق يستمر لساعات بعد أن أغلق الصفحة الأخيرة من الرواية التي أقرأها، ثم أحاول الانسلاخ من عالم الخيال الذي كنت أعيش فيه لأعود إلى الواقع، فأنفصل نفسيًا عن الرواية التي كانت تأسرني، وأودع أبطالها، وأظلّ أتفكر في نفسي، وكيف وهبني الله القدرة على التخيل،

وكيف جعلني طوال قراءتي، أفقد الإحساس بالزمان والمكان، وأعيش أحداثها وكأنني أقف معهم وأسمع أصواتهم وأشمّ رائحة عطورهم، وأبكي معهم، وأخاف أحيانًا عند خوفهم، وتنزل دموعي عندما يموت البطل، سبحان من جعلني أشعر بهم وكأنهم أحياء... وكأنني أخبئهم في نفسي!

حيرتني دائمًا "أحلام اليقظة" التي كنت أغرق فيها لساعات وهي تروح وتجيء في ذاكرتي، كان لها في نفسي جمالٌ ومعه حماقة الرجاء وجنونه، فقد خضعت لها خضوعًا لا يفنى وصرت مقيّدة بها.

غزل البنات

كنت أحيانًا إذا جلست للقراءة أعلّق نظري بأوّل سطر أمر به، ولا أنتقل عنه بعد ذلك، وأظل مطرقة للكتاب حتى يظن الرائي أنني أقرأ فيه.

وأنتقل من الواقع إلى عالم جميل من عوالم الخيال، وأتغلل فيه تغلل طائر النورس الأبيض المحلق في غمار السحب.

وتمر بي ساعات طوال فلا أعود لنفسي إلا إذا نادتني أمي، فإذا استفقت وجدتُني ما أزال في مكاني، وما يزال نظري عالقًا بهذا السطر الذي وقفت عليه، وكلما ابتعدت خطوة رجع لي صوابي خطوتين..

أقتبس من صفات أبطال الروايات التي أقرأها، وأرسم في ذهني صورة لفارس أحلامي، أغير فيها اسمه ووظيفته، وأحيانًا لون شعره وبشرته، فأتسلّى..

حاورته فيها كثيرًا، وتخيلت أني أعيش حياة معه في بيت جميل، حياة مثالية، أصلّي خلفه، ثم يستقي أبناؤنا منه الخلق الحسن، يقرأ القرآن بصوت نديّ وأنا أسمعه ثم نبكي من خشية الله معًا.

ترى هل هناك حقًا شخص مثله؟، ظللت أحلم به، وكنت أنتظره.

كانت حياتي حلوةً هادئة، كحلاوة الحليب البارد، وكنت أحن إلى شيء آخر بنكهة مميزة، لاذعة ربما

أو مالحة قليلًا، تمنيت أن تتغير حياتي، فقد مللت وأحتاج إلى التغيير، وهذا ما حدث...

انتهى الشتاء وسحب رداءه الباهت، وتلحف به واستدار، ثم انصرف عنّا، وكشفت الشمس نقابها وابتسمت بحرارة، فتنهّدت الطبيعة، وبدأ قلبي يتنفس مع الكون، ومضى نصف الصيف الأول، وغابت ابتسامة الشمس عني للأبد!

فقد ماتت أمي الحبيبة بعد مرض شديد لفترة قصيرة، في ليلة باردة، قمرها ضوؤه خافت، خنقه الحزن عليها، وبدت نجوم السماءِ كمصابيح مأتم أُقيم بليل بهيم، شعرت وكأنني عدت طفلة صغيرة ضعيفة، لا تختلط بالناس خوفًا منهم وتنتظر الأمر من الراشدين لتفعل أي شيء، أصبحت أحيا ببعض نفس، وبعض روح، وبعض نفس. ماتت سر أسراري، وهداية حيرتي، وقُبلة الأيام على جبيني، كانت تملأ حياتي حبًا وعفوًا بلا حساب، دارت بي الدنيا، وصرت وكأنني أتنفس من ثقب إبرة، وكأن روحي التي خرجت وليست روح أمي. انتهت أيامي من الأُم، وبدأت أيامي من الزمن وأنا وحيدة، ماتت أمي فحطت الرحمة أدواتها وارتحلت، وفارقت السعادة أسبابها.

حتى ساعات نومي تقلّصت، وإن غلبتني عيناي كنت أرى حلمًا واحدًا يتكرر، وهو أنني وجدت أمي حيّة سليمة لا تشكو من مرض! وتحدثت معها واحتضنتها وأخبرتها أنني ظننتها قد ماتت.

ضحكتُ في تلك الأحلام كثيرًا، وأفقت بعدها على الحقيقة؛ لأدرك أن عقلي الباطن أيضًا قد أشفق عليّ فسرّب إليّ أحلامًا وأنا نائمة لتسليني.

اهتزت ثقتي بنفسي، فتغيرت، وتعكّر الحليب البارد، وبدأتُ مرحلة جديدة وهامة من حياتي...

كنت قد تخطّيت السادسة والعشرين من عمري بشهور، سنوات قليلة وأتأهّب للاقتراب والدخول تحت مظلة كبيرة أرغمنا المجتمع أن نسير تحتها، حيث ستحجبني عن أعين الخطّاب، وكنت أخشى هذا لأنني لست ممن يحدثون ضجّة، لألفت الأنظار... كنت أخشى الوحدة.

في الحقيقة غضبت من نفسي؛ لأنني لم أتوقف وأنا أسير في

حياتي بمحطّات كثيرة وظللت فقط على طريق واحد، بل ظللت في مكاني أدور حول نفسي.

لماذا لم أتعلم لغة جديدة؟

أو ألتحق بدورة مكثّفة لأتقن التعامل مع أنظمة الحاسوب المتطورة!

لماذا لم أحلم بشيء آخر غير الزواج؟

سجلت كل أحلامي قيد الانتظار على بطاقة دعوة لحفل زفافي إلى شخص مجهول لم ألتقِ به حتى الآن!.. كم كنت كسولة. أصرّ شقيقي "جمال" على اصطحابي لأقيم معه في بيته بعد وفاة أمي، وكان من الصعب أن أنتقل لبيت خالي في أسيوط وقد عشت كل حياتي هنا في الإسكندرية.

أغلقت البيت، وغطيت الأثاث، ثم جمعت أغراضي وملابسي وما أحتاجه في حقيبة

وطويت خمار أمي ودسسته مع مسبحتها بين ثيابي وكأنني أحملها معي....

قبل أن أنصرف، وقفت للحظات، وتأملت بيت أبي، درت بعينيّ أتفحص جدرانه التي زانتها الذكريات، هذه اللوحة شغلتها أمي فأعجبتنا وعلّقناها بعد أن حاصرناها بإطار ذهبيّ، فأطلت الوردات الحمراء التي شغلتها أمي ببهاء وتبسمت بحياء...

وتلك لوحة زيتية مرسومة بإتقان، ألوانها مزجت واختلطت وكأنها تعانقت بحب.

كانت لقارب في بحيرة يحوي شخوصًا باهته، تحنّ على هذا القارب أغصان شجرة مالت لتلامسه، وكأنّ الشّمس وهي تغرب قد أحنت

تلك الأغصان لتخطف قبلة من طرفه، وتلقي على ركابه السلام....
على اليسار أسفلها، وقّع الفنان "رأفت شوقي"، صديق قديم لأبي، ورسام بارع، ريشته صادقة.

ودّعتني الثريّات المتدلّية من سقف البيت المرتفع وأنا أطفئها واحدة تلو الأخرى، وعاتبتني أبواب الشرفات العالية وأنا أغلقها بإحكام. أغمضت عيني ووقفت أسحب نفسًا عميقًا حيث تنفس أحبائي يوما ما، ليجول الهواء في صدري كما جال في صدورهم، وحبسته للحظات لعله يؤنسني في غربتي، فكلّ البيوت غربة إلا بيت أبي.

انتبهت لأخي "جمال" الذي بدا لي دائمًا رجلًا جليلًا عظيم الهيبة، تتألّق ملامحه بالبشر والنور، وهو يعدِل نظارته، ثم ينحني ليحمل حقيبتي ويناديني بصوته الحاني، ثم يسألني:

- هل أنت جاهزة يا "دعاء"؟

التفت إليه وتأملت وجهه الممتلئ المستدير، وهو كل ما تبقي لي من أهلي، صرت أخشى عليه من نسمات الهواء.. وخاصة بعد مرضه بالسكريّ الذي داهمه منذ وقت ليس ببعيد...

قلت بصوت واهن ومهزوم رغمًا عني:

- أنا جاهزة يا أخي، توكلنا على الله.

أغلقنا الباب ونزلنا على الدرج، كنت أتبعه كطفلة صغيرة يتيمة تائهة، شحب وجهها حزنًا على أمها وتلحفت بالسواد.

لاحظ انكساري فأحاط كتفيّ بذراعه ومال برأسه على رأسي، وبدأ يهوّن عليّ، وقال بصوت مرح:

- "مودة" و"رحمة" سعيدتان لأنك ستنامين معهما في غرفتهما، وتنتظران بشغف القصص التي ستقرئينها عليهما كل ليلة قبل النوم،

وأنت تغيرين من صوتك وتمثّلين وتلاعبيهما كعادتك.

ابتسمت بحبور، فأردف هو قائلا:

- سأشتري بعض الحلوى لنأخذها معنا لهما، وسنأتي لنزور البيت هنا كل فترة، ولن تشعري بأي فرق

هنا بيتك وهناك بيتك، و"نور" أختك، وأنت حبيبتي.

رحلت وبقي قلبي معلّقًا هناك، حيث ذكريات الطفولة، وأحلام الصبا، ورائحة أمي، وضحكات أختي وصوت أنفاس أبي وسعاله المفتعل أحيانًا بعد أي حوار جدالي مع أمي؛ لتسرع إليه بكوب الماء فتلتقي نظراتهما ويبتسمان لبعضهما بمودة وحب وكأن شيئًا لم يكن.

كانت حياتي في بيت أخي هادئة، أتلهّى بالنظر إلى "مودة" و"رحمة"، اللطيفتين وألاعبهما، وأراقب أخي وقد حلّت السكينة على بيته، وكيف لا؟!، وهو وزوجته كلاهما ودودان محبان لبعضهما وقد سكن كل منهما لكلّه الآخر، اكتشفت الآن أن "جمال" نسخة من أبي رحمه الله، حتى في حنانه على زوجته الودودة

فأراهما وقد جلسا صامتين، هو يقرأ الجريدة، وهي تخيط زرًا في قميص زوجها بحب، وكأنّ بينهما حوارًا صامتًا تصحبه ابتسامة حانية.

ومضت الأيام، وأنا أعاني من خجلي الشديد من أخي "جمال" وزوجته "نور"، وكل من يأتي لزيارتهما

ويفاجأ بوجودي، ويسأل عن السبب.

شعرت بغربة ولم يخفف عني إلا ضحكات ابنتى أخي الجزلتين وهما تشاكسنني طوال النهار.

❊ ❊ ❊

6

"نور"

كان اليوم حارًا وكنت أشعر بالتوتر، فبعد قليل ستأتي "دعاء" مع زوجي"جمال" لتقيم معنا بالبيت...

لم يكن قد مضى على وفاة أم زوجي سوى شهر عندما عاد "جمال"، وأخبرني أنه سيحضر شقيقته "دعاء" لتقيم معنا بالبيت إقامة دائمة، فقد أصبح من الصعب أن تعيش وحيدة في بنايتهم القديمة....

رحّبت بالفكرة رغم شعوري بالقلق، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي سيشاركنا فيها شخص غريب عنا بالبيت... شخص أحبّه وأخشى أن تسوء علاقتنا بسبب إقامتنا الدائمة معا تحت سقف واحد.

وهي، وإن كانت شقيقته إلّا إنني غريبة عنها، وكذا هي غريبة عني، ستكون ضيفة علينا لفترة ربما ستطول، ولا بد أن أكرمها وأتحملها.

ما كنت لأتركها وحدها، فمهما حدث هي في مقام أختي، وإن كانت قد جرحت أخي "أحمد" برفضها الزواج منه.

ولكنني... لم أعتد على وجود من يراقبني طوال اليوم!

أعددت غرفة البنات حيث ستنام معهن، ورتّبت الخزانة حيث ستضع ثيابها فيها، وجلست أمشّط شعر بناتي وأنا أتفكّر في حال أخي "أحمد" والذي رفضت "دعاء" الزواج منه بدون سبب.

قطع الصمت الذي غرقت فيه صوت ابنتي "مودة" والتي أتمت عامها التاسع وهي تسألني ببراءة وأنا أمشّط شعرها:

- أمي هل ستتزوج عمتي "دعاء" من خالي "أحمد"؟

أجبتها بصوت حازم:

- لا تكرري هذا الكلام أمام عمتك، فهي لا تريد الزواج منه.

صاحت قائلة:

- لكنني أحبهما وأريدها أن تتزوجه!

قلت أحذّرها:

- لو سمعتك تقولين هذا الكلام مرّة أخرى سأقصّ لك شعرك يا "مودة"... سأقص ضفائرك الحلوة.. هه

قالت بانزعاج:

- لا لا...لا تقصّيه ولن أتكلّم، فأنا أحب أن يكون شعري طويلًا كالأميرة التي رأيتها في القصّة التي اشتراها لي أبي... أرجوك يا أمي لا تفعلي..أنا أميرة.

قلت بهدوء:

- أحسنت يا فتاتي.

قاطعتنا "رحمة" التي تقترب من إتمام عامها الثامن، والتي كانت تراقب حوارنا باهتمام وهي تحتضن دميتها وقد غضنت حاجبيها ووقفت تطالعني بعينين نابهتين وقالت ببرود:

- أمّي... قصّي شعري، فأنا سأخبرها أنني أريدها أن تتزوج من خالي "أحمد".

رميتها بنظرة حادّة فانزوت وهي تحتضن دميتها، ثم أدارت وجهها وكأنها لا تراني.. كتمت ضحكاتي وأنا أتعجّب من كلماتها، كم هي عنيدة تلك الصغيرة..

إنها تشبه عمّتها كثيرًا، نفس العينين العسليتين، ونفس الوجه..

لا أدري لماذا لم يتمكن "أحمد" من إخراج "دعاء" من قلبه ورأسه، فهو ما يزال على حبّه لها أمّا هي فلا تشعر به.

كم هي قاسية... لقد قهرت أخي وآلمته بشدّة.

ما زلت أشعر بالضيق منها، ولم أتمكن بعد من نسيان وجهها وهي تخبرنا أنها لا ترغب في الزواج منه، كانت تهرب من نظراتي وأنا التي أحبها كأختي التي لم تلدها أمي.

تمنيتها لأخي لكنها لا تدرك قيمته، رغم أننا كنا صامتتين إلّا أنني كنت أصرخ في داخلي.

وددت لو أتيحت لي الفرصة لأضربها ذلك اليوم ضربًا شديدًا على قلبها فأوجعها كما أوجعت قلب أخي "أحمد".

والله لو تعلم كم من فتاة من أقاربنا وجيراننا وحتى من زميلاته في الجامعة، كنّ يركضن خلفه ويتمنين نظرة منه لتحسّرت على ما خسرته، لقد خسرت شابًا بكر القلب وبكر المشاعر، لم يفتح قلبه لأنثى من قبل، وكانت هي أول أنثى يدقّ قلبه لها، أحبّها بجنون وما يزال على أمل، لعلها تفكّر فيه مرّة أخرى، وتقبل بالزواج منه..

ولكن... أخشى أن يكون قلبها لغيره، لابد أن أكشف خبيئتها وأنبّه أخي "أحمد" لعله يخرجها من قلبه.

❊ ❊ ❊

7

"دعاء" كنت أعلم أن زوجة أخي ما زالت تعاملني بحساسية، وخاصة بعد أن رفضت الزواج من أخيها "أحمد"

خشيت أن يعود لطلب يدي، وكنت أترقب وأنتظر لأرفضه مرة أخرى وأقول "لا".

لاحظت أنهما لا يذكرانه أمامي، وأنه لم يأت لزيارة بيت أخي منذ وصولي، تساءلت في نفسي إن كان قد خطب فتاة أخرى أم لا؟

تملكني الفضول ووددت أن أسأل لكنني خجلت، وعلمت بالصدفة وأنا أسترق السمع لـ "نور" وهي تخاطب خالتها- التي كانت تسأل عنه دومًا- أنه سافر في مهمة خاصة بعمله في الشركة التي يعمل بها، وسيتغيب ربما لشهر قادم فاطمأننت.

ومرت الأيام، وعاد "أحمد" من سفره، وعلمت من بنات أخي أنه سيزورنا اليوم، وتأكدت عندما دلفت إلى المطبخ ووجدت زوجة أخي منهمكة في إعداد الطعام، كانت تتفادى إزعاجي بالحديث عنه، وتبالغ في إكرامي حتى أنني أشفقت عليها وشعرت أنني ضيفة ثقيلة لأنني أجهدها وهي الخلوقة والودودة..

كنت أراقب عقارب الساعة وأشعر أنها تدق فوق رأسي، فبعد قليل سيعود "أحمد" مع أخي "جمال" وسألتقي به مرة أخرى.

ولم أكن قد رأيته منذ شهور حيث كان اللقاء الأخير عندما قمت

فجأة واختفيت من أمام عينيه، وعاد أخي وخالي ليخبراه أن كل شيء قد انتهى، مرّ الوقت ودق أخي جرس الباب لينبهني قبل أن يدخل معه لأرتدي حجابي، ارتديت إسدال الصلاة، ولم أتكلّف في ملابسي، وكأنني لا أهتم لحضوره.

ثم اتجهت إلى المطبخ وبدأت في حمل الأطباق، وسمعت أصوات ضحكات بنات أخي وخالهما "أحمد" يلاعبهما وكلتاهما تصرخ بفرح.

مررت من أمامهما وألقيت السلام بحرج، تلاعبت على شفتيه ابتسامة خفيفة ثم حيّاني بأدب:

وتصنّعت الانشغال بإعداد وترتيب المائدة مع "نور" التي كانت تتحدث مع أخيها وهي تتنقل

تسأله عن عمله ويجيبها، وتخبره عن أخبار العائلة ويسمعها.

قالت بفرحة:

- خالتي تسأل عنك دائمًا، وأكدت عليّ أن أخبرك أنها تنتظر زيارتك قريبا لأنها مشتاقة لرؤيتك.

أجابها سائلا:

- متى سنذهب لزيارتها سويا؟ فلن أذهب وحدي بالطبع!

قالت وهي توزع الأرز في أطباقنا:

- في أي وقت نذهب معا ونبيت ليلة، أو ليلتين، فقد اشتقت إلى خالتي كثيرًا.

قال وهو يقلب الحساء الساخن ببطء ليبرّده:

- نذهب مبكرا لنعود في نفس اليوم، فلن أتمكن من المبيت هناك.

قالت بصوت ساخر وهي تقطّع اللحم:

- تريد الهروب من زوج خالتك، لا أظنه سيتركك حتى يزوجك من "رقية".

ثم توقف الحديث بينهما فجأة وخيم علينا الصمت لبرهة، وكأنهما تحرّجا من وجودي!

كان "أحمد" يجلس أمامي مباشرة، وبدا مختلفًا عن كل المرّات التي رأيته فيها من قبل،

كانت الشمس قد لوّحت بشرته قليلًا ويبدو أنه فقد القليل من وزنه، لابد أنه قد أرهق كثيرًا في العمل.

ما زال أنيقًا وما زالت ابتسامته مشرقة، وما زال عطره القوي يخترق أنفي بلا استئذان.

كان مرحا ويضحك كثيرًا مع "مودة" و "رحمة".

تناولت طعامي وأنا لا أشعر بالفارق بين الأرز والخبز والحساء الساخن، وكأنني فقدت حاسة التذوق،

ظللت أحملق في ملعقتي وأنا أقلّب الحساء وأفكّر في نظراته التي لابد وأنها تخترق رأسي الآن،

لم أنتبه إلا و "نور" تفرقع بأصابعها أمام عيني وتسألني:

- ما الذي يشغل بالك؟

لماذا لا تأكلين يا "دعاء"؟

أجبتها وقد ارتبكت قليلًا:

- لا شيء، أنا بالفعل أتناول طعامي، سلمت يداك، إنّه شهيّ جدًا

ابتسمت وأنا أحاول ابتلاع ما بفمي، لكنني في الحقيقة كنت في حالة من التوتر وكأنني تحولت إلى آلة تسجيل وأنا أنصت لكل كلمة يقولها "أحمد" بصوته المميّز..

وهو يقصّ علينا تفاصيل رحلته وما قام به، وكيف كانت رحلتة رائعة، وحتى وهو يمضغ الطعام ويشرب الماء، شعرت أن أنفاسه تلامس أذني رغم أنه بعيد...

تلك الليلة لم أنم بسهولة وسهرت طويلًا أراجع ما حدث، وما قاله.. لقد أصابني بتوتّر، نعم "أحمد" يوتّرني كثيرًا، ولابد أن أتفادى اللقاء به بكل الطرق حتى لا أتأثّر بجاذبيته وأتراجع عن قراري، لا بد أن أتزوج من فارس أحلامي بصفاته الكاملة، ولن أخضع لسحر "أحمد"، عندما يأتي مرة أخرى، لن أخرج من غرفتي

سأتصنّع النوم أو أخرج..أو..أو..أي شيء.

❊ ❊ ❊

8

"أحمد"

دقّة قلب قوية، ووجع خفيف، غير مؤلم لحد المرض يتوسط صدري عندما أرى "دعاء"، وكأنني على وشك السقوط من مكان مرتفع، وجع خفيف يتلجلج في صدري لكنني أحبه.

لأنني لا أشعر به إلا عندما تكون في الجوار، بعيدة ربما، وربما أغض بصري قدر استطاعتي عنها لكنها قريبة من نفسي!.

طيفها أمام عيني كأني محدود به حدودا مسحورة تحيطني وتمضي معي حيث أكون..

وكأنّ روحي تغادرني لتصافح روحها، وتقبّل الثرى تحت قدميها، لكنها تأبى حتى أن تحييني بهزّة رأس خفيفة أو لمحة عابرة.

توسلّت لطيفها أن يكفّ عن ملاحقتي في يقظتي ومنامي.. لكنه أبى أن يتركني..

أحببتها وما زلت وسأظلّ أحبها، وحبي هذا لا يحتاج إلى منطق يُبرره، فهو نفسه منطق!

والذي يسألني لماذا تحبها كمن يسألني لماذا تتنفس...

هي صادقة، بسيطة، جميلة، وجهها يحمل بهاء الكون كله، لا تحتاج لإكمال نقص فيها بكذبة، ولا ألوان تلطخ بها وجهها.

عندما ذهبت لخطبتها وجدت فيها كل ما تمنيته يوما في زوجة تقرّ بها عيني، ووجدتني دون وعي مني أوسع لها مكانًا كبيرًا في

قلبي، غلبتني بحيائها الذي لاحظته، وأسرتني بعفّتها عندما كنت أراقبها وهي تتحدث مع أقاربها من الرجال، ثمّ سلبتني عقلي دون أن تدري عندما جلست معها أول مرة.

بعد أن نصحني خالها الطيّب، وقد كنا معا في بيت والدها ننتظر دخولها، حيث لبث برهة يتخلل لحيته بأصابعه غارقًا في التفكير ثم قال:

- انظر في عينيها جيدًا وتحدّث إليها وهي تنظر إليك، وإيّاك أن تخجل وتضيّع الفرصة، هذا حقك وحقها

لقاؤك بها الآن "رؤية شرعية" فانظر يا بنيّ.

تأكد يا "أحمد" من أنها هي سكنك، وأنها تعجبك وستعينك على غض البصر

لابد أن تفرح بها وتراها حلوة ترضيك بعينيك وليس بعين أي شخص آخر، وعاقلة تعينك، وعلى دين لترضي معها ربك.

وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام لأحد الصحابة ناصحًا ومعلمًا عندما أخبره أنه سيخطب:

"انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما"

هززت رأسي موافقًا وقد كنت رأيتها من قبل في بيت أخيها أكثر من مرة، وشعرت نحوها بقبول مبدئي، لكنني لم أجرؤ على رفع عيني نحوها وتفحّص وجهها وملامحها قبل هذا اليوم الذي كان من أسعد أيام حياتي.

حيّرتني عيناها الجميلتان، كأنها على وشك الضحك، وعلى وشك البكاء

كانت تهرب من عيني، وكأنها تتفادى نظراتي

وجدتها لمّاحة وذكية، لم أحتج لإعادة الكلام ولا لشرح معناه، فقد أجادت ملء الفراغات التي كنت أتركها أثناء حديثي معها

سألتني كثيرًا وتخيّرت أسئلتها ببراعة، وبدت أحيانًا وكأنها تحقّق معي، لكنني كنت أستعذب هذا التحقيق

وكنت طائعا مستسلما أجيب وأنا مستمتع بتعبيرات وجهها التي أسرتني، وهي تحاول أن تكون جادّة في حديثها، وهي تزمّ شفتيها الرقيقتين، وتعقد حاجبيها البريئين، وتنظر إلى بعمق بعينيها الجميلتين نظرات خاطفة فيرتجف قلبي المسكين في صدري... إنهاحقًا جميلة.

لم أسألها عن نفسها، رغم الأسئلة الكثيرة التي كانت تخامر ذهني، فلم أحبّ أن أُدخل الشكّ إلى نفسها وقد فهمتها من خلال كل سؤال طرحته عليّ، وأدركت أنها حريصة جدًا، وتبحث عن الأمان، والاحتواء، جادّة في اختيار شريك حياتها، وتتمنّى الزواج من شاب قويّ الإيمان.

كدتّ أخبرها بكلّ عمل صالح فعلته، لكن الكلمات تلاشت على طرف لساني، فقد شعرت لحظتها أنني سأبعثر كل شيء فعلته لله.

لماذا سأخبرها؟ وأنا لا أطلب إلا رضا الله، وأمّا هي فطلبتها من ربي، ويقيني أن الله قد استجاب لدعائي، لكنها فقط بعض العقبات.

هي عاقلة، لن تغريها الماديّات فهي لا تهمها كما تهم الكثير من الفتيات، ولن تقع فريسة لكلمات دافئة ولا إطراء ذكي، تأكّدت أنها تقرأ الشعر الذي أحبه، وأخبرتني شقيقتي «نور» أنها تعشق القراءة، وأخبرتني أيضًا أنها كتومة جدًا، فاحترمت ذلك خلال حواري معها. حاولت أن أستشفّ من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي منزلة

أنزلها من قلبها..غريب فأقنع وأمضي

أم حبيب فأمضي في الزواج وأصبر.. وقررت أن أصبر حتى لو كنت غريبًا..

زرتها بعد الخطبة ثلاث مرات كنت أشعر أنها كالبالون ممتلئة بالكثير من الأحاسيس الراقية، والمشاعر الدافئة.

لكنّها تربطه بإحكام وبقوّة وتأبى أن تحررها الآن، وكأنها زجاجة عطر تأبي أن تنسكب إلا على قلب زوجها لتعطّر شغافه، أو كزهرة يفوح عبق عطرها فقط على كف حلالها وزوجها العاشق، تألّمت بشدة عندما قررت الانفصال عني، لا أذكر ماذا قلت لأخيها وخالها، لكنني فقط أذكر أن قلبي غاص في أحشائي، فحاولت أن أبدو متماسكًا، ونهضت مرتبكًا واختلّ توازني،

أسرعت بالخروج من بيتهم، واستندت بجسدي على حائط الدرج قليلًا قبل أن أعود إلى بيتي، حاولت أن ألملم مشاعري المتناثرة والمضطربة، وابتلعني حزني.

هي تستحق زوجا يحبّها بشدة، ولا أظن أن هناك على وجه الأرض من ينافسني في حبّها، سأطرق بابها مرة أخرى، فأنا انسحبت فقط لأترك لها فرصة أخرى لاختياري من جديد ولن أيأس.

* * *

9

«دعاء»

قررت أن أبحث عن وظيفة أنشغل بها وأتكسب لأرضي نفسي التي أوجعتني بكثرة التفكير، ولأرتاح من حساسيتي المفرطة وأنا ضيفة على أخي «جمال» وزوجته.

تمنيت لو تركني أعود لبيت أبي وأعيش وحدي، لكن الفكرة كانت مرفوضة وغير قابلة للنقاش، فهو يكبرني بعشرة أعوام وأنا أجلّه وأحترمه كثيرًا، وأخشى عليه من الانفعال بسبب مرضه...

وبعد صعوبات لجأت لربي ودعوته كثيرًا أن ييسر لي عملًا جديدًا أنفع به الناس ويرضيه سبحانه عني.

وبسر الله لي، فقد ساعدتني سيدة فاضلة وهي إحدى قريبات «نور»، حيث رشحتني لوظيفة عن طريق أحد معارفها، ورزقت كما ترزق الطير التي تغدو خماصًا وتروح بطانًا، وها أنا الآن أتأهب لاستلام وظيفتي الجديدة، اختصاصية اجتماعية في إحدى المدارس الثانوية للبنات.

كان يومي الأول مزدحمًا، لكن بدايته كانت مشرقة عندما التقيت بمديرة المدرسة الأستاذة «نوال»، وجه بشوش تحيط به هالة وضّاءة من الشرف والنبل تغشاها سحابة خفيفة من الهمّ، شممت فيها رائحة أمي.

❊ ❊ ❊

"نوال"

ما زلت أذكر هذا الشعور الرائع عندما التفت إلى "دعاء" وهي مقبلة علي كالنسمة اللطيفة في نهار الربيع

وقد ألبستها الأيام ثوب الشباب القشيب.

جاءت لتسلم عليّ بوقار، وقد أعجبتني بهيئتها وملابسها المحتشمة، وحجابها المنضبط دون إهمال

فكم تمنيت أن تعمل لديّ في مدرستي معلمة لطيفة مثلها تحبها الطالبات، صالحة لتكون قدوة للبنات

لا تبالغ في زينتها، وتمثل المعنى الحقيقي للحجاب، حجاب المظهر وحجاب الجوارح معه.

كان مظهرها بسيطًا وأنيقًا في نفس الوقت، دقّقت في وجهها الخالي من مساحيق التجميل، فرضيت نفسي

وتفحصتها أنفي وهي تقبّلني مرحبة بي، ولم تلتقط تلك العطور النفّاذة التي تضايقني بها بعض المعلمات بكفوفهن الرطبة، فتبقى بقايا عطورهن عالقة بكفي بعد انصرافهن.

وابتسم في كل مرّة عندما أتذكّر وجه زوجي رحمه الله عندما كان ينبهني بلطف منذ خمسة وأربعين عامًا

عندما كنت أتهيأ للخروج معه وأتعطر من أجله، فيغضب وينهاني عن الخروج متعطرة امتثالا لهدي النبي ﷺ..

كم كان ودودا، وكم كنت أفرح بغيرته الشديدة. عندما اقربت "دعاء" كنت أقف في ضيق، وقد أزعجتني أصوات البنات التي حملتها

لي الجلبة البعيدة وهنّ يضحكن بأصوات صاخبة، ولا يبالين بحرّاس المدرسة الواقفين على البوابات، ولا بالمعلمين من الرجال وهم يراقبون ما يحدث فيلتفتون فجأة رغما عنهم في كل مرة تطلق إحداهن ضحكة عالية بصوتها الناعم. مرحلة عمرية خطيرة، وفترة حرجة.

ترتفع هرمونات الأنوثة وتضخ في أجسادهن لتصرخ وهي سجينة تحت جلودهن، وتتخبط أنفسهن بعشوائية وهن يصارعن ما يتغير فيهن، عاجزات عن ضبط انفعالاتهن، ضاحكات بعفوية أحيانًا، أو محبطات ربما، وأيضًا تائهات في كثيرٍ من الأحيان.

عرفتني بنفسها ومدت يدها لتصافحني، فاحتضنت كفها الرقيق، وسحبتها معي واتجهت إليهنّ، احتجت لتغيير نبرة صوتي والعبوس في وجوههن قليلًا حتى يخفن مني، وتحدثتُ بحزم.

انصرفت البنات لفصولهن، والتفتُّ إليها، وربّتّ على كفّها الصغيرة بيدي الأخرى وبدأت أتحدث إليها...

- أنت "دعاء" إذًا.. مرحبا بك حبيبتي بيننا.

قالت بطريقة مهذّبة:

- أهلا أستاذة "نوال" أنا آسفة جدًا، لم تتح لي فرصة اللقاء بك عندما أتيت المرّة الماضية.

قلت أخفف عنها:

- سامحيني كان لديّ اجتماع طارئ، سعيدة أني رأيتك اليوم.

وأنتظر منك الكثير، فأنا أحببتك، وأعجبتني هيئتك، ودخلتِ قلبي، وأتمنى أن يكون عقلك أيضًا جميلًا كوجهك.

وأمسكتُ برأس "دعاء" بين كفيّ وهززتها برفق فابتسمَتْ، وغادرتني متجهة إلى غرفة إحدى المشرفات بالمدرسة، إنها الأستاذة "سعاد"، لتتعرف على مهامها، وتبدأ العمل.

مر اليوم الأول هادئًا، وأسعدني اللقاء بـ "دعاء"، لكنني قلقت عليها عندما اقتحمت "سعاد" غرفتي، وهي مقطبة الجبين وكأنما قد جثمت روحها الشريرة بين عينيها.

رفعت رأسي أحييها، وابتسمت وأنا أحاول تجاوز العاصفة المقبلة بسلام عندما قالت بضيق شديد:

- أستاذة «نوال»، أنا منزعجة جدًا وغير مرتاحة، لا أدري لماذا انقبض صدري عندما رأيت الاختصاصية الاجتماعية الجديدة «دعاء».

خلعت نظارتي ونظرت إليها بجديّة وسألتها:

- لماذا؟ إنها فتاة لطيفة جدًا، وعمرها قريب من عمر الطالبات، وأظنها ستؤثر فيهن، الأستاذه «كريمة » أثنت عليها كثيرًا، وأوصتني عليها عندما هاتفتني أمس.

زفرت «سعاد» بحنق وقالت:

- لا أدري، حتى ابتسامتها صفراء وتفتقد إلى البراءة، لا أحب هؤلاء أصحاب هذا «الورع الكاذب» الذين يختبئون خلف ملابسهم، ويخدعوننا بمظهرهم المتدين، لو حاولت أن تسمم أفكار البنات بأفكارها المتطرفة، سأقف لها ندًا، أتساءل لماذا لم تتزوج حتى الآن؟!

لابد أن ملابسها هي السبب، فهؤلاء اللاتي يفتقدن للحس الفني الراقي، والأناقة في لف الحجاب لا تتزوجن، إنها ترتدي ألوانا باهتة

كما أن وجهها شاحب، وحجابها لا يعجبني، كما أن شخصيتها المتزمتة بدت لي من تصرفاتها وطريقتها في الكلام.

ليتها تتعلم من «رباب» معلمة التربية البدنية الجميلة، واللبقة، والرشيقة الرقيقة، هل رأيت كيف لفّت حجابها اليوم؟

ابتسمت وأنا أستمع إلى «سعاد»، وتعجبت من انشراح صدري لـ«دعاء»، وانقباض صدرها لها

وسرعة حكمها عليها، وتحليلها لشخصيتها واستباق الأمور، وقلت بلهجة حازمة قليلًا:

- دعيها تعمل، ولا تقلقي منها، ولو حدث منها أي تجاوز أخبريني فورًا، فأنا أحبّ أن أتعامل معها مباشرة، دون وسيط بيننا، هل فهمتني يا «سعاد»؟

مصمصت شفتيها وقالت:

- آه لو رأيتها يا أستاذة «نوال» وهي تخفض رأسها، وتتلاعب بعينيها وتنظر هنا وهناك

وتتكلم بصوت مبحوح كالأفعى مع الأستاذ «كمال» الذي هو في عمر والدها، واشتعل رأسه شيبًا

كان يرحب بها، وبدأت في التمثيل، ليته ما شكر فيها، وليته ما دعا لها كل تلك الدعوات، يقول إنها ذكرته بـ «بنات شعيب» لأنها.. تمشي على استحياء!

وقامت «سعاد» وهي تتكسر في مشيتها وتتمايل سخرية من «دعاء» وسريعًا ما ضبطت مشيتها عندما خرجت من غرفتي.

أضحكتني مشيتها لكنني شعرت بتأنيب الضمير لأنني لم أنهها عن السخرية منها أمامي، وخاصّة أنها فتاة خلوقة ومهذّبة وقررت ألا أسمح بتكرار هذا الأمر أمامي مرّة أخرى

تأكّدتُ الآن أن «دعاء» ستعاني من «سعاد» وعصابتها الثلاثية من المعلمات المقربات بالمدرسة

وعزمت على الوقوف بجانبها ودعمها إن كانت كما ظننتها على خير، فلن أتسرع أنا أيضًا وأحكم عليها بأنها رائعة، فأنا لا تكفني المظاهر، أنا أنتظر سلوكًا وأفعالًا، ولا بد أن أراقبها قليلًا بعيدًا عن تأثير «سعاد».

***

10

«دعاء»

لم أتوقع أن أحب عملي هكذا، ولم أتوقع أن تتسرب السعادة وتكشف الغطاء عن طموحاتي وتشدّها لتنهضها بعد أن أفاقت من غيبوبة حلت بها خلال السنوات القليلة الماضية.

ازدحم ذهني، ونشط خيالي، وتأهبت لإعادة ترتيب أوراقي حتى أنني اتخذت قرارًا أن أقدم أوراقي، وأبدأ في الإعداد لأحصل على شهادة «الماجستير»، وأحببت أن يكون موضوعها جديدًا ومفيدًا.

أبهجتني ضحكات الفتيات، وأنعشتني أسئلتهن الفضولية، ولفتن نظري لأشياء نهملها ولا ندرك أنها تؤثر فينا، وبدأت أتعرف على وجوههنّ، والقليل من الأسماء.

واضطررت إلى استدعاء القليلات من الطالبات، كانت الاختصاصية الاجتماعية التي سبقتني في شغل الوظيفة قد أعدت لكل منهن ملفًّا خاصًا، وكان لا بد من المتابعة.

كنت أشعر باطمئنان كلما تلتقي عيناي بعيني الأستاذة "نوال"، نظرة عميقة، وصوت هاديء، وأمجاد جمال بدأت تأفل، وابتسامة واثقة على ثغر رقيق، والأروع من كل هذا.. تربيتة حانية على كتفي وكأنّها أمي.

نادتني مرّة وأنا أحوم حولها كقطّ يتمسح في ساق صاحبه الذي

يحبه لعله يحمله، فاقتربت بشغف لعلها تمنحني نفحة من حنان بنكهة الأمومة، سارت معي أمام الفصول.

الأبواب مغلقة، وعيون الفتيات تطالعنا بفضول من النوافذ المفتوحة والمطلّة على الممر الطويل

ثمّ يلتفتن سريعا للمعلم أو المعلمة ويخفين ابتساماتهن اللطيفة..

نظرت إليّ وسألتني:

- ما الجديد الذي ستقدمينه للبنات يا "دعاء"؟

أجبتها بثقة:

- أنا أحاول أن أكون موجودة عندما تحتاجني أي واحدة منهن، سأكون دائمًا إن شاء الله مستعدة، أحنت رأسها ووضعت ذراعيها خلف ظهرها وقالت:

- لا يكفي.

رفعت كفي ومسحت وجهي بتوتر وفكرت في إجابة أخرى لكنها واصلت كلامها قائلة لي:

- لابد أن تكوني موجودة هناك قبلهنّ، اسبقيهن بخطوة.

سألتها:

- تقصدين أن أصاحب الطالبات وأقترب منهن، أليس كذلك؟

أنا فعلا أحاول دخول الفصول في أية حصّة غاب معلمها، وأحاول تحضير مواضيع عامة أكلم البنات عنها، وخصوصًا القضايا التي تهمهن في هذه المرحلة من عمرهن، قاطعتْني وتوقفتْ عن السير والتفتتْ إليّ حتى صار وجهها أمام وجهي مباشرة- فلاحظت وأنا أنظر إليها تلك

التجاعيد الرقيقة التي تحتضن عينيها من الحافتين ببشاشة- ثمّ قالت:

- أن ترين ما يدور في أعماق البنات تلك ملكة يا "دعاء" أتمنى أن تكون لديك، حاولي إدراك اللا مرئي... ما وراء المظاهر يا ابنتي، فكري في طريقة مميّزة تتركين بها بصمة في شخصية كل طالبة تتعاملين معها، فربما تتذكرك يومًا ما وتدعو لك لأنك كنت سببًا في تغيّرها للأفضل.

أو ربّما تتذكر كلماتك وهي تتخذ قرارًا هاما في حياتها الخاصة.

ابتسمتُ وكنت أظن وقتها أن الأمر سهلًا وقلتُ بحماس:

- بالتأكيد أستاذتي، سأحاول ترك بصمتين، واحدة بقلوبهن، وواحدة بعقولهن.

رمتني بنظرة إعجاب واستردتها سريعا، وعادت للسير بجانبي بعد أن علّقت يدها في ذراعي وقالت:

- تجنّبي الوعظ المباشر، فالبنات يكرهنه، وتذكري دائمًا كيف كنت تفكرين وأنت في عمرهنّ، واحفظي سرّ كل طالبة تأتمنك على سرّها، واكتميه، ولا تسمحي لأحد أن يمنعك عن تحقيق هدفك. ثم توقفت عن الكلام لحظات ثم رفعت حاجبيها وأكملت:

- إن كان لك هدف!.

وابتسمت بودّ، وبادلتها الابتسامة وقد نجحت في شدّ انتباهي لجملتها الأخيرة.

هززت رأسي وقلت وأنا ممتنة لها: - إن شاء الله.

فارقتها عند باب غرفتها، وعدت لغرفتي أحمل فكرة جديدة، سهرت ليلتي أخط بقلمي أهدافا وأرتب أوراقي، وفي اليوم التالي كنت أنتظر

حصّة غاب أستاذها، لأدخل بدلا منه لأي فصل من فصول الصفّ الثالث الثانوي، وأطبّق تجربة جديدة، وتهيّأت لي الفرصة أخيرًا...

إنها الحصّة الأولى والمعلمة غائبة، حملت صندوقًا ورقيًا، واتجهت إلى الفصل الثالث أول بالقسم العلمي

أحمل الأوراق، والصّندوق، وأخيرًا وصلت ثم دخلت..

نهضت الفتيات تحيّة لي، فأسرعت أشير إليهن ليجلسن، وأغلقت الباب وابتسمت.

تصفّحت وجوههن بنظرة سريعة، تأملت الرؤوس التي توزعت أمام عيني ووددت لو أنني أقرأ الأفكار، وضعت أمامي على الطاولة الصندوق الورقي الذي جلست في غرفتي الليلة الماضية أزيّنه بأوراق الهدايا الملونة ليعجبهن منظره.

وقفت أمام السبورة ووجدتني أضع ذراعيّ خلف ظهري كما تفعل الأستاذة "نوال" وقلت بهدوء:

- هذا الصندوق يخصّكنّ اليوم، سأوزّع على كل واحدة منكن ورقة بيضاء، اكتبي عن أي شيء تفكّرين فيه، مشكلة تمرّين بها، حلم تتمنينه، سؤال يحيرك، عتاب توجهينه لشخص ما دون أن تعرّفينا باسمه، اكتبي أي شيء، ولو حتى كلمة واحدة، المهم هو التعبير عن نفسك وعن ما يشغل فكرك.

سألتني إحداهنّ على استحياء وقالت:

- ولو كانت مشكلة حسّاسة؟

أجبتها بنبرة مطمئنة:

- سأحاول مناقشتها كمشكلة عامة وسأحاول مساعدة صاحبتها.

رفعت "سارة" صاحبة العينين الخضراوتين يدها تستأذن لتتكلم فسمحت لها، ووقفت وهي تخفي بكفّها خصلات شعرها المتمرّدة من تحت حجابها الأنيق، وقالت:

- الأفضل عدم طرح المشاكل الخاصّة بشكل علني أمام الجميع، هنا أستاذة "دعاء"، فكلنا نعرف بعضنا البعض، ومن الممكن أن نستنتج ونعرف من هي صاحبة المشكلة.

هززت رأسي موافقة وقد أعجبتني ملاحظتها، وسألتهن مباشرة:

- أي اقتراح؟

استدارت "سالي" وتأملتني بعينين نابهتين من خلف نظارتها المستديرة، ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها بعد أن شدت حجابها بقوة لتخفي جبهتها العريضة، وهي تلوك قطعة علكة في فمها جعلتني أقاطعها، وأشير إليها لتلفظها، وقالت بكلمات سريعة قبل أن أشرع في توزيع الأوراق:

- تكتب كل طالبة تحب أن تكون ورقتها سرية رقما ما على الورقة من أعلى ولا تخبر به أحدًا، وتحفظه غيبا، أي تعلّم ورقتها بطريقة سرّية، وهكذا تتمكنين من التواصل مع صاحبة الرسالة لاحقًا لو احتاج الأمر.

فبمجرد إخبارنا أنّ على صاحبة الورقة رقم كذا أن تأتيني في غرفتي بعد الحصّة ستتجه إلى غرفتكِ صاحبة الورقة، وهكذا ستقرئين لنا علنا فقط الأوراق الغير مرقّمة.

وافقت على اقتراح النابهة والذكية «سالي» بعد ملاحظة «سارة»، والتي طالعتني ممتنّة بعينيها الخضراوتين وشرعت في توزيع الأوراق، حتى وصلت إلى «أميرة» صاحبة الضفيرة الطويلة، والنظرات الحزينة.

والتي قالت لي بصوت أسيف:

- وكيف نثق بأنك لن تفضحي أسرارنا وتحرجيننا لو سألناك أي سؤال حسّاس، وكيف نضمن أن الرسائل لن تصل لمديرة المدرسة، وماذا لو كتبت طالبة كلمات خارجة وتم عقاب الفصل كله؟

توقفت عن توزيع الأوراق والتفت إلى البنات جميعهن وقلت:

- ببساطة، من لا تعجبها الفكرة لا تكتب شيئًا، ومن تخاف أيضًا لا تكتب أي شيء، هذا ليس أمرًا إلزاميًا وليس اختبارًا، لكنّ أنا أحاول فقط تقديم المساعدة لمن تحتاجها...

انتهيت من توزيع الأوراق، وعدت لأجلس على مكتبي أمامهنّ، وطوال ربع ساعة كنت أراقبهنّ، وأتفرّس وجوههن في ترقب، وكلّ منهنّ تخفي ورقتها من زميلتها، البعض منهنّ تضحك، والبعض وجدتهنّ منهمكات في الكتابة وكأنّه اختبار، واثنتان قد انتهيتا في ثانيتين من كتابة كلمة ربما أو سؤال قصير وجلستا تضحكان وهما تتأملاني، انتهت الربع ساعة ومررت بالصندوق بينهنّ، وكل منهنّ قد طوت ورقتها بعناية ودستها في الفتحة التي جعلتها في أعلى الصندوق.

سألتني البنات أن أفتحه خلال النصف ساعة المتبقية من الحصة؛ لأجيب عن بعض الأسئلة فاستجبت لهن وفتحت الصندوق وسحبت أول ورقة.

❊ ❊ ❊

11

كانت الرسالة الأولى طويلة، مكتوب عليها من الأعلى الرقم أربعة، كل كلمة في الرسالة بحرف أخير قد طارت أطرافه مع الحبر الأزرق، بدت وكأنها مكتوبة بكف تتعرق كثيرًا وكادت أن تشوه الحروف، وقد صار الحبر كالشبح الباهت وهو يحتضن الكلمات، عندما وجدتها طويلة فضلت أن أؤجلها، وأعدتها للصندوق

وسحبت أخرى وسط همهمات الفتيات اعتراضًا على عدم قراءتي للرسالة الأولى.

فتحت أكثر من ورقة لأتخير شيئًا يرضيهن أبدأ به، وجدت أسئلة تخصني فابتسمت وقررت أن أبدأ وأجيب عنها لأرضي فضولهن:

- كم عمرك؟

ستة وعشرون عامًا ونصف.

- ما هي دراستك؟

تخرجت من كلية الآداب، قسم علم النفس.

- متى ارتديت الحجاب؟

في الصف الثاني الإعدادي.

- هل أنت مخطوبة؟

لا...ليس بعد. - ما هو اسم صديقتك المقربة؟

اسمها «ريهام» وتزوجت منذ عامين ولديها طفلة جميلة.

- كم عدد أشقائك؟

أخ واحد ومتزوج وظللت أجيب أسئلتهنّ، وهنّ باسمات ضاحكات فرحات، كان فضولهنّ لمعرفة أي شيء عني شخصيا أكبر من حاجتهنّ لمعرفة شيء جديد، كدت أحكم على تجربتي بالفشل، فقد كان هدفي أن أقترب وأجيب عن أسئلتهنّ التي تحيرهنّ، ويكون لي دور كاختصاصية اجتماعية تؤثر فيهنّ بطريقة مميزة، ووجدتني الآن أجيب عن أسئلة تخصّني أنا!

وجدت عدة ورقات بيضاء خالية من أي سؤال، وورقتين بهما عتاب لشخص دون ذكر اسمه كما قلت لهنّ، إحداهما لصديقة وكانت:

- «توقفي عن انتقادي دائمًا فقد بدأت أكره الجلوس بجوارك»

والأخرى كانت:

- «إلى زوجي المستقبلي، أرجوك لا تتأخر، فأنا أنتظرك على أحر من الجمر»

ضحكت الطالبات بعفوية على تلك الرسالة، وغمرتهن البهجة، وعدت أبحث في الأوراق، كانت هناك ورقة رسمتني فيها إحدى الطالبات ببراعة بالقلم الرصاص، رسمت فقط عيناي بشكل بارع وكأنني أنظر إلى نفسي في المرآة، ولم ترسم أنفي ولا فمي!

ظهرت فيها حالمة وكأنني أفكّر، أو ربما حزينة نوعا ما! ووقعت أسفل الورقة باسمها «صفاء جلال» ويبدو أن البنات يعرفن موهبتها، رفعتها إليهنّ فصفقن لها وحييتُها على موهبتها، وسألتها:

- أين أنفي وفمي؟

أجابتني وهي تضحك بدلال وقالت:

- عيناك أنستني باقي ملامحك يا أستاذتي.

ضحكت وأنا أنظر لرسمتها مرة أخرى وقلت:

- أنت فعلا موهوبة.

سحبت ورقة ولا زالت ابتسامتي بعد رسمة «صفاء» تلازم وجهي، لكن ابتسامتي سريعًا ما تلاشت، وأنا أقرأ ما كتبته إحداهنّ على ورقة كُتب عليها من الأعلى رقم عشرة.

قرأتها مرتين بلا صوت، ودقّ الجرس، ودقّ معه قلبي، فأسرعت ألملم الأوراق، وعدت لغرفتي وأغلقت الباب، وفتحت الورقة لأقرأها مرة أخرى، وكان مكتوب فيها:

- أرى أحلامًا والبعض منها يتحقق، أخبرني أبي أنها رؤى.. بها بشريات وأحيانًا تحذرني من أمر ما أنا أراها بعد أذان الفجر، منذ بداية هذا العام رأيت تسعة رؤى وتحققت بأمر الله، والليلة الماضية رأيتك في رؤيتي العاشرة، وعندما رأيتك تدخلين الفصل الآن فزعت لأنني تذكرتها...

«رأيتك على باب قصر، تمدين كفيك، عصفور يبكي على كف، وحمامة تنوح على الكف الآخر، وصقر يلطمك بجناحه فتركضين هاربة إلى بناية جميلة شرفاتها عالية.. فاحذري من الصقر!.»

كانت الرسالة غريبة وغامضة، وأقلقتني كثيرًا، هممت أن أعود وأسأل البنات كما اتفقنا وأنادي على رقم عشرة لتأتيني وأتحقق منها هل هي تمزح معي، أوتكذب وتؤلّف، أم ماذا؟!

وبعد تفكير قررت أن أتجاهل الرسالة، بل وتركت البحث في

الصندوق، على أن أعود لتفحّص ما فيه من رسائل عندما أعود إلى البيت والتفتُّ إلى نافذتي...

كانت غرفتي تطلّ على حديقة المدرسة الرئيسية، وكانت أشعة الشمس الباسمة تقبّل نافذتي كل صباح

حتى نسمات الهواء العليلة، لم تحرمني من رائحة الريحان المزروع في الحديقة، أمسكت بكوب الشاي الساخن واحتضنته بكفيّ،

وتصاعدت منه الأبخرة، لتشقها نظراتي وأنا أحاول أن أنسى الرؤية التي أرسلتها لي طالبة أجهلها وأحاول أن أتصفّح كتابا جديدًا، وأعلّم بقلمي على العبارات التي تعجبني فيه، وأنقل بعضها في مفكرة صغيرة أحملها معي دائمًا، لأستمتع بقراءتها مرة واحدة بعد أن أنهي الكتاب كله.

بعد الحصة الرابعة، أتتني «أميرة» صاحبة الشعر الناعم والضفيرة الطويلة، ولازمتني في غرفتي حتى انتهى اليوم الدراسي.

❊ ❊ ❊

12

جاءت « أميرة» بوجه حزين وعينين متورمتين، وأنف أحمر، ودموع تجري، قالت وهي تقف على الباب وتستأذن بأدب قبل أن تدخل:

- أستاذة «دعاء» هل تسمحين لي بالدخول؟

هززت رأسي وأشرت لها بودّ أن تقترب، جلستْ بهدوء وهي تفرك منديلا ورقيا في يدها المتعرقة والتي ظهرت آثار الحبر الأزرق على أطرافها، وكانت ترتجف وهي تقول بصوت أسيف:

- أنا التي كتبت الرسالة المرقمة بالرقم أربعة، فهل قرأتيها؟

توقعت أنها الرسالة التي فتحتها ولم أقرأها، وهممت أن أخبرها أنني لم أقرأها بعد، لكنها قاطعتني بصوت أسيف تخنقه عبرات الحزن الدفين وقالت:

- أشعر بالخوف، أرجوك، لا تخبري أحدًا وليكن هذا سرًّا بيني وبينك.

- قمت من مكاني وأغلقت باب الغرفة، واقتربت منها وسألتها عن السبب.

أغمضتْ عينيها في إعياء، فسالت دموع حارقة على وجنتيها تشي بمعاناتها النفسية، ثم انهارت باكية بحرقة وتقوقعت في حضني، مسحت على رأسها وتركتها حتى هدأتْ قليلًا، وبدأت تحدثني

بكلمات سريعة، تزاحمت حروفها على شفتيها لتتحرر بأنفاس حارة، لعلها تخفف من حرارة الحمم التي تلتهم صدرها فترتاح، وقالت:

- وددت لو كتبت لك أكثر، أنا في ضيق شديد بسبب هذا الأمر، رسبت العام الماضي وها أنا أعيده مع طالبات يصغرنني بعام كامل، ورفيقاتي الآن بالجامعة.

أبي غاضب مني، وأمي دائمًا تلومني لأنني أضيّع وقتي، ولا أحسن التركيز، ودائمًا شاردة وتائهة.

هززت رأسي لتكمل، فأكملت بصوت متحشرج:

- أنا أتخيل نفسي وكأنني لست أنا، بشكل مختلف، وفي مكان مختلف، وأتخيل أشخاصا وأسميهم وأتجادل معهم، وأعيش في عالم آخر أحمله معي هنا.

وأشارت لرأسها ثم أكملتْ:

أغمض عيني وفي لحظة، أنتقل إلى هناك، أتحدث، وأبكي، وأصرخ...

قاطعتها لأطمئنها وقلت بصوت واثق:

- «أحلام يقظة».. كلنا في عمرك مررنا بها، أنت فقط خيالك واسع يا «أميرة» لا تقلقي.

طالعتني بنظرة جادة وقالت:

- أنا أحلم وأنا أسير وأنا آكل وحتى وأنا في لجنة الامتحان، بدأت أخاف، أراني أمام قبر أمي أبكي، وأراني ألازم أبي وهو مريض بمرض خطير ويتعذّب، وأتخيل أحدهم يعذبني أو يقتل أخي أمامي، أو أن هناك لصًا بالبيت، صارت أحلامي كوارث ومصائب. قاطعتها

مستفهمة ومحاولة أن أستوضح ما تقصده وقلت بوضوح:

- «أميرة»، هل تنفصلين تمامًا عن الواقع، أم هو شرود فقط؟

تنقلت بعينيها في الغرفة وقالت:

- أبحث عن أي مكان هادىء، غرفتي، أو آخر مقعد في الفصل، وأبدأ في التخيل، ولكن لو نادتني أمي أو أي شخص ينقطع الحلم، هل أنا مجنونة؟

عادت تبكي، وعدتُ لنظرتي الواثقة، ثمّ بدأت أنصحها، وأشجعها قليلًا، واستغرقتُ في سرد جمل رتيبة سمعناها ونسمعها عن ترتيب الوقت والتركيز، والإيمان والطموح والمستقبل الذي سيتحدد بمجموعها الذي ستتحصل عليه هذا العام، ونسيتُ أنني كنت يومًا مكانها، ونسيتُ شعوري بعدم الاتزان، وقلّة نضجي وقتها، ووجدتني أكرر كلام الكبار الذي كنت وأنا في عمرها أملّ منه.

كانت نظراتها شاردة، وكأنّها لا تسمعني، بكت كثيرًا، ودقّ الجرس، ودقت معه أجراس كثيرة في رأسي، فسألتها أن تبقى معي قليلًا في غرفتي، فربّعت ذراعيها على سطح مكتبي، وأسندت رأسها، ورويدًا رويدًا بدأت تفقد الإحساس بالأشياء من حولها ثم استسلمت للنوم، ظللتُ الغرفة بستارة النافذة، وجلستُ أمامها أراقبها.... كم أنت رحيم يا ربي، غشيتها غفوة بعد الهم والحزن فأمنت ونعست.

استيقظتْ بعد ساعة كاملة، وكنت على حالي أراقبها في صمت، ابتسمتُ لها، وطمأنتُها بكلمات رتبتُها خلال غفوتها، وقلت بصوت تصنّعت فيه المرح، وحاولت أن أغطي على قلقي:

- من اليوم سنبدأ صفحة جديدة، سنتبادل أرقام الهواتف، وسنضع

خطّة، سأشركك في نشاطات المدرسة، وسأكلفك بمهام لكي ينشغل ذهنك بشيء عملي، ولن نترك مجالًا لأية أفكار سوداء، فلتكوني صديقتي وأختي من اليوم، ما رأيك؟

رأيت ابتسامة صغيرة تشق طريقها بين الدموع ارتسمت على وجهها فأكملتُ وأنا أساعدها على النهوض:

- هيا يا أميرة، فلتغسلي وجهك، ولتعودي إلى البيت، ولتنسِ تمامًا كل ما يقلقك، أعدك أن أكون دائمًا معك عندما تحتاجينني.

نظرتْ إلى عينيّ بقلق وقالت:

- وما كتبتهُ في رسالتي؟

رددتُّ بثقة:

- فلتنسِ كل ما يقلقك، حتى ما كتبتهِ في الرسالة.

استدارت وتركتني وأنا أتساءل، هل أنا أيضًا بخيالاتي عن فارس أحلامي مريضة أم مجنونة!

❋ ❋ ❋

مرّ يومان ونحن في إجازة، تلقيت خلالهما اتصالًا واحدًا من «أميرة»، يوم السبت نهارًا، عقب أذان الظهر مباشرة، كانت وحدها في البيت، دار بيننا حوار شيق عن أشياء كثيرة إلا نفسها!

كان صوتها مرحًا قليلًا

وكأنها أخيرًا وجدت متنفسا تسكب فيه بعضا مما فاض به قلبها وامتلأ، سألتها مرة عن حال الأسرة فتغيّر صوتها، وشابَهُ بعض الحزن وقالت:

- أتعلمين يا أستاذة «دعاء»، قرأت مرّة في كتاب بعضًا من الجمل التي أظنها تنطبق على أمي وأبي « أمي وأبي كالشمس والقمر، لا يجتمعان لكن كلاهما مضيء...

كالزيت والماء لا يختلطان...

كالأبيض والأسود مختلفان.»

ران عليّ صمت لدقيقة، فقد تخيّرت جملا عميقة ووصفها بليغ، وكأنني أنصت إلى إمرأة عجوز في مغارة أو كوخ صغير فوق جبل يبحث الناس عنها ويذهبون لزيارتها؛ طلبا لحكمتها البليغة

وكانت المسكينة تشعر أن هذا حال أمها وأبيها

وصلني المعنى وفهمت أن هناك خلافات بينهما تؤثر عليها، سألتها عن أشقائها، فقالت:

- لديّ أخ واحد ويكرهني بشدة.

اتضح لي بعد ذلك أنهم لا يعرفون عنها شيئًا، وأدركت أن كلًا منهم منعزل ومشغول بحاله رغم أنهم في بيت واحد.

الأب عضو بارز ومشهور في مجلس الشعب، والأم تعمل كمحاسبة في شركة كبيرة، كلاهما منهك في عمله ويغيب كثيرًا عن البيت، وإن عاد فهو يعود للنوم أو تناول الطعام، ولن يكون هناك وقت ولا قدرة لسماع «أميرة»، حتى شقيقها كان في واد آخر، كانوا بعيدًا بمسافات تكفي لخلق جدار عال من الصمت، صمت الجفوة، حين تتسع المسافات بين الأرواح، فتتلاشى الرؤية، ويبقى السمع بلا فائدة، وتتحطم الكلمات على الشفاه فلا يخرج صوت!، صمت مذاقه مرّ، يجر إلى الوحدة والهجر النفسي.

واظبت «أميرة» على الحضور إلى مكتبي خلال الأسبوع، وصارت تطمئن لي.

في أحد الأيام وجدت وأنا أفتح باب غرفتي بالمدرسة في الصباح رسالة دسّت من تحت الباب، انحنيت والتقطتها وقربتها من أنفي فقد وجدت لها رائحة مميزة!، فتحتها- وكانت مكتوبة بعناية وخط جميل-لأجدها من نفس الفتاة الغامضة، صاحبة الرؤى التي تتحقق، وكان مكتوب فيها:

«رأيتك ترتدين فستانا لونه كزرقة السماء، تنحدر منه حبات اللؤلؤ، وشاب وسيم وطويل ينحني ليجمعها في كفّه ويعطيها لك، ثم تبعثرينها مرة أخرى.»

تذكرت فستان خطبتي لأحمد، وبدأت أشك أن تلك الفتاة تعرفني!

راجعت أسماء بنات الفصل الذي كنت فيه، وقضيت وقتًا طويلًا وأنا أفكّر، من يمزح معي؟

فكرت أن أعود إليهنّ وأسأل عن من كتبت الرسالتين، لكنني فضلت تجاهل الأمر كله.

وسط الأسبوع عدت لبيت أخي منهكة بعد أن ضاق صدري وحزنت من أجل «أميرة»، وبعد أن تناولنا معا طعام الغذاء، استأذنت من أخي لأخرج قليلًا، وسرت في الطريق، أفكر في «أميرة» فاصطدمت عيناي بلافتة كبيرة لطبيب نفسي مشهور في بلدتنا، وجدت نفسي أسير إلى البناية، وأصعد الدرج بهدوء، أملي موظفة الاستقبال في العيادة اسمي، وتعطيني رقما، وأجلس لأنتظر دوري، لم تكن عيادته مزدحمة في هذا اليوم، راقبتني عيون الجالسين بريبة، وراقبتهم

بفضول، وجوههم تشبه تلك الأخرى التي نراها حولنا لا تظهر عليهم العلامات المريبة والحركات التي نراها في المسلسلات والأفلام، لم أشعر أنهم غرباء!

ربما يعانون فقط من بعض الضلالات النفسية.

كان هناك شاب يقرأ، وسيدة أنيقة تضاحك صغيرها، وشابة جميلة جلست تقلّب في هاتفها الجوال، فضّل الجميع الصمت فابتلعهم طائعين..

وكأنّ الهم يضع كفّه على أفواههم، وددت أن أسألهم واحدا تلو الآخر عن سبب ألمه، وأخفف عنه، أطاحت بأفكاري المبهمة موجة من تداعي المعاني، كنت أريد أن أفهم كلّ شيء عن كلّ إنسان موجود بالعيادة..

ووجدت لساني يلهج بالدعاء لهم، مرّ الوقت وجاء دوري ونادتني الممرضة ودعتني للدخول فتقدمت بخطوات ثابتة.

❊ ❊ ❊

13

دلفت إلى غرفة الدكتور «أيمن» والذي حيّاني بابتسامة واسعة احتلت وجهه كاملًا، وجلست أشرح له سبب وجودي:

- دكتور» أيمن» أنا لست مريضة، ولكنني جئت لأسألك عن طالبة عندي، تشكو من خيالات مزعجة ومقلقة وهي متيقظة، عن أحلام اليقظة تحديدًا أسأل، فهل ستساعدني؟

عدّل نظارته وطالعني بابتسامة ساخرة لم ينجح في إخفائها، ثم قال بهدوء:

- هل فعلا أنت تسألين عن طالبة أم عن نفسك؟، أرجو أن تكوني صريحة معي ولا تخجلي.

عدت لأوضح له بثقة:

- لا لست أنا، وهي فعلا طالبة عندي، وأنا اختصاصية اجتماعية، وهذا الموضوع يهمّني جدًا، وأودّ أن أتعمّق في دراسته، وأفكّر في طرحه كموضوع أساسي لمناقشة رسالة الماجستير إن شاء الله.

وجدتّ منه ترحيبا وبدأ يجيب عن أسئلتي بعد أن شرحت له ما أخبرتني به «أميرة» وقال بصوت هادىء:

- أحلام اليقظة هي نوع من الاسترسال الفكريّ، وهي كثيرة في سن البلوغ، وفي بعض الأحيان تزيد وتسيطر على الإنسان؛ خاصة إذا كان لديه سمات القلق..

قاطعته سائلة:

- هل هي نوع من التعويض المعنوي والنفسي؟

هزّ رأسه موافقا وأكمل:

- أو محاولة للتكيف مع واقع مؤلم، أو هروب من الواقع نفسه؛ لأنها تصرف انتباهه عن صعوبات الحياة والقلق والتوتر، وفي بعض الأحيان يستفيد منها أصحاب الطموح الشديد، حيث يملأون الفراغات المعرفية الذهنية والفكرية.

سألته بوضوح:

- إذًا أحلام اليقظة ليست مرضا ولا نوعًا من الجنون؟.

عاد لابتسامته وشبّك أصابع كفّيه أمامه على المكتب وقال:

- ليست جنونًا، بل هي تنفيس للنفس، النفس تتعب كأي عضو في أي جهاز آخر بالجسم، كآلام البطن، والصداع في الرأس، ولا بد أن ندرك هذا جيدًا، الناس يجيئون لرؤيتي عندما يتعذّبون من الدّاخل لعلاج جروح في القلب والروح...إنها آلام يصعب الاهتمام بها.

وكل أسرار قلوبنا غير قابلة للاندثار بل هي قابعة بهدوء تحت سطح وعينا وتتراكم في العقل الباطن وتظهر أحيانًا فجأة في لحظة غضب أو زلّة لسان أو أحلام يقظة أو حلم مزعج ذات ليلة... أحيانًا هناك حالات معينة، تشخّص كمرض نفسي وتحتاج لعلاج، وبعض المهدئات، ولهذا لا بد أن أرى الشخص نفسه وأتكلم معه، وأتابع إن كان في أسرته تاريخ مرضي، مثل «الوسواس القهري».

هززت رأسي موافقة وأكمل الدكتور قائلا:

- هناك ظاهرة معروفة في الطب النفسي غير منتشرة ولكننا نأخذها في الاعتبار وهي ما يعرف باستبدال الأعراض، بمعنى أنه ممكن أن يظهر قلق ويختفي وتظهر وساوس، ثم تختفي الوساوس وتظهر أحلام اليقظة وهكذا، الظاهرة معروفة، وليست خطيرة، لكن هي دليل على وجود نوع من القلق، وهذا القلق من الممكن أن يتحول إلى قلق إيجابي.

سألته وأنا أتعجب:

- وهل هناك قلق إيجابي؟ ظننت كل القلق سلبيًّا!

أجابني فورًا:

- المقصود أن يتعامل الشخص مع سبب قلقه ويعالجه، أو يحاول إزالة أسباب قلقه، يحاول ببساطة أن يكون تفكيره عمليًا ويتحرك.

سألت مرة أخرى:

- إذًا كيف نخفف القلق ونخرج من حالة التوهان أو أحلام اليقظة؟

خلع الطبيب نظارته ومسح وجهه بكفيه، ثم أشار بسبباته وقال: - مثلًا في حالة استغراقك العميق في أحلام اليقظة العادية الخالية من الأفكار الدمارية القهرية كما في حالة الطالبة التي أخبرتني عنها ممكن عمل خطوات عملية، تغيير مكان الجلوس فجأة، أو الضرب على اليد بلطف للتنبيه، أو الخبط بها على جسم صلب لشد الانتباه بعيدا عن الأحلام، ممكن قول كلمة «قف» لتنبيه النفس والتوقف عن الاسترسال فيها، والاتجاه فورًا لعمل أي شيء عملي يشغل العقل أو الحديث مع شخص آخر، ومع الوقت أحلام اليقظة تبدأ بالانحسار، وتقل.

وهنا نسيت كل الأسئلة التي كنت قد استحضرتها ورتبتها في ذهني وأنا جالسة بين المرضى أنتظر دوري، وسكت قليلًا، ثم قلت:

- القلق سبب كل هذا إذًا..

أجابني موافقًا وأضاف:

- مع الاهتمام بالتاريخ المرضى والعائلي وأي أعراض أخرى كما اتفقنا، وبالتأكيد لا بد من معالجة مصدر القلق، وحياتنا لن تخلو من القلق، والمريض في مرحلة المراهقة وكلما صغر عمره احتاج إلى دعم نفسي وعاطفي، ويحتاج أمانًا واطمئنانًا من الأب والأم، ولا بد من احتواء الأبناء من قبل الآباء، ومن الضروري أن يكون المعلمون

وكل من يتعامل مع المراهقين على وعي وثقافة ومؤهلين ليكون التعامل معهم بطريقة صحية وسليمة.

قاطعته موضحة:

- للأسف الاختصاصي الاجتماعي دوره مهمَّش يا دكتور.

وافقني وأكمل:

- لا بد أن تختفي مظاهر العنف اللفظي والتهديد وما نسمع عنه في المدارس، كم من معلم دمر طالبًا في دقائقٍ دون أن يشعر، المعلم يستطيع تحويل الطالب لمريض نفسي، بكلمة جارحة أو بعقاب محرج.

أراحتني كلمات الطبيب وسألته بتفصيل أكثر عن «أميرة»:

- الطالبة تتخيل أن والدتها تموت، أو أن والدها يمرض بمرض خطير.. و..

قاطعني الدكتور وقال بوضوح:

- لا بد أن نتأكد أنها ليست مصابة بالوسواس القهري، لأن ما تحكينه من سماته، مثلا هل لاحظتم عليها القلق المستمر بخصوص فتح وغلق الباب، أو الفرن أو أي جهاز كهربائي، وهل لاحظتم تخزينها وتجميعها لأشياء ليس لها قيمة باستمرار والتركيز عليها بشكل مرضي؟

أو هوسًا بالدقة والترتيب ومكان كل شيء، أو بالنظافة وتنظيم أدواتها وملابسها بحيث إذا حرك أي شيء من مكانه تنزعج جدًا أو تغضب وتنفعل؟

لم أجد إجابة لأنني لم ألاحظ، وسألت مرة أخرى:

- هل هذه فقط هي الأعراض؟

رفع الطبيب حاجبيه وقال:

- هناك أشياء أخرى طبعًا، هناك مثلا شاب جاء لي يشكو من سيطرة صور جنسية بذيئة على خياله، وعبارات خبيثة، وكلام خارج في أوقات الصلاة أو غيرها، ويخاف أن ينطقها بصوت عال عندما يكون مع الآخرين، وهناك مرضى يعانون من سلوكيات قسرية.

سألته لأستوضح:

- وما معناها؟

أكمل موضحًا بعد أن غضّن جبينه:

- هي عبارة عن أفعال يقوم بها المريض بشكل مرضي طقوسي ومتكرر، وهناك مرضى يعانون من الأمرين معا، التفكير القهري والسلوكيات القسرية المتكررة،

لو لاحظت الأم أو الأب هذه الأعراض على أحد أبنائها، لا بد من زيارة طبيب نفسي يقوم بالتشخيص الدقيق ووصف بعض الأدوية المناسبة، وهناك علاج نفسي وتمارين على الاسترخاء تساعد كثيرًا.

قلت وأنا حائرة:

- الحقيقة أن الأم هي التي تلاحظ كل هذا، أليس كذلك يا دكتور؟

اعتدل الدكتور»أيمن» على كرسيه وقال لي:

- بالطبع فالأم الأقرب، ولكن للأسف الناس تخجل من الذهاب إلى الطبيب النفسي، ويشعرون أن الدخول عنده شبهة، وخصوصًا إن كانت المريضة فتاة،

ولهذا أحييك لأنك أتيت إلى عيادتي وليس من أجل نفسك بل من أجل طالبة عندك، أشجعك على القراءة والدراسة أكثر، وأتمنى فعلا أن تكون رسالة الماجستير عن هذا الموضوع تحديدًا لإفادة زملائك، والعاملين معك في نفس المجال، وربما تكونون سببًا في اطمئنان الكثير من «النفوس الحائرة».

وهنا شعرت أنني اكتفيت بما عرفته، واطمأننت قليلًا ووقفت أحيي الطبيب، وكدت أن أغادر غرفة الكشف لولا أنه استوقفني بجملة كان لها أثر آخر مع شخصية أخرى، التقيت بها في وقت لاحق، عندما قال لي:

- أحيانًا أحلام اليقظة تكون مؤشرا للخيال الإبداعي، وكل الروايات والقصص التي نقرأها كانت في الأصل «أحلام يقظة» لكاتب ومؤلف موهوب.

وأشار الدكتور»أيمن» للممرضة وأمرها بأدب أن تعيد إليّ ثمن الكشف، حاولت أن أرفض، لكنه أصرّ وقفت في خجل شديد منه، لكنني سعدت أن هناك من يشجّع ويهتم بمن يسأل ليتعلم، ويجيب برقيّ وأدب مثله، وقد أتيته في مكان يطلب فيه رزقه ورزق أبنائه، فهو لم يتأفف من أسئلتي، حيّاني بحبور، وأخبرني أنه ينتظر زيارة المريضة شخصيًا، ثم سحب ورقة من دفتر وصفاته الطبية، ودوّن فيها رقم هاتف، وكتب بجواره دكتور «طارق حلمي» وقال وهو يكتب:

- هناك مستشفى نفسي خاص، مستشفى» السلام»، بعيد قليلًا عن المنطقة هنا، وهو في مكان هادئ، يعمل هناك دكتور»طارق حلمي»، وهو يتابع حالة مريضة تتلقى العلاج هناك، هي حالة مميزة لسيدة تعاني من اضطرابات نفسية، وخيالها غير عادي، إن أحببت زيارتها لتتخذينها ومؤلفاتها كنموذج لتكتبي عنه في رسالتك بعد موافقة أهلها طبعًا، لك ذلك

عليك فقط الاتصال بالدكتور «طارق» وهو سيرتب معك.

خرجت من الغرفة وفي يدي الورقة، ووقفت أمام الممرضة وهي تتحدث مع الآنسة المسئولة عن الاستقبال في العيادة لتعطيني نقودي مرة أخرى، طالعتني الممرضة بوجه بشوش، وقالت باهتمام:

- دكتور «طارق حلمي «تلميذ الدكتور»أيمن»، وهو يعتبره كابن

له تمامًا، ابتسمت لها وخرجت من العيادة ورأسي مزدحم بالأفكار.

خرجت من البناية التي بها عيادة الطبيب لأجد «أحمد» يقف أمامي مستندًا على سيارته، وكأنه ينتظرني!

التقت نظراتنا للحظات، شعرت أن ساقيّ تخشبتا فجأة، عدّلت حجابي بضيق وكأنني أختبئ فيه، ولاشك أنه لاحظ توتري، وخفت أن يظن أنني مريضة أو أتلقى العلاج هنا، أو يخبر أخي وتبدأ المشاكل.

تذكرت كلمات الطبيب عن خجل الناس وخوفهم من شبهة الاقتراب من عيادات الطبّ النفسي...

سرت بخطوات مضطربة، ثم تحولت خطواتي التي تسارعت إلى خطوات عسكرية غاضبة، طرقات حذائي كانت تسابق دقات قلبي المتسارعة، وعدت لبيت أخي وتوقعت في كل مرة يدق جرس الباب فيها أنه «أحمد»، لكنه لم يأت مما زاد من حيرتي.

خرجت «نور» مع ابنتيها لزيارة «أحمد» في بيته حيث يعيش وحيدًا بعد وفاة والديه، فجلست أقرأ حتى عاد الجميع....

أويت إلى غرفتي وحاولت أن أنام، أظلمتها ووضعت رأسي على الوسادة، وإذا بوجهين صغيرين يندسان تحت الغطاء عن يميني وعن يساري ويشاركنني الوسادة، وكلتاهما تلصق خدّها الناعم الصغير بخدّي لنحملق ثلاثتنا بسقف الغرفة الذي أضاءت فيه نجمات فوسفورية ملونة، وأخرى براقة لامعة ألصقتها أمهم لتضيء ليلًا عندما تطفىء الأضواء، فتأنس البنات بها، إنهما الحبيبتان «مودة» و«رحمة» تسألانني بإلحاح وبراءة:

- نريد قصّة قبل أن ننام لنراها الآن في الأحلام يا عمتي.

ووجدتني أقلّد صوت أمي عندما كانت تحتضنني بذراعيها وتقول بصوتها الحنون:

- كان يا مكان في قديم الزمان ولا يحلو الكلام إلا بذكر النبي ﷺ.

همهمت الصغيرتان بصوت ضحوك:

- عليه الصلاة والسلام

وبدأت أحكي لهما، وكلتاهما تبرق انعكاسات أضواء النجمات في عينيها وهما تتخيلان ما أحكيه لهما،

وانتبهت الآن فقط أنني أعزز عندهما الخيال في هذه السنّ، كما عززته عندي أمي وأنا صغيرة بل وأساعدهما على تصديق غير المعقول عندما أقول لهما أن الأرنب يتكلم، وأن الضفدع يتحول إلى أمير وسيم بعد قبلة من أميرة جميلة ويتزوجها...

كدت أتوقف لكنني أكملت فها أنا الآن كبرت وعرفت أن الأرنب لا يتكلم لكنني.... لا أزال في انتظار «فارس الأحلام».

نامت الحبيبتان، وسهرت وحدي وقد سكن كل من بالبيت إلا أنا، تذكرت الرؤى التي أتتني في رسالتين من تلك الطالبة المجهولة، فأغمضت عيني وتمنيت أن أرى رؤيا طيبة تبشرني أو حتى أرى أمي.

طار من عيني النوم، فقمت إلى حاسوبي لعلّي أجد إجابات ترضيني، وكتبت على محرك البحث «أحلام اليقظة «وانتظرت النتائج، وأخذت أطرق بأصابعي على الطاولة في ملل حتى يكتمل تحميل صفحة الإنترنت، وأخيرًا ظهرت روابط كثيرة

لفت نظري منها رابط لموقع كبير يختص بمناقشة وشرح الاضطرابات النفسية، ويرد على استفسارات رواد الموقع.، كان اسم الموقع لافتا، واستوقفني للحظات قبل أن أبحر فيه...

«النفوس المطمئنة»

سهرت تلك الليلة وأنا أتنقل من مقال لآخر على هذا الموقع الرائع، وجبة دسمة أرضت شهيتي المفتوحة ووليمة من معلومات

كثيرة أفادتني كثيرًا.

كانت جملة واحدة كافية لتجعلني أهتم وأعود لهذا الموقع مرة أخرى في وقت لاحق، مكتوبة باللون الأحمر وبخطّ واضح على الصفحة الرئيسية، كتبتها في مفكرتي التي أجمع فيها تلك العبارات التي تعجبني:

"بين الجنون والإبداع علاقة وطيدة تدعمها الدراسات العلمية، فالمبدعون مجانين، والمجانين مبدعون"

نمت أخيرًا على أرض الغرفة وبجواري حاسوبي العزيز، ولم أنتبه إلا وأخي "جمال" يوقظني لأسرع إلى عملي الذي بدأت أحبه أكثر، تأمّلت السماء من نافذة الغرفة، فاستقبلتني ابتسامة الصباح الوضّاءة، وهي تنفض عن الكون حولنا ما علق به من غبار الليل المظلم.

❊❊❊

14

"أحمد"

كنت أسير خلفها ببطء دون أن تراني

لم أتوقع وأنا في طريقي لبيت "نور" أن أرى "دعاء" وهي تخرج في هذا الوقت، لا بد أنها خرجت لأمر ضروري طارىء، لاحظت أنها ولجت إلى بناية تحوي الكثير من عيادات الأطباء، تفحّصت اللافتات المعلّقة على شرفات البناية بعيني، طبيب أطفال، وطبيب جراحة، وآخر طبيب نساء وتوليد، وطبيب أسنان، والأخير طبيب نفسي مشهور... ترى إلى أي عيادة تتوجه!

تسارعت دقّات قلبي وكأنني أصارع طواحين الهواء، ترى ما المرض الذي تعاني منه وتبحث له عن علاج؟

وددت لو أن كل آلامها وأوجاعها تصب في جسدي، شعرت برجفة وأنا أتخيلها تصرخ، وانقبض صدري وكأنني أرى دموعها أمامي، وخيّل إليّ أنني أستمع لأنّاتها الضعيفة تصدر من أعماق نفسي، واعتصر قلبي.

تأكّدت عندما تسللت خلفها دون أن تراني من أنها دلفت لعيادة الدكتور "أيمن".

عدت لسيارتي حيث تركتها أمام بيت أختي، وقدتها حتى وصلت مرة أخرى حيث صعدت "دعاء" ووقفت أنتظر..

خرجت من سيارتي ووقفت وقلبي يتآكل، والقلق ينهش أضلعي، وقد بدأت كل هموم الدنيا تتراكم على صدري، خشيت أن تكون في خطر، وتساءلت في نفسي عن سبب ترك "نور" و"جمال" لها

لتذهب وحدها هكذا للطبيب!

وقفت أسترجع مواقفها معي، ووجدتني أصارع أفكاري، تارة ألوم نفسي على استمراري في تعلّقي بها وتفكيري في الزواج منها وهي ترفضني، وتارة أحاسب نفسي لعلّي لا أستحقها، أو لعلّها تستحق زوجا أقرب لله مني، وربما هو اختبار من الله لي، يحرمني منها لكي أفرّ إليه، فهي تطلب زوجًا صالحًا تقيًا، وربما أنا لست كذلك!

كم أحنّ إلى لحظات الالتزام الأولى، تلك التي عشتها في آخر سنواتي بالجامعة، عندما كنت أرقّ خلقا وأخشع حتى أمي وقتها لاحظت أن ملامحي قد تغيرت، أين هذا الشعور الآن؟

لماذا أشعر الآن بوحشة، ولم غابت عني حلاوة الإيمان؟، وما الذي يحجبني عن لذّة الخشوع في صلاتي؟!

صرت أستمر في عباداتي وكأنني إنسان آلي مبرمج، أشعر أن قلبي قد أصبح قاسيًا كالصخر الأصمّ، ولم يعد كما كان وأنا طالب جامعي، كان لدي حسّ وحماس، وطاقة تدفعني.

أيا أول أيام التزامي فلتعودي...

بعد ساعة وبينما أنا غارق في بحر من الذكريات، لا يقطع استرسالي فيه إلا صوت السيارات التي تمرّ من أمامي، خرجت "دعاء" من بوابة البناية، أظنها فجعت عندما رأتني، وددت أن أهرول إليها، وأعتذر أنني أفزعتها، وأسألها أن تشركني همها، لكنها أسرعت هاربة كهروب الطيور عند اهتزاز الغصن الذي كانت تقف عليه فجأة، وابتعدت وكأنها رأت شبحًا.

كدت أنصرف، لكنني وقفت أراقبها من بعيد حتى اختفت، كادت عيناي تفرّ من محجريهما وتتبعاها لتطمئنا على وصولها إلى البيت، ثم صعدت إلى عيادة الدكتور "أيمن" وتوجّهت إلى الآنسة التي تجلس على مكتب أنيق في صالة الاستقبال بالعيادة، وسألتها عن

المريضة التي انصرفت الآن..

سألتني عن اسمها فعرفتها عندما أخبرتها بالاسم ووصفت لها هيئتها وملابسها، وسريعا ما كست وجهها ابتسامة ذات معنى واضح وأنا أصف لون الحقيبة والحجاب أيضًا بدقّة شديدة، فشعرت بالحرج الشديد،دفعت الموظفة المكتب بذراعيها وعادت بعجلات مقعدها الجلدي الأنيق للخلف ثم قامت بضغط زرّ على الحائط فدقّ جرس يبدو أنه لاستدعاء شخص آخر، جاءت ممرضة كبيرة السنّ، متوسطة الطول، بطيئة الخطوات، لها وجه مريح وبشوش، أشارت موظفة الاستقبال إليّ وهي تحدثها وقالت:

- الأستاذ يسأل عن الآنسة الّتي خرجت منذ قليل، ثم غمزت لها بمكر وأدارت وجهها وهي تضحك..

طالعتني الممرضة بنظرات ثاقبة، ثم قالت بعد أن هزّت رأسها بثقة:

- الآنسة "دعاء"...هل تعرفها؟

وجدتني أجيبها بتردد وأنا أمسح جبهتي التي غطاها العرق:

- بيننا صلة قرابة، ووددت أن أطمئن عليها لأنني رأيتها تخرج من هنا، أردت أن أساعدها إن كانت تحتاج إلى المساعدة

حرّكت الممرضة رأسها يمينًا ويسارًا ثم قالت: - بالطبع لن أخبرك أي شيء عنها، هذه أسرار مرضى وحرمة مجلس وأمانة، ونحن لدينا هنا نظام خاص وصارم في التعامل مع كل ما يخص المرضى. شعرت بارتباك شديد، فقلقي عليها كاد يفقدني اتزاني، وقلت باندفاع وأنا أخرج بطاقتي الشخصية:

- هذه بطاقتي الشخصية، أرجوك أريد فقط أن أطمئن عليها.

زفرت الممرضة بحنق وقالت:

- اسأل عنها أهلها بالبيت فلا شك أنهم يعلمون بزيارتها.

شعرت بيأس وأدركت أنني لن أحصل على أي معلومة منها، فقلت بهوان وأنا أدوّن رقمي على ورقة بيضاء صغيرة وجدتها على المكتب فسحبتها وتناولت قلما بلا استئذان:

- هذا رقم هاتفي، سجّلوه في ملفها كأحد أقاربها، ولو احتاجت الآنسة «دعاء» إلى أي شيء في أي وقت تكون فيه هنا لتتابع مرضها أرجو منكم أن تتصلوا بي فورًا..

تناولت الممرضة الورقة من يدي وطوتها بحذر، ثم دستها في جيب معطفها الأبيض بعد أن طالعتها لوهلة لتقرأ اسمي وقالت بصوت رتيب:

- اطمئن يا أستاذ «أحمد» ولا تقلق.

وخرجت من عيادة الطبيب وأنا في كرب شديد، وظللت أدور بسيارتي بلا هدف أتنقل من شارع لآخر شاردا لا أسمع إلا صوتها وهي تتألم ولا أرى إلا دموعها وهي تسيل.

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، وإن لم يكن الظلام قد خيّم تمامًا، فاصطبغت السماء بلون الشفق، وعكست احمرارها على مقدمة سيارتي، وتسلّلت خيوط الشمس الحانية لترسم بقعا مضيئة على المقعد الخالي بجواري والذي كنت أتمنى أن تشغله «دعاء» وهي زوجتي.

ولم ينتشلني مما غرقت فيه من ظنون إلا صوت الهاتف، أجبت بعد أن أوقفت محرك سيارتي بعد أن دلفت إلى شارع جانبي على الطريق الذي كنت أسير فيه لأفاجأ بأنها الممرضة التي كانت بعيادة الدكتور «أيمن» حيث قالت:

- السلام عليكم أستاذ «أحمد»، أنا «زينب» الممرضة التي أعطيتها رقم هاتفك منذ قليل في عيادة الدكتور «أيمن»، لقد أخبرته بحضورك

وسؤالك، كما أخبرته بردّي عليك، وكان رأيه أن أتصل بك لأطمئنك أن الأمر لا يخصها هي، فالآنسة "دعاء" لم تكن هنا من أجل نفسها بل كانت تسأل الدكتور عن مريضة ولا أستطيع إخبارك بأكثر من هذا.

ظللت أردد بانفعال لم أتمكن من إخفائه:

- الحمد لله... الحمد لله... بشّرك الله بالخير.

قالت بهدوء:

- تود خطبتها وكنت ستتراجع أليس كذلك؟ هكذا خمّن الدكتور"أيمن".

أجبتها باقتضاب:

- نعم أودّ خطبتها ولن أتراجع إن شاء الله.

وانتهت المكالمة واختفت أوجاعي وانشرح صدري، ووجدتني أضحك بصوت عال في سيارتي...

هدأت أخيرًا وكدت أن أعود لبيت أختي، لكنني تذكرت وجه "دعاء" الذي علته علامات الضيق والفزع عندما رأتني وكأنها رأت شبحًا، فقررت ألا أزعجها مرة أخرى هذه الليلة، وعدت إلى البيت، وبعد ساعة دقّ جرس الباب، وكانت أختي «نور».

❊ ❊ ❊

15

"نور"

لم أرتب للأمر، لكنني قررت فجأة أن أزور أخي "أحمد"، فرغم أن موعد زيارتي الأسبوعية له- لكي أرتب له البيت وأعدّ له بعض الطعام وأقوم بغسل ملابسه- لم يحن بعد، إلا أنني قد اشتقت إليه كما اشتاقت له البنات.

فتح الباب بعد طرقات "مودة" و"رحمة" وقام بحملهما فورًا بذراعيه، وركض بهما في صالة بيت والديّ الواسعة وهو يغنّي لهما...

تعالت ضحكاتهما وهو يلاحقهما، لاحظت بهجته وقد بدا على محيّاه أنه مرتاح النفس.

خلعت حجابي واتجهت فورًا إلى المطبخ حيث أبدأ به في كلّ مرّة، ووجدت الطعام كما تركته في زيارتي السابقة، هززت رأسي متعجبة، ووقفت أغسل بعض الأطباق المتراكمة وكنت أحدّث نفسي عندما فاجأني بقبلة على رأسي بحنان وهو يقول:

- لا حرمني الله منك يا أختي.

قلت بلَوْمٍ:

- لم تأكل شيئًا يا "أحمد" الطعام كما هو، يبدو أنه لم يعجبك.

قال في حرج:

- طعامك رائع يا "نور" سلمت يداك، فقط لم أشتهِ شيئًا...

ثم تمتم بصوت متقطع:

- ما أخبار"دعاء"؟

قلت في تهكّم تشوبه بعض المرارة:

- كما هي، لم تتغير.

قال بصوت منخفض:

- أودّ أن تتحدثي معها مرّة أخرى.. لعلها توافق

قلت محتجّة:

- مللت من تكرار التحدث إليها وكأننا نحايلها لنعطيها الدواء، لا بد أن تصرف النظر عنها ولتبحث عن عروس أخرى، فأنت شاب رائع، ويكفي أن تشير فقط بأطراف أصابعك يا "أحمد"..

انظر حولك.. هناك الكثير من الفتيات الرائعات، وبنات العائلة كلهن جميلات ومثقفات، وعلى رأسهن "رقية" ابنة خالتك.

يا "أحمد".. زهدك في راغبٍ فيك نقصانُ عقل، ورغبتك في زاهدٍ فيك ذلّ نفس.

قاطعني وقال بوهن:

- لا أريد إلا "دعاء"... سعادتي لن تكون إلا معها.

قلت ساخرة:

- وكأنّ الدنيا لا يوجد فيها إلا "دعاء"!!.

شرد قليلًا ثم قال:

- نعم.. دنياي التي أعيش فيها ليس فيها إلا "دعاء"، لقد تسرّبت

إلى روحي والتصقت بها.

قلت بعد صمت قصير:

- هي فعلا مهذّبة وخلوقة، وجميلة ورقيقة، وأنا أيضًا أحبها، ووالله ما رأيت منها إلا كلّ خير، كما أنني كنت أول من رشحها لك، لكنها يا أخي لا تريدك، الحب لا يكفي من طرف واحد، لن تكون سعيدًا معها.

قال بثقة:

- سأجعلها تحبني.

قلت باستنكار:

- الحب ليس بالإجبار، لن تستطيع أن تجبرها على حبّك وهي لا تريد هذا..

وضع يده على صدره وكأنه يتألم في صمت، وكنت أعلم أنّ كلامي سيوجعه، لكنني أحببت أن أصارحه بالحقيقة.. ثم قال بشجن:

- لم تمنحنى فرصة، ولم تمنحها لنفسها وكأنها تخشى أن تفتح الباب، إنها حتى لا تنظر إليّ وأنا أحدثها، أشعر أن هناك شيئًا ما يحجبها عنّي، ولا أدري ما هو.

أنا على يقين أنها ليست على علاقة بأيّ شاب، فأنا أراقب كل شاردة وواردة تخصّها.. سأصبر قليلًا.. وبإذن الله ستكون لي.

قطع حوارنا صراخ "مودة" و"رحمة" وهما تتشاجران كعادتهما على قنوات التلفاز، تركني واتجه إليهما

كان صوته حزينا في البداية وهو يحاول الإصلاح بينهما، أسكتهما وسكن الثلاثة..

مرت لحظات ثم عاد بقلبه الطيب لمداعبتهما بحنان وإضحاكهما، وبدأتا تبحثان عن أكياس الحلوى التي يخبئها لهما في البيت وانطلقتا تفتشان عنها هنا وهناك.

واتجهت أنا إلى غرفته لأجمع ملابسه التي سأقوم بغسلها.. ما زال يحتفظ بصورته مع أم "دعاء" رحمها الله يوم خطبتهما، يضعها في إطار أنيق بجوار فراشه، فقد استردت هي جميع الصور واحتفظ هو بتلك الصورة، وكأنه يتصبّر بها...

كانت أم "دعاء" تحبّه وكانت فرحة به كما أحبها هو، وأمّا "دعاء" فكانت وكأن روحها خطفت من بيننا وأسرت في فضاء آخر، غابت عنا رغم حضورها بجسدها، وبقي أخي "أحمد" يحبها ويعشقها ويجيء ويروح وهو مغرم بها.

أنهيت أعمالي في بيت أخي، وودعته وأنا أشفق عليه، وعدّت إلى بيتي مع ابنتيّ حيث ركضتا إلى عمتهما في غرفتها فور وصولنا للبيت، وسمعت صوتها الحنون وهي تقصّ عليهما حكاية قبل نومهما..

قررت أن أفاتحها مرّة أخرى في جلسة ودّية، وعزمت على إخبارها بحال أخي وما رأيته عليه في تلك الزيارة.

❊ ❊ ❊

16

"دعاء"

كان يوما صعبا منذ بدايته،

وصلت فيه لأول مرة متأخرة عن موعدي المنضبط الذي أصل فيه كل يوم قبل طابور الصباح، حيث كنت أحرص على الوصول مبكرا لكي أستمتع بمراقبة الفتيات، وهنّ يتجولن في جماعات في فناء المدرسة.

لا أدري لماذا كنت أشعر بالبهجة عندما أراقبهن وهن يتكلمن ويضحكن بتلقائية، كنت أشعر أنهن يحقنّ دمائي بجرعات من الأمل والتفاؤل، والإشراق، وحب الحياة، كانت شفتاي تنفرجان وتتسع ابتسامتي بمجرّد أن تبتسم من أراقبها منهن وأنا لا أسمع حتى حديثهن، مجرد ابتسامة لأنني أرى من بعيد وجوهًا ضاحكة

إنها السعادة المعدية.

سهري الليلة الماضية ضيّع عليّ تلك الفرصة، فبدأ يومي وقد افتقدت فيه ابتسامة الصباح...

نسيت أن أتناول فطوري وتذكّرت فقط عندما أصبت بدوارٍ خفيف، غرزت دبوسا في رأسي وأنا أحاول ضبط حجابي، وجرحت في إصبعي عندما حاولت أن أقطف وردة من حديقة المدرسة، اصطدمت بطالبتين إحداهما كانت رأسي تصل بالكاد إلى مرفقيها مما أصابني بصداع في مقدمة رأسي، وأما الأخرى فقد دهست قدمي وهي تمرّ من أمامي

بكعب حذائها المدبب وسط الزحام بعد أن دقّ جرس "الفسحة"، كيف ترتدي الطالبات حذاءً كهذا وتذهب به إلى المدرسة!

كدّت أسقط على ظهري في دورة المياه وأنا أتوضأ لأصلي الظهر، تمزّق جوربي وحاولت أن أعدّله لأخفي الدائرة الفارغة المستديرة التي ظهرت فيه وكشفت لون بشرتي، وأخيرًا أغلقت درج المكتب على أصابعي الأربعة...

قررت في هذا اليوم، أو في أي يوم آخر أفضل من يومي هذا، إن حانت لي الفرصة، أن أحاول أن أقتحم فكر طالبات نفس الفصل الذي طبّقت عليه تجربة الصندوق، وأن أفتح معهن حوارًا مباشرًا عن المواضيع التي أظن أنها ستفيدهن، بحثت حولي عن الصندوق، لأكمل قراءة رسائل البنات، ووجدته فارغا!

تذكرت أنني يومها وبعد أن تركتني "أميرة"،

التي أكّدت عليّ أن أقرأ رسالتها، قد جمعت الأوراق المتبقية التي لم أكن قد قرأتها بعد ودسستها في كيس وحملتها معي إلى البيت.

بحثت عن أي شيء يسكت صوت أمعائي التي تقرقر فلم أجد حتى قطعة من البسكويت في أدراج مكتبي ولم أتمكن حتى من الخروج لشراء أي شيء من مقصف المدرسة والذي أغلق أبوابه قبل أن أنتبه وأتجه إليه لأشتري شيئًا أسدّ به جوعي وتجرعت كوب الشاي على معدة خالية.

أصابني الإحباط فجلست أقلّب في مفكرتي التي أكتب فيها بعض الجمل التي أتوقف عندها وأنا أقرأ، لعلها تخفف عني بعض الضيق الذي أصابني هذا اليوم، فوجدت عبارات للدكتور "مصطفى محمود"،

قرأتها في أحد كتبه الرائعة، كنت قد دوّنتها من قبل لأنها أثّرت في نفسي حيث يقول:

"أنت في حاجة إلى قراءة الفلسفة، الشعر، القصص، في حاجة إلى فتح ذهنك على الشرق والغرب ليحصل على التهوية الضرورية فلا يتعفن، وستفهم نفسك من خلال الناس الذين تقرأ لهم، وإذا فهمت نفسك فقد وضعت قدمك على بداية الطريق وعرفت من أين يكون المسير".

نعم، لا بد أن أقرأ المزيد لتهوية عقلي قبل أن يتعفّن، أيام قليلة وأكمل شهري الأول في عملي، وسأتسلّم راتبي وأخصص جزءًا منه لشراء كتاب قيّم هذا الشهر، سأحضر لنفسي هدية، وسأشتري لنفسي بعض الحلوى، آه إنني جائعة..

وأيضًا سأشتري لعبا لبنات أخي، ولن أنسى أخي وزوجته، أريد أن أشتري أي شيء... أي شيء يسعدني.

في آخر اليوم فاجأتني "سارة" التي طرقت باب الغرفة بلطف وأقبلت بخطوات سريعة، وطالعتني بعينيها الخضراوتين وقالت بصوت مبتهج:

- غاب الأستاذ "راغب" معلم الفيزياء، وحصّتنا بلا معلم،

أرجوك أرجوك أستاذة"دعاء" أخبرنا المشرفات أنك ستدخلين بدلا منه الحصّة، أرجوك تعالي معي فالبنات مجتمعات أمام غرفة المشرفات ويلححن في طلبك.

قمت معها مبتهجة وسرت وأنا أعرج على قدمي التي آلمتني بشدة بعد أن جلست لفترة، ويبدو أنها قد تورّمت قليلًا حتى وصلت إلى

الفصل، ضحكت الفتيات عندما أخبرتهن بملخص ما حدث لي من إصابات، ثم صفّقت بيدي وأنا أسير بعرجتي بين مقاعدهن، وقلت لهن:

- انتباه يا بنات، رجاء منكن الهدوء، ولتركّزن معي، سأسأل عدّة أسئلة وسأطلب منكن الإجابة عنها لأتمكن من قياس مدى انتشار ظاهرة معينة بينكن كبنات في مرحلة عمرية هامة، هل توافقن؟

هزّت الطالبات رءوسهن موافقات وبدأت أسألهن:

- بالتأكيد أنتن مثقفات وتعرفن ما هي "أحلام اليقظة"، من منكن تتخيل وتحلم وتستغرق فيها كل يوم؟

فلتقف من تحلم في يقظتها.

وقفت معظم الطالبات، فانتقلت إلى السؤال التالي:

- من تحلم بأنها عروس جميلة وتتزوج من فارس أحلامها، وتستغرق في التفاصيل، تقف.

وقفت معظم الفتيات أيضًا، فطلبت منهن أن تجلسن وبعد أن هدأت ضحكاتهنّ سألت سؤالا آخر:

- من تتخيل تلك الأشياء فقط خلال الساعة التي قبل النوم تقف.

وقفت جميع الطالبات ماعدا أربع فتيات، اتجهت إليهن وسألتهن عن الوقت الذي يستغرقن فيه في "أحلام اليقظة"، فكانت إجاباتهن مختلفة، وبالطبع كانت منهن "أميرة" التي قالت:

- أنا أستغرق في أحلام اليقظة خلال الحصص، وحتى وأنا أتناول الطعام مع أهلي بالبيت، ولا أستطيع أن أوقف الحلم، أجدني غارقة فيه دون أن أشعر، وقالت أخرى يبدو أنها من الطالبات الفائقات:

- أنا أتخيل نفسي طبيبة ناجحة، أعالج المرضى، وأقف في عيادتي،

وأتحاور مع زملائي، وأجري جراحة لأنقذ حياة مريض عندي.

وقالت الثالثة:

- أحيانًا أتخيل نفسي بعد انتهاء المسلسل، أو الفيلم، وكأني أنا البطلة، وأعيد كل الأحداث بتفاصيلها في عقلي مرة أخرى.

نفس الملابس، نفس الحركات و...

ضحكت الفتيات فالتفت إليهن بحزم وقلت:

- لا تسخرن منها، فكلنا نتخيل مثلها، وكلنا متشابهات.

عدت لوجهها وهززت رأسي لأدفعها لتكمل، ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت:

- حتى الأغاني والفيديوهات المصورة، أحبّ أن أشاهدها ثم أتخيل نفسي مكان المطربة التي كانت تغنّي. أحيانًا أغنّي وأنا أساعد أمي في أعمال المنزل وحتى وأنا أغسل الأطباق، أمي تقول لي أنني مجنونة.

ضجّ الفصل بضحكات البنات، وضحكت معهنّ كثيرًا، وقاطعتني "أسماء"، بصوت حاد وقالت:

- كل ما تقلنه حرام، أليس كذلك يا أستاذة "دعاء"، كل هذه ذنوب وسيئات، ألا تخجلن من أنفسكنّ!.

استوقفني كلامها، وخفت قليلًا، فهل كل خيالاتي ستصبّ في ميزان سيئاتي، ران عليّ صمت للحظات وأنا أفكر في إجابة، وانتشلتني من حيرتي "سارة" التي وقفت وابتسامة ملائكية تحتلّ وجهها كله وقالت:

- سأخبركن بشيء رائع، أبي كان يجمعنا أنا وأخواتي ونحن صغار، نجلس حوله ومعنا أمي، كان يحكي لنا عن "مدرسة التخيل"، وكان قد قرأ عن عالم مسلم يسمى "الحارث بن أسد المحاسبي"

كان يجلس مع طلابه ويتخيل معهم يوم القيامة، والجنة، ونعيمها، ولقاء النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة.

كنا نتخيل أننا دخلنا الجنة، ونسبح في أنهار من الحلوى والشوكولاتة، وكنت أتخيل أنني أطير بجناحين وأننا نجلس على أرائك تتحرك، وتنتقل وتطير، ونقابل بعضنا البعض.

وعندما كبرنا قليلًا، بدأ يشرح لنا سور جزء عم، ثم نتخيل يوم القيامة، والحشر، وكنا نمشي على خط ترسمه أمي على الأرض ونتخيل أنه الصراط، ونسير عليه وندعو الله أن ينجينا من النار.

ابتسمت بعد كلمات "سارة"، والتفت إليهن وقلت:

- فعلا "الخيال" نعمة، ولا بد أن نحاول توظيفه بطريقة صحيحة، حتى نتقرب به من الله، وعموما سأحاول أن أسأل شيخًا وأعود بالإجابة التي تريحك يا "أسماء".

ودوّنت السؤال في مفكرتي، وكتبت أيضًا "مدرسة التخيل"، وقررت أن أقرأ عنها.

ثمّ طرحت سؤالا جديدًا:

- من منكن تتخيل أحداثًا بشعة ومؤلمة ومدمرة؟

لم تقف أية طالبة، حتى "أميرة" التي سبق وأخبرتني بهذا بيني وبينها، وتبادلت الفتيات النظرات، وبين همهماتهن قالت طالبة:

- أحيانًا أتخيل أنني فتاة من فلسطين تحارب وتقاتل لتحرر وطنها.

وقالت أخرى:

- أحيانًا أكلّم نفسي بصوت مسموع وأرد على صديقاتي اللاتي أغضبنني، وأتشاجر معهن، وأقول أشياء كثيرة، وعندما أراهن هنا في

اليوم التالي لا أقول أي شيء، ونتصالح فورًا.

دقّ الجرس وانتهت الحصة للأسف.

ودعتني الطالبات، والبسمة لا تفارق وجوههن النضرة، أسعدهنّ الحوار وطلبن مني أن أدخل في أي حصّة يغيب معلّمها، ووعدتهنّ بالحضور.

وأسرعت أعرج بقدمي خارج بوابة المدرسة، لأحاول إيقاف سيارة أجرة تقلّني إلى البيت، فقد مزّق الجوع أحشائي، وتعبت من هذا اليوم الطويل، وأظنني لو سرت حتى البيت على أقدامي سأفقد الوعي وأسقط في وسط الشارع،

لاحقتني"أميرة" التي لم أنتبه لشحوب وجهها إلا عندما وقفت أمامي تحت ضوء النهار خارج المدرسة، وهمست إليّ بصوت مضطرب، وكانت نظراتها غير ثابتة عندما قالت:

- قريب أمي سيأتي اليوم، ماذا أفعل؟

نظرت إلى عينيها الحائرتين، ولم أفهم، توقعت أن يكون هناك شيء في رسالتها التي لم أقرأها، ربما عريس من أقاربها يودّ خطبتها مثلا، وخفت أن أخيّب آمالها، وأهزّ ثقتها فيّ إن عرفت أنني لم أقرأ رسالتها حتى الآن، فقلت لها وأنا أرفع كتفيّ وأفتح باب السيارة الأجرة التي وقفت لي بصعوبة:

- قابليه كأيّ ضيف يزوركم وتحدثي بتلقائية وبكلّ بساطة ثم أغلقت الباب.

انطلقت السيارة، والتفت إليها لألوح لها من خلف زجاج النافذة، فوجدتها واقفة بوجه شاحب، وعينين زائغتين تراقب ابتعادي عنها بوجوم،

لم ترفع يدها لتحييني، وظلّت كالصنم مكانها حتى اختفت من أمام عيني، وانتبهت على صوت السائق الذي كرر سؤاله أكثر من مرة وأنا أنظر إلى الخلف أراقبها وقد أصابني الضيق:

- ما وجهتنا يا أستاذة؟

أجبته وأنا شاردة:

- شارع "الجمهورية"، أمام قهوة "ليالي زمان".

قررت أن يكون أول شيء أفعله عندما أصل إلى البيت هو أن أبحث عن الكيس الذي جمعت فيه رسائل الصندوق، وأبحث عن رسالة "أميرة" وأقرأها بسرعة.

***

17

وصلت إلى البيت أخيرًا، كنت أدقّ جرس الباب وأتمنى أن يحملني أحد ويطعمني ويضعني في فراشي كالطفل الصغير، ويربّت على ظهري حتى أنام.

فتح لي أخي الباب، وقطعت الصالة وأنا أحاول الركوض بعرجتي الخفيفة خلف "مودة" و"رحمة" عندما ركضتا أمامي إلى المطبخ، وكنت أصيح:

- جاااااائعة، يا "نور" أين الطعام، أنا لم أضع في فمي لقمة منذ الصباح، التفتت وهي تضحك، وناولتني بحرص طاجن الأرز المعمّر الشهيّ وقالت:

- خذي هذا وضعيه في وسط المائدة، الطعام جاهز حبيبتي وهيا بنا فكلّنا جوعى مثلك.

سرت بحرص لأفاجأ بـ"أحمد" أمامي، وهو يجلس بجوار أخي "جمال" كدت أسقط الطاجن من يدي عندما رأيته، إذًا فقد رآني وأنا أعرج، وأهرول، وأصرخ، وسمعني وأنا أضحك مع بنات أخي، لابد أنه كان يكتم ضحكاته.

تملّكني مزيج من الخجل والغضب معًا، يبدو أنني سأصطدم به كثيرًا! نسيت أمر رسالة "أميرة"، وجلست أتناول طعامي، وأترقّب كلمات "أحمد"، وأنا أتوسل إلى الله، ألا يخبرهم أنه رآني وأنا أخرج

من البناية عندما كنت في زيارة الطبيب، فأنا في غنى عن أي مشكلة تقلق أخي وتدفعه لإعادة التفكير في أمر خروجي للعمل.

فقدت شهيتي للطعام، واكتفيت بملعقتين من الأرز وقطعة لحم صغيرة ظللت ألوكها في فمي كثيرًا وأنا شاردة، وقمت بعد أن شعرت بألم في معدتي ودوار خفيف.

استأذنت منهم وتوجّهت إلى غرفتي، وبحثت عن كيس الرسائل، وأخرجت الرسالة التي كتبتها "أميرة" والتي كان عليها رقم أربعة، كان خطها غير واضح، حروف متآكلة، وجمل مبتورة...

لم أنتبه إلا وأنا أضع يدي على فمي لأكتم صرختي..

كانت الرسالة استغاثة من "أميرة"، حيث ذكرت فيها قلقها من شخص يأتي إلى بيتهم كل شهر وهو أحد أقارب أمها، حيث يزورهم ليسلّم أمها مبلغًا من المال خاصا بتأجير أرض زراعية في البلدة المجاورة، والتي يعيش هو فيها، حيث نشأت أمها، وتكون "أميرة" غالبًا وكما تكون معظم أيامها وحدها في البيت، فوالدها وأمها مشغولان دائمًا، بين عملهما حتى الرابعة بعد الظهر، يغرقان في علاقاتهما الاجتماعية، وخروجاتهما مع المعارف والأصحاب إلى النادي.

وكان هذا الكائن الخائن للأمانة الذي يعلم كل هذا عنهم، يجلس مع "أميرة" ويضاحكها، أحبّته في البداية، ووجدت فيه الحنان الذي افتقدته من والديها، لكنه وبعد أن تكررت زياراته وتأكّد أنها وحدها دائمًا، وأيقن أنها ألفته، واطمأنّت إليه، فبدأ يقترب منها، ويحتضنها بحب أبوي بريء كما كان يدّعي بخبث دائمًا، ثم بدأ يتخطى تلك الحدود التي لا يتخطاها الأب بفطرته التي وضعها الله فيه وهو

يحتضن ابنته..

ولأنه ليس أباها بحق طمع الجبان فيها، وبدأ يسرق من عفتها ويمزق حرمتها وأخبرها أنه لن يؤذيها

وأنه يفعل هذا لأنه محروم من الحنان والحب وأنها حبيبته وأكثر من يسعده، ويشكو إليها زوجته التي تؤذيه، ويخبرها كيف أنها فتاة جميلة، ورائعة، وحنونة، وتعني له الكثير.. وفي المرّة الأخيرة طالبها بأشياء أكثر قبحًا وإيلامًا.

أسرعت إلى هاتفي الجوال والأرض تميد بي، وحاولت أن أتمالك أعصابي وأتصل بها، فلم تجب على الهاتف، وبعد اتصالي مرتين، تركت هاتفي ووقفت فجأة فشعرت أن الدماء تهرب إلى رأسي..

خرجت من غرفتي أصرخ وقد تمثّل أمامي ما وصفته "أميرة" في رسالتها ورأيتها فريسة لذئب حقير وكدت أن أفقد صوابي، ووقفت أمام أخي، وقلت له وقد سبقتني دموعي:

- ماذا سأفعل!، ماذا سأفعل!

أنا لا أعرف عنوان بيتها، وهي لا تجيب على هاتفي.

فزع أخي وظن أن هناك أمرًا يخصني أنا، وهرع إلي، لم أتمكن من نطق كلمة واحدة بعدها، وكل ما خطر ببالي في تلك اللحظة، قبل أن أفقد الوعي وأسقط على الأرض أمامهم هو..."نوال".

أفقت لأجد نفسي على الفراش في غرفة بنتيّ أخي، شعرت بيديّ "نور" وهي ترفع ساقيّ في الهواء قليلًا بعد لحظات سمعت صوت "جمال" وكأنه يأتيني من بعيد، وكأنني سقطت في بئر عميق، وهو يكرر النداء علي:

- "دعاء".. "دعاء".. أفيقي يا أختي، ما الذي حدث؟

شعرت بأصابع باردة تربت على جبهتي، شعرت بأنفي يبتل، ثم أفاقتني رائحة عطر قوية، وفتحت عينيّ لأجد أصابع أخي على جبهتي، وزجاجة العطر في يد "أحمد" الذي كان يقف بجواري أيضًا بوجه شاحب والذي خرج من الغرفة فور أن فتحت عينيّ وانسحب بحياء.. وكأنه كان في مهمة يؤديها مضطرًا وقد انتهت باستردادي لوعيي..

انتفضت وحملقت في وجوههم، حاولت أن أعتدل وأستند على كتف أخي الذي كان يرتجف، وتكوّرت كالطفل الصغير الخائف في حضنه، شد الغطاء من فوق الفراش ودثّرني به، وبدأ يرقيني كما كانت تفعل أمي، ثمّ استعدت وعيي تدريجيا ولاحظت قلق "نور" على "جمال" فهو مصاب بالسكريّ ولا شك أن الانفعال خطر على صحّته، وربما يفقد وعيه هو أيضًا، فحاولت أن أتحلّى بالقوّة من أجلهما.

بعد أن شربت بعض الماء المحلى بالعسل بدأت أستعيد قوتي تدريجيا، فقلّة الطعام طوال النهار وفزعي الشديد كانا سببًا في فقداني للوعي..

شرحت لهما باختصار أن هناك طالبة في مصيبة، وأن هناك خطرًا ما يهدد سلامتها، وأنني لن أستطيع البوح بأكثر من ذلك..

سالت دموعي وأنا أسترجع منظرها، وهي تقف كالصنم أمام بوابة المدرسة، وأنا أبتعد في السيارة عندما تركتها منذ ساعة، لقد خيبت ظنها فيّ، وتركتها وهي في أمس الحاجة إليّ.

قمت إلى هاتفي واتصلت بالأستاذة"نوال" مديرة المدرسة، وأخبرتها أن هناك أمرًا هامًا، خرجت من غرفتي وأنظارهم جميعا

تتبعني، واتجهت إلى غرفة الصالون، أغلقتها بإحكام ورويت لها كل شيء بالتفصيل بصوت منخفض، أنصتت إلي طويلًا ثم قالت:

- هل أنت متأكدة أن "أميرة" هي التي أرسلت الرسالة يا "دعاء"

أجبتها بصوت واثق:

- طبعًا، متأكدة

كررت سؤالها بطريقة أخرى وقالت:

- ألا تخلطين بينها وبين طالبة أخرى؟ أرجوك تأكدي لأن الخطأ غير المقصود سيسبب مشكلة كبيرة، والدها طباعه صعبة، وأنت لا تعرفيه جيدًا هو وزوجته، وهو عضو بارز في مجلس الشعب.

أجبتها بثقة أكبر:

- هي قالت لي بنفسها قبل أن أركب السيارة الأجرة، وأيضًا عندما جاءت لغرفتي ومكثت معي في غرفتي لساعات أخبرتني برقم رسالتها بنفسها.

مرّت لحظة صمت وكأنها ترتّب أفكارها ثم قالت بصوت مضطرب:

- عودي الآن إلى المدرسة، وستلتقين بالعم "سيّد"الحارس، فهو يتسلّم الحراسة منذ وقت الانصراف، وسيفتح لك مكتب الأستاذة "سعاد"، أنا سأتصل به بنفسي حالا وسأبلّغه.

هناك ستجدين ملفّات طالبات الصف الثالث في خزانة كبيرة، الملفات مقسمة ومرقمة بنظام، وسيسهل عليك الوصول إلى ملفّ "أميرة"، انقلي أرقام هواتف والديها، وانقلي عنوانها، وأبلغيني في الحال.

واحذري أن يعرف عم "سيد" اسم "أميرة" ولا تخبريه بأي شيء، فلنحفظ سر الفتاة فهذه أمانة.

أنهيت المكالمة واتّجهت إلى غرفة بنات أخي، وكان "جمال" وزوجته يجلسان على فراشي، وأمامهما "أحمد" الذي عاد إلى الغرفة بعد انصرافي منها عندما دعاه أخي لينضمّ إليهما، وكان يقف وفي يده إحدى الروايات التي كنت أقرؤها، وقد لاحظ العلامات الورقية الصغيرة البارزة من بين صفحاتها، حيث كنت أعلّم الصفحات بعد أن أظلّل كل جملة أو فقرة تعجبني في الرواية، لأعود وأقرأها في لحظات صفاء أخرى بعد الانتهاء من قراءتها.

شعرت بتوتر لأنه اقتحم خصوصيتي، ووجدتني أتجه إليه وأشد الرواية من بين يديه، وأقول وأنا أتفادى نظراته:

- سأعود إلى المدرسة، المديرة كلّفتني بإحضار رقم ولي أمر الطالبة.

حرك أخي أصابعه معترضا وقال:

- كيف! وأنت مرهقة وشاحبة هكذا، فلتؤجلي الأمر إلى الغد، ولا تقلقي

أجبته وأنا أرجوه:

- الفتاة فعلا تتعرض لأذى رهيب ولا بد أن نبلّغ أهلها

قاطعتني "نور" وقالت:

- إذًا اذهب معها يا "أحمد" ولتقلّها بسيارتك إلى المدرسة

كدت أعترض، لكنني تراجعت عندما قام أخي وقال أنه سيرافقنا إلى هناك، نزلنا معا وركبت سيارة "أحمد" لأول مرة.

كان عم "سيّد" يقف خلف البوابة، وبدا لي أن الأستاذة "نوال" قد أبلغته بالفعل أنني على وصول، فتح لي الباب الحديدي فورًا عندما رآني، ودخلت معه وسرت خلفه حتى وصلنا إلى غرفة الأستاذة

"سعاد"، فوجئت بقفل كبير على بابها، توقف عم "سيّد" ونظر للقفل وقال بصوت متردد:

- ليس معي إلا مفتاح باب الغرفة، ولا أستطيع كسر القفل، ولو علمت الأستاذة "سعاد" ستوبخني على هذا الأمر بشدة.

تحسست القفل بيدي وكان كبيرًا، وتلفّتُّ حولي أبحث عن أي شيء لأكسره، طلبت من عم "سيّد" أن يحضر لي أي شيء لكنه رفض خوفا من الأستاذة "سعاد".

أسرعت إلى أخي "جمال" ووجهت كلامي لـ "أحمد" وربما كانت المرة الأولى التي أخاطبه فيها مباشرة منذ أن افترقنا-غير سلام عابر بيننا- والتقت للحظة نظراتي بنظراته وأنا أسأله:

- هل معك في حقيبة السيارة أي شيء يصلح لكسر قفل كبير؟

أجابني وهو يترجل من السيارة:

- بالتأكيد، لحظة وسأحضره لك

ثم صمت هنيهة وقال بجدية:

- من الواضح أنك بدأت تتورطين وتضعين نفسك في مشاكل، وها أنت تدخلين في دوّامة، وربما لا تتمكنين من حماية نفسك.

حاولت أن أتجاهل كلماته لكنه عاد ليكمل:

- لا تتوغلي وتغوصي وتنغرسي في خصوصيات الطالبات بتلك الطريقة، نحن في مجتمع لا يقبل هذا الأمر، وجهيهن من بعيد فقط، أو بلّغي الأهل عن أخطاء البنات بطريقة غير مباشرة.

رددت عليه وأنا أسير مع أخي خلفه وهو يحمل ساقًا حديدية وقلت:

- أي عمل في أي مكان لا يخلو من مشاكل، وأنا أستمتع بعملي وأحبّه جدًا.

أردف قائلا:

- أنت لا تملكين خبرة التعامل مع الناس والمجتمع، ومن لا يتقن السباحة فعليه ألا يلقي بنفسه في وسط البحر الهائج!

ضايقتني كلماته، وكانت تلك المرة الأولى التي ينتقدني فيها، شعرت أنه يريد أن يشعرني بالنقص، أو العجز، فكل ما سمعته منه منذ رأيته كان إطراءً ومدحًا، شعرت بغضب وضيق شديد، وانعقد لساني ولم أرد عليه، ربّت أخي على كتفي وقال بحنان:

- أنا خائف عليك، أنت بريئة، ولا تعرفين كيف يفكّر الناس من حولك، وغالبًا تتوقعين أن كل الناس طيبون.

وصلنا أمام باب الغرفة، وكسر"أحمد" القفل، وفتح لي الباب عم "سيد" وهو يتمتم بكلمات كثيرة لم ألتفت إليها، كان واضحًا خوفه الشديد من"سعاد" لكنني لم أفكر إلا في "أميرة"

وصلت بعد بحث لدقائق لملفها ودوّنت رقم هاتف والدها ووالدتها، ونقلت العنوان، وأعدت الملف بحرص لمكانه

وخرجنا من المدرسة، اتصلت فورًا بالأستاذة "نوال" وأبلغتها بكل شيء، وكان ردّها:

- الآن يا "دعاء"عودي إلى البيت وارتاحي واهدئي، وأنا سأتصل حالا بوالدتها، اتركي لي الأمر وأنا سأتصرّف

ولا تتدخلي، فأنا لي أسلوبي وطريقتي معهم

قاطعتها قبل أن تنهي الاتصال وقلت:

- وماذا عن عم "سيد" فهو خائف جدًا من الأستاذة "سعاد"؟

أجابتني بلهجة حاسمة:

- طالمًا لا يعرفون اسم "أميرة" لا يهمنا أي شيء، وكل ما سيفعلونه مجرد كلام، لا تقلقي يا "دعاء"، ولا تهزّك كلمات "سعاد" ولا أفعالها، ولو التقيت بها غدًا، أو حدث بينكما أي شيء، أحضريها معك إلى غرفتي، وأنا لي طريقتي معها.

وانتهت المكالمة، وما زال ضميري يؤنبني على عدم قراءتي للرسالة مبكرا، وعلى عدم وقوفي لدقيقة وإنصاتي لـ"أميرة".

وشعرت بضيق لأن تأخّري في اطّلاعي عليها اضطرّني لإفشاء سرّها لمديرة المدرسة رغما عنّي لكي أحاول إنقاذها وعزمت على عدم تكرار هذا الخطأ مع أيّة طالبة أخرى، وقرّرت أن أعتذر لأميرة عن هذا في وقت لاحق، فالمهم الآن أن ننقذها قبل فوات الأوان.

عدنا لبيت أخي وجلست منهكة القوي على أقرب مقعد وصلت إليه بقدمي التي ازداد ألمها أكثر، حاولت الاتصال مرة أخرى بـ "أميرة"، وظلّ هاتفها مغلقًا.

حاولت أن أعتذر لأخي وزوجته عن القلق الذي سببته لهما- وكان أحمد قد بقي معنا- وقلت:

- آسفة، فقد أفزعتكم

أجابتني "نور" بابتسامة خفيفة:

- الحمد لله، لا بد أن تنتبهي لطعامك، لا خروج بدون إفطار بعد اليوم، لقد خفت عندما رأيتك تسقطين أمام عيني، لولا أن "أحمد" أسند رأسك قبل أن ترتطم بحافة الطاولة لكنت الآن تخيطين جرحا كبيرًا في المستشفى.

شعرت بوخزات وكأنّ جسدي كله أشواك عندما علمت أنه قد أمسك رأسي بين يديه، وشعرت بخجل شديد، استأذنت وأسرعت إلى غرفتي، وناديت على "مودة" و"رحمة"

سألتهما وأنا أحملق في وجهيهما:

- من الذي حملني ونقلني إلى الغرفة؟

أجابتني "مودة" بحماس:

- خالي"أحمد" هو من حملك بذراعيه هكذا

وسارت وهي تقلد مشيته حتي وضعت ذراعيها الصغيرين على الفراش.

قلت بغضب:

- ولماذا لم يحملني "جمال"؟!

أضافت "مودة":

- لأن يديه كانتا ترتجفان بعد أن صرخت "رحمة"، وقالت.. ماتت عمتي.. ماتت عمتي...

فأسرع خالي يحملك وركضنا جميعا خلفه..

وأردفت "رحمة" وهي تصفق بعفوية:

- خالو "أحمد" قويّ جدًا.

قفزت من الغضب ونسيت قدمي فتألّمت بشدة، وانحنيت أمسك قدمي فوجدت جوربي الممزق الذي ما زلت أرتديه وبالتأكيد رأوه جميعًا، واتجهت إلى فراشي وتكوّرت تحت الغطاء وأنا في غاية الخجل، وهما تضحكان ببهجة بجواري.

❊ ❊ ❊

18

مرّت ساعة أخرى، واقتربت عقارب الساعة من الخامسة والنصف مساء، وقد اقترب موعد وصول الضيف الخبيث حسب رواية "أميرة" في رسالتها، فهو يستقل قطارًا يصل في الخامسة وخمس وأربعين دقيقة إلى الإسكندرية، ويصل إلى بيتهم عندما تكون الساعة السادسة تمامًا.

أمسكت بهاتفي واتصلت بالأستاذة "نوال":

- أستاذة نوال، آسفة لإزعاجك وددت أن أطمئن على "أميرة"، فأنا انتظرت اتصالا منك لتطمئنيني!

أجابتني بصوت كسول، وكأنني أيقظتها من غفوة قصيرة :

- اتصلت كثيرًا والرقمين أحدهما خارج نطاق الخدمة، والآخر لا يجيب، سأحاول الآن مرة أخرى، لا تقلقي.

شعرت وكأن أطرافي شلّت، وأحسست أن لساني قد تخشّب، وأنهيت المكالمة وأنا أقف بدون تفكير لأرتدي ملابسي مرّة أخرى، تناولت الورقة التي دوّنت فيها العنوان، وخرجت بعد أن أخبرت زوجة أخي أنني سأذهب للفتاة، وطلبت منها ألا تخبر أخي ولا تزعجه وقد نام كعادته كل يوم في هذا الوقت حتى يؤذّن للمغرب.

اتجهت إلى الشارع الذي تسكن فيه "أميرة"، عمارة أنيقة، ومدخل فخم، توجّهت إلى موظف الاستقبال الذي لاحظ عرجتي وقال:

- شفاكم الله، إلى أي طابق تتوجّهين آنستي

أجبته وأنا أتصنع الابتسامة:

- بيت الأستاذ "حمدي السلاموني".

سار معي تجاه المصعد وضغط على الزر، وقال وهو يبتسم:

- أهلًا وسهلًا، الدور الرابع شقة رقم ١٢

هل تسمحين لي...أود تدوين اسمكم الكريم؟

قلت وأنا أفتح باب المصعد:

- "دعاء الشربيني".

كانت اللحظات القليلة التي مرّت وأنا في المصعد كافية لرفع مستوى الهرمونات في دمي، ارتجفت يداي وشعرت بحرارة تحت عينيّ، تعرّقت رقبتي تحت حجابي، وجفّ لساني، وارتبكت شفتاي.

وقفت أمام الباب الخشبي الأنيق الذي توسطته لوحة نحاسية لامعة مكتوب عليها "حمدي السلاموني"، وضغطت بإصبعي على جرس الباب، وسريعا فتحت لي "أميرة"

التي شخصت عيناها عندما رأتني أمامها، وقالت بذهول:

أستاذة "دعاء"، هل تعرفين عنوان بيتي!

ابتسمت بقلق ونظرت في عينيها بريبة وقلت هامسة بحذر:

- أنا قرأت الرسالة، سامحيني، لم أكن قد قرأتها بعد، عندما فارقتك أمام البوابة، وخفت أن أخبرك فتغضبين منّي، هل جاء قريب والدتك؟

قالت وهي تشدّني من ذراعي لأدخل معها:

- لا..لا...تفضلي بالدخول.

دفعت بإحدى قدمي للولوج، وألحقت بها الأخرى ببطء...

تجوّلت بعينيّ في البيت الأنيق، كانت هناك منحوتتان رائعتان تشرفان على المكان من أعلى على رفّ معدني قرب المدخل، لاحظت الأثاث الفاخر، والثريات الثمينة التي تتدلى من السقف، واللوحات الغالية المعلقة على الجدران بإطاراتها الذهبية، حتى السجاجيد التي غاصت قدمي فيها كانت فخمة جدًا

أجلستني في غرفة الاستقبال الكبرى، والتي ينزوي فيها مكتب والدها الخشبي الأنيق المطعم بالنحاس، ومن خلفه برز كرسي ضخم من الجلد ثم تأملتني بوجهها الشاحب وسألتني:

- أما زالت قدمك تؤلمك؟

كانت جديلتها الملتفّة في كعيكة على مؤخرة رأسها تمنحها مظهرا كمظهر الأميرات فجمالها الكلاسيكي ينسجم مع المكان، لكنها حزينة... وتتألم.

تصنّعت ابتسامة وقلت لها وأنا أحاول أن أخفف عنها:

- وقعت على الأرض وفقدّت الوعي عندما قرأت رسالتك، وأفزعت أخي المريض وزوجته، سامحيني لأني لم أقرأ رسالتك في نفس يوم شكواك يا "أميرة".

طالعتني بنظرات ممتنّة لكنها خائفة وقالت برجاء بعد أن اقتربت وأمسكتني من يديّ:

- أعلم أنك تحبينني ولن تتركيني يا أستاذة "دعاء" أليس كذلك؟ فأنت في مقام أخت كبرى لي.. أرجوك أرجوك... كوني أختي.

احتضنتها وربّتُّ على ظهرها، وقلت وقد تذكّرت حضن أختي رحمها الله:

- نعم أنت حبيبتي وأختي لا تخافي.

قالت وهي تفرك يديها في لوعة وقلق واضحين وقد ازداد وجهها شحوبًا:

- اقترب موعد وصوله، أشعر بالخوف منه، والاشمئزاز أيضًا

لا أريد أن أره مرة أخرى، أخشى أن أخبر أمي، أنا أخبرتك أنت فقط؛ لأنني أحبك وأثق بك.

ارتبكت قليلًا وأردت أن أخبرها أن مديرة المدرسة الآن تعرف، فقلت محاولة أن أنقل الخبر إليها بشكل هادئ:

-لقد اتصلت بك مرتين، ولم تجيبيني، وأظنك أغلقت هاتفك، ففزعت وقلقت عليك وعدت إلى المدرسة لأبحث عن عنوان بيتك وأرقام هواتف والديك..

وجدتني أتلعثم وأنا أكمل:

- وكان..لا..لابد من إخبار مديرة المدرسة لتأذن لي.

انتفضت أميرة ووقفت وصاحت بفزع:

- ماذا!..أخبرتِ المديرة، لماذا فضحتِني؟ حرام عليك، لماذا تفعلين هذا وأنا التي وثقت بك

حاولت أن أهدئها وقلت وأنا أمسك يديها وأجلسها مرة أخرى:

- لا تخافي، هي أخبرتني بنفسها أن أحفظ سرّك، وألا أخبر أحدًا، فهي أحرص عليك مني، فلم أجد أمامي طريقة أخرى لكي أصل إليك

وأنقذك من هذا الذئب إلا هذه، ولتعلمي أنني أثق بها وقد طلبت مني أن أترك لها إخبار والدتك بالأمر بطريقتها الخاصّة.

لكن والدتك لم ترد أيضًا على الهاتف، وأنا بصراحة خفت عليك من تطور ما يفعله بك، ويقع ما نخشاه فما يطلبه منك الآن أمر خطير ومقزز.

مرت لحظات وهي تبكي، وأنا أحاول أن أقنعها أن الأفضل أن تعرف أمها.

قطع حوارنا صوت باب الشقة وهو يفتح، عادت أمها يسبقها العطر النفاذ والضوضاء التي يصدرها صوت كعب حذائها المصحوب بصوت اصطكاك الأساور التي ترتديها في يديها ببعضها البعض.

دلفت غرفة الاستقبال بعد أن نادت على "أميرة" التي أجابتها لتعلمها بمكاننا كانت أميرة ترتجف، فتحت أمها ذراعيها واحتضنتها، وقبّلتها على وجنتيها فطبعت عليه بأحمر الشفاه الذي كان يغرق شفتيها بقعة حمراء أبرزت شحوب وجه ابنتها ثم سألتها بقلق:

- هل حقًا أنت مريضة؟

أخبرتني مديرة المدرسة منذ قليل على الهاتف أنك أصبت بدوار اليوم بالمدرسة، وأكّدت عليّ أن أعود إلى البيت حالًا، تركت كل شيء وجئتك فورًا حبيبتي.

وقفت لأحيي والدتها لكنها استقبلتني بابتسامة فارغة وسألتني:

- أهلًا وسهلًا، ألن تعرفيني بضيفتك يا "أميرة"؟

أشارت "أميرة" إلي وقالت:

- الأستاذة "دعاء" يا أمي، الاختصاصية الاجتماعية عندنا بالمدرسة.

هزت "سهير" رأسها وابتسمت ابتسامة آلية وقالت:

- جميل منك أن تأتي للاطمئنان على "أميرة"، يبدو أنها كانت مريضة جدًا، للأسف هي لا تأكل جيدًا، ولا يعجبها شيئًا، وتعذبني كثيرًا في اختيار ما تتناوله عكس أخيها، أظن هذا سبب وهنها اليوم، فأراها شاحبة قليلًا، وعيناها زائغتان، ما الذي حدث بالضبط يا "أميرة"؟

أخبريني يا أستاذة "دعاء"..

أجبتها وأنا أتأمّل أسنانها التي امتزج لونها الأصفر ببعض من الظلال السوداء من إثر التدخين، وقد لمحتها من بين شفتيها الغارقتين بأحمر الشفاه الصارخ وقلت:

- حمدا لله أنك وصلت في الوقت المناسب، فأنا أود أن أحادثك في أمر هام يخصّ "أميرة"، فهناك مشكلة تقلقها.

قاطعتني بقلق بعد أن رفعت شعرها الطويل المنسدل على كتفيها وأزاحته للوراء وهي تقول:

- أي مشكلة؟ أستاذة نوال لم تخبرني أن هناك مشكلة، أخبرتني فقط أن "أميرة" مريضة، وأكّدت على عودتي إلى البيت حالًا وألا أتركها وحدها!.

شعرت بالارتباك، فقد اتضح لى أننى ربما تسرعت بإخبارها عن الأمر، فقد شردت فى كلامها السابق وفقدت التركيز لفرط انزعاجى من كمّ التبرج فى مظهرها، فسقط منى غالبيته واتضح لى الآن أنى أضعت فرصة سانحة لعدم تضخيم الموضوع أكثر، لكنى أضعتها بزلتى تلك، للأسف.

ويبدو أن أستاذة "نوال" قد كررت الاتصال حتى أجابتها، ووجهتها للحضور لمنع تواجد "أميرة" بمفردها مع هذا الشخص، على أن تستدعيها في وقت لاحق بهدوء لتمرر لها مشكلة ابنتها بسلاسة.

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أتامل نظرات التوسّل والاستغاثة في عيني "أميرة"، جلست أمها أمامي وسألتني مرة أخرى:

- ما هي المشاكل يا أستاذة "دعاء"؟ هيا أخبريني.

حاولت أن أرتّب الكلمات في رأسي بسرعة، وكدت أبدأ في الكلام لولا جرس الباب الذي دقّ فجأة فأفزعني، انتفضت "أميرة" بفزع، فالساعة الآن السادسة تمامًا..

أمسكتها من يديها، ووجهت نظراتي للأم وقلت لها بصوت هادىء نبرته منخفضة:

- أرجوك، تماسكي، واهدئي، واتركي "أميرة" تفتح الباب وتستقبل قريبك دون أن تخبره أننا بالبيت، وراقبي بنفسك كيف يعامل ابنتك، وماذا يفعل بها؟!

شحب وجه "أميرة"، وتغيرت ملامح أمها التي أمسكتها من كتفيها وهزتها وقالت بخوف:

- ماذا فعل بك...انطقي؟

كادت "أميرة" أن تنهار مغشيا عليها، لولا أنني وضعت ذراعي لأفصل بينهما، وقلت بحزم موجهة كلامي للسيدة "سهير":

- لا تخافي، لم يحدث أبشع ما تخافينه، لكن ما حدث بشع بالتأكيد، إنه يتحرش بها جسديًا، وبدأ يطالبها بالمزيد، وكان لا بد أن تعرفي ما يحدث.

دقّ جرس الباب مرة أخرى، وتلفتت الأم في ارتباك شديد ثم نظرت إلينا، وقد ضاقت حدقة عينيها، وهمست موجهة كلامها لابنتها بعد أن خلعت حذاءها حتى لا تصدر صوتا وهي تسير به:

- "أميرة" قابليه في الصالة حتى أراه من خلف باب غرفتك، ولا تخبريه أنني هنا، ولا تخافي فأنا أترصّده

وأطفئي ضوء غرفة الاستقبال بسرعة.

نظرت إليها وقلت قبل أن أتبع أمها:

- "أميرة" تحملي اليوم فقط، إنها آخر مرة سترين وجهه فيها، كوني قوية من أجل نفسك مسحت "أميرة" وجهها وقالت بصوت يرتجف:

- ولكن ربما يعرف من موظف الاستقبال أنك عدت يا أمي.

نظرت إليها أمها نظرة حاسمة وقالت:

-لا يوجد أحد في الاستقبال، ولم يرني أحد.

توجهت مع مدام "سهير" والدة "أميرة" لغرفة يكشف بابها الصالة كاملة، وجلست بهدوء، وتركتها تتلصص من خلف الباب.

رأيتها وقد فشلت كل مظاهر التبرج في إخفاء أمومتها الفزعة، والمتربصة بوحشية له إن مسّ شعرة من ابنتها، وقد انحنت وشخص بصرها، وتجمّدت مكانها كالصنم.

كانت تحبس أنفاسها، وتنصت لصوت قريبها وهو يمازح "أميرة" ويدللها ثم يضحك ثم يمدح فيها كثيرًا

وفي جمالها، وشعرها، ويسألها عن صديقاتها، كانت "أميرة" مرتبكة وكانت تجيبه وهي مشوشة وقلقة

ثم ألقى عليها نظرة فاجرة مريبة، ومدّ يده وبدأ يمسح على خدها واستمر لرقبتها وقام فجأة واقترب منها أكثر لينقضّ عليها كذئب مفترس فانتفضت "أميرة" وصرخت،

خرجت أمها من خلف الباب كحمم البركان الملتهبة تصرخ في هلع، وانقضت عليه تسبّه بأبشع الألفاظ...

غرزت أظافرها في عنقه وخنقته بأصابع ترتعش، فدفعها بعيدا لتسقط على الأرض فعادت ولطمته على وجهه بكفيها الاثنتين، كنت أبكي بحرقة كما لم أبكِ من قبل.

احتضنت "أميرة" التي كانت تصرخ هي الأخرى، وتراجعت بها للخلف وأنا أراقب أمها وهي تنهال عليه باللكمات، دفعها بقوة مرة أخرى.

وأسرع راكضًا نحو الباب بوجه سوّدته المعصية، لم أكن أتوقع أن يكون في العقد الرابع من عمره!

كانت السيدة "سهير" تتخبط بوجهها الشاحب الذي هربت منه الدماء وهي تسير خلفه وتتوعده وتهدّده، التفتت إلينا وأقبلت ثم جذبت ابنتها من بين ذراعيّ، واحتوتها وضغطت عليها في حضنها وهي تتوجع كالطائر المذبوح.

وبكت "أميرة" إلى ما شاء الله أن تفعل حتى انفطر قلبي، وكانت أمها تصدر صوتًا كحمامة تنوح في شجن، قمت لأصلّي المغرب وكلتاهما تبكي بجواري، أطلت سجدتي الأخيرة وأطلت الدعاء ولم أشعر بنفسي إلا وصوت السيدة "سهير" يردد خلف صوتي الذي ارتفع بالدعاء وأنا ساجدة:

- آمين يا الله، استرنا يا الله، سامحني يا الله

أنهيت صلاتي وعدت أراقبهما، مرّت ساعات وكلتاهما تتحدث للأخرى بكلمات بللتها الدموع.

وددت أن أتركهما واستأذنتهما بالفعل في الانصراف أكثر من مرّة، وفي كل مرة كانت"أميرة" تتوسل إليّ أن أبقى قليلًا.

مكثت معهما أربّت على ظهر "أميرة" وأكفكف مع الأم دموع ابنتها.

❊❊❊

19

مرّ الوقت بسرعة، وشعرت أنني قد تأخّرت، ولا بد أن أعود لبيت أخي الآن، وأتحمل غضبه، فتلك هي المرة الأولى التي أتأخر فيها هكذا خارج البيت...

عاد الأستاذ "حمدي" فجأة، وبخطواته السريعة كان في لحظات يقف أمامنا في وسط بيته، فوجىء بدموع زوجته وابنته.

تأمل وجهيهما، ورمقني بنظرة حادة ثم سأل بفزع:

- ماذا حدث؟

سهير!!...لماذا تبكين؟!

"أميرة"!!....ما بك؟!

ثم حوّل نظره إليّ، وقال:

- من أنت؟!

أجبت نيابة عنهما:

- "دعاء" الاختصاصية الاجتماعية عند "أميرة" في المدرسة

ركضت "أميرة" إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها، وبقيت أنا وأمها أمام أبيها، بدأت في سرد تفاصيل ما أخبرتني به "أميرة" عندما أتتني في غرفتي بالمدرسة، أخبرتهما عن زيارتي للطبيب النفسي، وما لاحظته على "أميرة".

لاحظت نظرات أمها التي كانت تحاول أن تغمز إليّ بعينيها، وتشير إليّ بأصابعها وكأنها تريد أن تنبهني لشيء، فهمتها وتجنّبت قصة الرسالة، وقريب أمها الذي يتحرّش بها والذي انصرف للتو، وتركت لها حرية التصرف في اتخاذ القرار وما إن كانت ستخبر والد أميرة أم لا.

تأملتني أمها طويلًا، وطال سكوتها، سمعتها تقول بصوت جاف لتصرفني وكأنها تخشى وجودي معهما أكثر من هذا:

- مع السلامة يا أستاذة "دعاء"، وأشكرك على ذوقك وحسن رعايتك لابنتي، وسامحينا لأننا أخرناك كثيرًا.

ابتسمت وقمت لأنصرف بهدوء، وفجأة

اعترض والدها طريقي ووقف أمامي ونظر إليّ بريبة وسألني باستخفاف:

- كم عمرك؟

أجبته بتحفظ:

- سبعة وعشرون عامًا.

طالت نظرته قبل أن يكمل سائلا:

- هل هذه هي المرة الأولى التي تعملين فيها؟

أجبته بأدب:

- لا، فأنا عملت من قبل في مدرسة ابتدائية

عاد لنظرة الاستخفاف وقال:

- أنت صغيرة ولا تبدو عليك علامات الخبرة، ألا تعرفين أن البنات في هذه الفترة من عمرهن يبكين كثيرًا ألم تمري بتلك المرحلة!

لماذا تهولين الأمر، ولم تحاولين تشويه سمعة ابنتي؟

لحساب من تعملين؟

ومن سلطك علينا؟ انطقي فورًا

قاطعته قائلة وقد حافظتُ على هدوئي رغم حجم الحنق فى قلبي الذي يكاد لا تحصى دقّاته:

- ولكن.."أميرة" فعلا تحتاج لرعاية ولا بد من استشارة طبيب نفسي، وخاصّة لو كان هناك تاريخ عائلي بمرض مثل "الوسواس القهري".

قاطعني ورفع صوته بغضب وقال:

- أيتها المجنونة!!، أي طبيب نفسي!!

اذهبي أنت له وعالجي نفسك

أتريدين شبهتنا!!

وفي هذا الوقت بالذات تظهرين وأنا أستعد للانتخابات!!

من سلّطك علينا؟!

كم ثمنك؟...أتريدين نقودًا؟

حاولت أن أقاطعه لأرد عليه وقد تبيّن لي أنه لا يفكّر إلا في نفسه وفي الانتخابات وحيل المنافسين والأعداء... لكنني فشلت فقد كان ثائرًا غاضبًا سريع الطلقات...

أردف بنبرة متسلطة وهو يهددني:

- فلتسمعيني، لا تقتربي من "أميرة" مرة أخرى.. وإلا سأنسفك.

رفعت حقيبتي على كتفي، وعزمت على الخروج وقد أهانتني

كلماته، وقبل أن أتركهم نظرت إلى عينيه وقلت بمرارة:

- ابنتك تحتاج إليك وأنت تهملها وتخسرها من أجل شهرة كاذبة..

تبني في الهواء وتهدم بيتك...

تركض وراء الناس وتنبذها هنا...

أنت شخص غير مسئول وطريقة إدارتك لبيتك غير ناضجة..

ولا تستحق المنصب الذي تشغله!!

فاجأني بصفعة قوية على وجهي، وشعرت بإظفره وهو يخدش بشرتي، خرجت مني صرخة مكتومة، لم أنطق بعدها ببنت شفة من هول الصدمة التي أصابتني بدوار كدت أسقط على إثرها خائرة القوى منهارة، وضعت يدى على موضع الصفعة الحارقة وبدأت أرتجف وتخشبت أطرافي، وكنت أشعر بالدنيا تظلم في عيني.. لم أنتبه إلا على صراخ أستاذة سهير فى جزع بالغ وهي تصرخ:

- لماذا يا حمدي؟!

كيف تفعل هذا؟!

أنت لا تدرى ما الذى فعلته!

أنت آذيت من تحاول بكل صدق مساعدة ابنتنا أميرة!

ثم التفتت إليّ محاولة تهدئتي:

- لا أجد كلمات أواسيكِ بها يا ابنتي حقًا. سامحيني يا دعاء.. أعتذر منك بشدة

صرخ مناديًا على ابنته التي جاءت فورًا، وسألها بلهجة حادة:

- هل هذا الكلام صحيح؟ وما قصة الخيالات الحمقاء التي تتحدث

عنها هذه الفتاة؟

فاجأتني "أميرة" وهي تقول:

- لا يا أبي هذا الكلام غير صحيح!

التفت إليها ورفعت حاجبيّ، وشعرت أن قلبي يغوص في أحشائي وقلت بوهن:

- ماذا؟!

أكملت وعيناها مفتوحتان على وسعهما وقد علّقتهما بوجه أمها:

-رررأأأيت كابوسًاا م...مم..مزعجًا!!

وذهبت للأستاذة "دعاء" واشتكيت لها فقط أنني خائفة من هذا الكابوس...

فاجأتني "أميرة" بكلماتها وتعجبت!

لا أدري لماذا لم أصرخ

ولماذا لم أردّ على الصفعة بصفعة

حتى "أميرة" ذبحتني بإنكارها

ولكن... لعلها خائفة أو مجروحة لأنني أفشيت سرّها ولم تستوعب بعد سبب ما أقدمت عليه....

شعرت وكأنني لا بد أن أضحي وأسكت من أجل "أميرة"،

وهنا كان لا بد من خروجي من هذا البيت الذي يفتقر إلى الحب، والأمان، والثقة، بيت كئيب يحاول أن يتزين بالتحف ليخفي زيفه وقبحه الداخلى ووحشته، كعجوز شمطاء تخفى دمامتها بزينة كاذبة، وقد هاجرت من وجهها كل الملامح الحلوة حتى أميرته الصغيرة التي

أهديتها مساحة من قلبي فجرحته وأدْمَتْه بيديها قد خذلتني الآن.

خرجت من بيتهم وما زال وجهي يحرقني إثر صفعة صاحبه القاسية

هل فعلًا أنا أتدخّل في خصوصيات البنات أكثر من اللازم كما أخبرني "أحمد"!

أم هي مسئوليتي وأمانة سأحاسب عليها؟!،

مرّت بجواري امرأة في العقد الخامس من عمرها تسير بوقارٍ وكفّها تحتضن كفّ حفيدها الصغير، توقفا أمام مسكينٍ تكوّر بجوار الحائط، أخرجتْ من حقيبتها بعضًا من النقود وأعطتها لحفيدها ليضعها في يد المسكين وقالت بصوت هادىء:

-لا تنس النيّة.

تذكّرت الآن فقط أنني نسيت.. نعم لقد نسيت..

وتردد صوت خالي في رأسي وهو يسألني عندما أخبرته أنني سأعمل، وهو يطيل النظر في عيني:

- هل عقدت نيّة يا "دعاء"؟

وسألته وقتها ببساطة:

- وهل لا بد من نيّة في كل شيء يا خالي؟

آه.. لماذا أتذكر كل هذا الآن؟!، ألم أفعل هذا حماية لأميرة من السوء؟!، ألا يكفي هذا المقصد النبيل؟!

ثم انقطعت حبال أفكاري وتشوشت رغما عنّي لفرط إرهاقي، فقررت أن أفكّر فى أمر النية هذا ولكن بعد أن أرتاح، فأنا مرهقة جدًا.

تذكرت الرؤية الأولى التي كتبتها الفتاة الغامضة في رسالة:

رأيتك على باب قصر، تمدّين كفّيك، عصفور يبكي على كفّ، وحمامة تنوح على الكفّ الآخر، وصقر يلطمك بجناحه فتركضين هاربة إلى بناية جميلة شرفاتها عالية.

وها هي تتحق، أميرة تبكي، وأمها تنوح، وأبوها يصفعني، ترى إلى أين سأركض الآن؟

استقبلني أخي بوجه غاضب لأنني خرجت دون أن يأذن لي حتّى أنه لم يلاحظ وجهي الذي بدأ يحمر من أثر الصفعة، أسرعت إلى غرفتي، وتدثرت بغطائي، وشعرت أنني مريضة جدًا.

غشيتني غفوة ونمت حتى الثلث الأخير من الليل، فزعت وقمت أناجي ربي، وظللت حتى الفجر أدعوه في السحر أن يفرّج عنّي، نمت مرة أخرى ليبدأ يوم جديد مليء بالمشاكل.

❊ ❊ ❊

20

كان عم"سيّد" هو أول وجه يستقبلني على باب المدرسة، بمزاج متعكّر وقلق وهو يهزّ رأسه قائلا:

- الآن ستأتي بوجهها العابس وتعكّر نهاري

كان يقصد الأستاذة "سعاد"، مررت من أمامه وأنا أجرّ قدمي العرجاء منذ أمس، وكل هموم الدنيا تطبق على صدري، دلفت إلى غرفتي، وجلست على مكتبي، كنت أشعر بالمرض، أسندت رأسي على المكتب وأغمضت عيني لأفاجأ بها تقتحم غرفتي وخلفها "رباب" مدرسة التربية البدنية التي تتبعها كظلّها، صرخت في وجهي:

- كيف تجروئين على كسر قفل غرفة مكتبي؟ وتفتشين فيه بتلك الطريقة؟

هذا لم يحدث من قبل في تاريخ المدرسة، فالكلّ يعرف أن غرفتي مكان مقدّس لا يدخله أحد إلا بتصريح منّي، أنت متطفّلة وعديمة المسئولية

حاولت أن أحتفظ بثباتي وقلت بهدوء مصطنع:

- هل من الممكن أن ننتظر حتى تصل الأستاذة " نوال"؟.

اقتربت بوجهها من وجهي وطرقت بقبضتها على مكتبي بقوة فاهتزّ وسقطت أوراقي وكتبي من فوقه

ثم قالت وشفتاها ترتجفان من شدة الغضب، وتكاد حنجرتها تنشطر إلى نصفين:

- أنت لك حدود هنا، حتى المديرة نفسها لن تقدر على حمايتك منّي، فلتحذريني.. وإلّا!

قالت "رباب" التي كانت تطالعني بنظرات استعلاء وهي تسير خلفها وهما تخرجان من غرفتي:

- مظاهر خدّاعة، وبراءة مصطنعة

سالت دموعي، وقضيت أطول ربع ساعة في حياتي، أنتظر وصول مديرة المدرسة، كان وجهي لا يزال يحرقني، وحتى قدمي أوجعتني بشدة.

وصلت الأستاذة "نوال" أخيرًا، ورأيتها من نافذة غرفتي وهي تسير في ممرّ مدخل المدرسة

شعرت بفرحة الغريق برؤية طوق النجاة، وكانت رؤيتها كشربة ماء بعد طول ظمأ توجهت فورًا إلى غرفتها ودار بيننا حوار سريع:

- صباح الخير يا أستاذة "نوال"

- صباح النور يا "دعاء" ما بك؟ هل أنت مريضة؟

أجبتها وأنا أتحسس رأسي:

- مرهقة فقط، لقد ذهبت أمس إلى بيت "أميرة"

خلعت "نوال "نظارتها وقالت وهي تلومني:

- لماذا يا دعاء؟ ألم نتفق على أنني أنا من سيخبر والديها، وأنك ستتركين لي المهمة كاملة ولا تتدخلين؟

أجبتها وأنا أتمتم:

- إنني...ف..فقط قلقت عليها، فعندما أنهينا المكالمة معا كان قد بقي فقط نصف الساعة على وصول هذا الخبيث لبيتها.

قاطعتني بسؤال مباشر:

- بالطبع أخبرتك مدام "سهير" أنني أخبرتها أن "أميرة" مريضة

أجبت بحزن وقد غمرني شعور من يدرك تمامًا سوء فعلته:

- نعم. وأخبرتها بكل شيء

غضبت أستاذة "نوال" منّي، وقالت:

- لماذا تصرّفت من نفسك دون الرجوع إليّ؟

ألم أخبرك أن تلتزمي الصمت؟

ثم هدّأت من نبرتها قليلًا قائلة بشفقة:

- والدها ليس رجلًا سهلًا، وأمها غير حكيمة، وأولياء الأمور في تلك المواقف يحتاجون إلى حكمة في توصيل المشكلة، وأنت لا تمتلكين الخبرة يا "دعاء"، أنت مندفعة قليلًا وقراراتك سريعة، ومعاملة الناس سترهقك يا حبيبتي، وستحتاجين لدعم يا "دعاء"، الدنيا ليست سهلة كما تتخيلين، المهم، فلتخبريني بما حدث بالتفصيل.

تحسست وجهي بيدي وقلت بحرقة:

- أستاذ "حمدي" صفعني على وجهي.

قامت "نوال" من مكانها كمن وخزته إبر وأشواك ودنت مني وهي تدير عينيها بسرعة ملهوفة يمنة ويسرة فوق وجهي تبحث عن أثر الصفعة التي ولا بد أنها تركت أثرًا بالغًا، ومسحت بحنان على

الخدش الحارق فوق خدّي، ثمّ قالت بعتاب مغلّف بحنان آسر:

- كم أنت متهورة يا "دعاء"!، لقد قذفت بنفسك في قلب المشكلة..

ثم أضافت وهي تلوي شفتيها بشفقة وحسرة:

- إذًا فلتتحملي عواقب تهورك أيتها الفراشة، ستتعبين قليلًا، وأضيفي إلى هذا ما ستفعله بك "سعاد"

ففتح مكتبها مصيبة بالنسبة لها، أنت لا تعرفينها جيدًا، سأخبرك في وقت لاحق عمّا قالته هنا في مكتبي بعد أول لقاء لنا بك لتحذريها.."سعاد" تتربص بك منذ البداية يا ابنتي.

أجبتها وأنا أتألم من تكالب الهموم في عقلي:

- هي فعلا هددتني بعد أن كسرت القفل.

رفعت "نوال" حاجبيها وسألتني:

- قفل! أي قفل هذا؟

قاطعتنا الأستاذة "سعاد" وهي تقتحم الغرفة، وتقف أمامي وعيناها من الغيظ قد برزتا من محجريهما، وكأن وجهها قد خرج حالا من فوهة بركان ثائر، وقالت وهي تشير إليّ باشمئزاز:

- الهانم كسرت القفل الذي أغلق به غرفتي حرصًا مني على ما به من ملفات هامة، وعهدة أحافظ عليها بحكم وضعي ومكانتي بالمدرسة، واقتحمت غرفتي وفتّشت في مكتبي، فهل يرضيك هذا يا أستاذة "نوال"؟

رفعت "نوال" رأسها ونظرت إليها نظرة يبدو أن كلتيهما تعرف معناها وقالت بحزم:

- أنا السبب، حيث إني قد هاتفتها بالأمس، وكلّفتها بدخول مكتبك لأنني أردت بيانات تفصيلية تخصّ طالبة معيّنة كان قد دار حوار بيني وبين أهلها.. وأردت رقم الهاتف.. والأمر خاص وسري، ولأنني أثق في "دعاء" طلبت منها بالذّات.

زفرت "سعاد" بحنق وقالت معترضة:

- وماذا يعني هذا الكلام؟ كان من الممكن أن تخبراني بالهاتف أيضًا، وإلا فلماذا السرية؟

مَن هذه الطالبة؟

عادت أستاذة "نوال" تنظر إليها وقالت:

- "دعاء" لم تمسّ مكتبك، وهي فقط فتحت الخزانة التي تحتوي على الملفّات بإذن مباشر مني، وأنا أتحمل مسئولية كسر القفل، ورجاء إغلاق هذا الموضوع نهائيا لأنه يخصني.

نظرت "سعاد" إليّ بطرف عينها وقالت:

- هذه آخر مرة تدخلين فيها غرفة مكتبي، سواء بهذه الطريقة أو بغيرها، وأنا متأكدة أن الأستاذة "نوال" تحاول حمايتك، وستجدينني بالمرصاد لك إن تجاوزت حدودك مرة أخرى.

خرجت "سعاد" بخطوات غاضبة وكأنها تغرسها في الأرض بغلّ وتقتلعها بغضب، وعدت إلى غرفتي والهمّ يلاحقني، كنت أشعر بوهن شديد، لاحظت غياب "أميرة"، وتوقعت أن تأتي أمها لزيارة مديرة المدرسة.

مر اليوم مملًّا، وعدت لبيت أخي، لأفاجأ به ينتظر عودتي، كان وجهه شاحبا ويداه ترتجفان وبجواره كانت تقف زوجته وفي يدها

الدواء وكوب الماء... يبدو أنه منفعل جدًا، صرخ في وجهي فور دخولي قائلا:

- ما الذي فعلتِه بنا يا "دعاء"؟

رددت باستنكار:

- وماذا فعلت؟

عاد لصراخه ويداه ترتجفان وقال:

- جاء رجل يسمى "حمدي السلاموني" لزيارة الشركة اليوم، يبدو أنه له نفوذ قويّ يمكّنه من تهديد رؤسائي وإرغامهم على تنفيذ ما يطلبه.

وتمّ نقلي إلى شركة أخرى في محافظة البحيرة، سأضطر للسفر وترك زوجتي وبناتي بسببك

فقد وقف في وسط الشركة، وقال بصوت جهوري مشروخ:

- الدور القادم على أختك، فلن تفلتا من يدي.

اتّجهت بعدها لمدير الشركة وأخبرني أنك تتسببين في المشاكل لابنته بالمدرسة.

ازدردت ريقي بصعوبة وقلت:

- إنه والد الطالبة التي أخبرتكم عنها أمس والتي كانت في مشكلة، والحقيقة أنني لن أستطيع إخبارك بتفاصيلها حفاظا على سرها.

رد باستهزاء:

- حفاظا على ماذا!

إذًا فلتخرجي من رأسك أمر عملك نهائيًا، لا خروج من البيت

للعمل بعد اليوم، ولا أريد نقاشًا في هذا الأمر نهائيا، ويكفي الإهانة التي لاقيتها بسببك.

ثم اتجه إلى غرفته وهو يقول:

اتركوني وحدي لا أريد أن أتحدث إلى أحد...

كان بحاجة إلى الاختلاء بنفسه، والتفكير فيما يمكنه فعله لحلّ المشكلة التي باتت قائمة بين جدران بيته

كان الحوار معه مستحيلًا، وصار البيت كئيبًا، حتى زوجته تجنبت أن تنظر إلى وجهي.

صوتها الحزين استوقفني وأنا في طريقي إلى غرفتي عندما سمعتها تقول وهي تزمّ شفتيها في تحسّر:

- فرَّقْتِنا وجئت إلى بيتنا وجلبت معك المشاكل..

تسمّرت في مكاني وحملقت في وجهها ثم أسرعت إلى غرفتي وبكيت في نشيج مسموع...

صدمتني كلماتها وجعلت همومي ظلمات بعضها فوق بعض.. أنا بالفعل مخطئة ومؤذية لأحبّتي، صرت أوجع كل من يقترب مني.

وجلست حائرة لا أدري ماذا أفعل، حتى ابنتي أخي لم تقبلا عليّ كحالهما كل يوم، بل دخلتا مع أبيهم إلى غرفته، ولحقت بهما أمهما، وبقيت وحيدة في غرفتي التي صارت هادئة كالمقبرة، كنت قلقة على أخي...

وبعد ساعات كنت قد اتخذت قراري...

❊ ❊ ❊

21

سأرحل من هنا، سأبتعد عنهم حتى يرتاح الجميع مني، وسأعود إلى بيت أمي.

جمعت ملابسي في حقيبتي، ولملمت كتبي، وسرت على أطراف أصابعي وتركت بيت أخي،

وغادرت المكان كالشبح الذى لا يشعر به أحد، ولفعتني على وجهي نسمات الهواء فآلمتني فى الخدش الناتج عن الصفعة الكئيبة، وكأنما الطبيعة تعاقبني هي الأخرى على أفعالى، التقط الطريق قدميّ المتعثرتين، وسرت شاردة، واجمة، فارغة الفؤاد، أسيفة الفكر، ممزقة الحنايا..

تبلل حذائي من آن لآخر قطرات دموعي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أدير المفتاح فى باب بيت أمي..

وعدت إلى البيت ذي النوافذ العالية، وكأنني أركض إلى حضن يحتويني، بكيت كثيرًا، وغلبني الحنين إلى الماضي..

أنصتّ قليلًا ووصل إلى أذنيّ صوت القرآن المنبعث من مذياع القهوة القديمة القريبة من بيتنا والتي يرفع صاحبها كل يوم صوته في مثل هذا الوقت حيث يكون وقت تلاوة الشيخ "محمد صديق المنشاوي" في إذاعة القرآن الكريم.

شعرت بسكينة واستبشرت بأن الله سيساعدني، وقمت لأزيح

الستائر، وأفتح النوافذ، شعرت وكأن أمي بالبيت، اتجهت إلى المطبخ أبحث عن أي شيء آكله، كانت معدتي تؤلمني من قلة الطعام على مدار يومين، لم أجد شيئًا سهلًا، فقررت أن أصنع "الأرز باللبن" الذي كانت تعده لي أمي، لكنني لم أجد أرزًا ولا لبنًا.

أنزلت السلّة من النافذة كما كانت تفعل أمي ووضعت فيها بعض النقود وورقة صغيرة دوّنت فيها ما أحتاجه، فأسرع صاحب البقالة التي تحت بيتنا وأمسك بالسلة وتناول النقود والورقة وأخذ يدعو لأمي بالرحمة.

أشعلت الموقد ووقفت أعدّه وكأن أمي تقف بجواري، وسريعًا بدأت رائحته تنتشر بالبيت وتعانق جدرانه من جديد، إنها رائحة أمي.

ظننت أن أخي سيقلق عليّ وربما يأتي أو يتصل بي على هاتفي، وكنت أتلهف لسماع صوته وقد مزّقني شعوري بالذنب، كرهت نفسي وقد صرت سببًا في شقائه وتنقله من مكان لآخر وهو مريض...

لا بد أن "نور" تكرهني الآن، بل ربما يكره رؤيتي أخي "جمال" أيضًا...

رحل النهار مودّعا حافة نافذتي التي ترددت عليها أكثر من مرة كلما سمعت سيارة تقف، تيقنت أخيرًا أنهم رأوا رسالتي التي تركتها على الطاولة قبل أن أغادر البيت هناك، اعتذرت فيها كثيرًا وأخبرتهم أنني في بيت أمي.

فتحت التلفاز آنس بأي شيء، وجلست أراجع ما مررت به في حياتي وعملي خلال هذا الشهر بتلك المدرسة، تذكرت كلام خالي، وبدأت أفتش في عقلي وصدري عن نيّة أتخذها في عملي هذا حتى تتيسر أموري، أحضرت مفكرتي وبدأت أكتب:

أن أحبب الطالبات في طاعة الله، أن أكون قدوة، أفرّج عن مسلم كربته كما حاولت مع "أميرة"، أنفق على نفسي، أتصدّق من مالي وكسبي، الإعمار في الأرض، وظللت أكتب..

دقّ جرس الباب فقمت مسرعة وسألت:

- من بالباب؟

فجاء صوته كالماء البارد اللطيف بعد حر شديد ليروي ظمئي وهو يقول:

- خالك "محمد" يا "دعاء".

فتحت لخالي وقلبي يقفز فرحًا، وتقوقعت في حضنه وهو يربت على ظهري ويدعو لي، أبدى قلقه عندما رآني شاحبة، وسألني عن سبب عرجتي، وتفحّص وجهي بعد أن لاحظ الخط الأحمر الذي بدأ يزداد وضوحًا اليوم بعد الصفعة التي تلقيتها أمس من والد "أميرة".

جلسنا معا وحكيت له ما مررت به بالتفصيل، وانتهينا عند المشكلة التي سببتها لأخي في عمله، وعلمت منه أنه اتصل به وأخبره أنني غضبت وعدت إلى بيت أمي.

كعادة خالي، كان يستمع وينصت بهدوء، ثم يصمت كثيرًا ويتأمل، وربما يأتيني رده الشافي بعد فترة طويلة، ولأنني كنت أعلم هذا

تركته يفكّر وأنا أعلم أن ردّه سيأتيني لاحقًا، وقمت بعد أن تناولنا معا الأرز باللبن واتجهت للنوم، ونمت مبكرا بسبب الإرهاق الشديد ولأول مرة منذ أن فارقت بيت أمي، وعند تمام الساعة الثالثة فجرًا، دقّ جرس الباب ففزعت أنا وخالي وقمنا نركض نحو الباب وسألت وأنا خائفة:

- من بالباب؟

جاءني صوت أخي هذه المرّة، وهو يقول:

- أنا يا "دعاء" افتحي الباب بسرعة.

فتحت الباب ووجدته أمامي بملابسه المبتلة من المطر، فقد كانت الليلة عاصفة وممطرة، نظر إلي بحنان وقبّل رأسي وقال:

- الأستاذ "حمدي السلاموني" بسيارته أمام البناية، جاء وطرق علينا الباب منذ قليل وفوجئت به أمامي وهو يبكي بين يدي!، يبدو أن ابنته حاولت الانتحار.

كتمت صرختي، وأردف قائلا:

- هي بخير وفي المستشفى الحمد لله، وطلبتك بالاسم، فهي تود أن تراك لأنها منهارة، وتشعر بالذنب وتأنيب الضمير؛ لأنها كذبت وكانت سببا في ضرب والدها لك أمامها، وهو يترجّاك أن تسامحيه فقد أخبرته زوجته بكل شيء، ويرجو منك أن تصحبيه الآن لزيارة ابنته وتدعميها نفسيا لأنها حزينة لأنه صفعك.. وخائفة منه لأنه علم بأمر قريبهم اللئيم.

تنقّلت بنظراتي بين عينيه بوجل واندهاش..

ثم أردف أخي يلومني بحنان:

- لماذا لم تخبريني بكل شيء من البداية حتى لا أسيء بك الظن يا أختي؟

أنا أيضًا أب وعندي بنات وأشعر به الآن، هيّا بسرعة ارتدي ملابسك وسأذهب معك.

مسحت دموعي التي سالت، وقلت وأنا أركض:

- سأرتدي ملابسي حالًا.

ارتديت ملابسي وقبل أن أخرج سحبت شالًا لأمي كانت تتدثر به في ليالي الشتاء الباردة وألقيته على كتفيّ، وخرجنا معًا.

كان السيد "حمدي" يجلس في المقعد الأمامي من سيارته الفاخرة التي يقودها ابنه الأكبر"أمير" شقيق "أميرة" والذي يكبرها بعشر سنوات!

ظلّ السيد "حمدي" يكرر الاعتذار لي حتّى أشفقت عليه، وكلّ ما كان يقلقني وقتها هو سبب إقبال "أميرة" على الانتحار، وتساءلت هل فعلا هي تشعر بالذّنب والخوف فقط أم هي أخفت عنّي شيئًا أعمق وأخطر مما عرفته عنها؟، وهل هناك بقايا أسرار؟!

أم هو الانهيار الذي يأتي بعد الضّغط الشّديد!، لا شكّ أنها لم تتحمل فهي لا تملك رصيدًا إيمانيًا يشدّ بعضدها لتحتسب وتتجرع مرارة الصبر وعينها على الآخرة.

وصلنا سريعًا إلى المستشفى، وسرت خلف السيد "حمدي" حتى فتح لي باب الغرفة التي يتوسطها فراش استلقت عليه "أميرة" وقد علّقت لها المحاليل، وخفّضت الإضاءة، وبجوارها أمها بلا زينة ولا تبرج، كدت ألا أعرفها، لولا عيناها وصوتها الذي عرفته.

سألتها بهمس:

- ما الذي حدث؟

أجابت وهي دامعة العين قريحة القلب، وقالت بصوت واهن مالت نبرته إلى البكاء:

- وجدتها ممدة على أرض غرفتها، كجثّة هامدة، كانت شاحبة، ووجهها قد جفّت عليه الدموع، هززتها وناديتها فلم تجبني، صرخت

عندما وقعت عيني على علبة الدواء المهدىء الخالية التي كانت ملقاة على الأرض، وحتى الآن لا أعرف كيف تمكّنت من الحصول عليها!

حملها أخوها وركض بها حافي القدمين، لا أدري كيف قاد السيارة إلى هنا، الحمد لله الذي نجّاها أسعفها الأطباء، وأجروا لها غسيلًا للمعدة.

ثم التفتت إليها وأمسكت يدها وقبلتها وانفجرت باكية.

جلست بجوارهما أتأمل وجه "أميرة" البريء، أشفق عليها مما تعرضت له، وربما كلّ من يدخل بيتهم أو يراها يحسدها وهو لا يعلم أنها فتاة وحيدة مهملة، وكأنها مجرّد تحفة أضافوها إلى ما بالبيت من تحف غالية.

تأملتني أمها، ثم تنهّدت بإعياء وقالت بعد صمت قصير:

- سامحيني لأنني لم أتمكن من الدفاع عنك، "حمدي" شخص عصبي، ولا يسيطر على نفسه عند الغضب، بعد خروجك كانت ليلتنا صعبة أنا و"أميرة"، وظل يحقّق معها لساعات وهي تجيب أسئلته وتبكي

ولم أحب أن أكشف أمر قريبي الذي حاول التحرّش بابنتي في بيتي وخان الأمانة.

نامت في حضني، وقررت أن أغيب عن العمل وتغيب هي أيضًا من المدرسة، وأحاول أن أخفف عنها وأدللها قليلًا وخرجنا فعًلا، ولكن بعد عودتنا جاء "حمدي"،

وأخبرنا أنه نقل أخاك من عمله، وأنه سيتوجه إلى المدرسة ليتم نقلك أو تحويلك للتحقيق ثم حرمانك من وظيفتك بطريقة مهينة، فقد سأل عنك وعرف عنوان بيتك أيضًا.

قاطعتها لأحاول أن أجعلها تتوقف عن الكلام، فقد بدأت "أميرة "تهزّ رأسها، وخفت أن تستيقظ وتسمعنا

لكنها أكملت قائلة في رثاء:

- تركته يتحدث لساعات وهي في غرفتها تسمعنا، تجددت كلّ مشاكلنا وجلسنا نتجادل وعلا الصراخ حتى شعرت أن حلقي يحترق..

وعدنا لما بدأناه حيث الحديث عن ابنتنا وقررت أن أخبره.

سبحان الله، كان كالغول يصرخ أمامي، وظننت أنه سيقتلك لو رآك مرة أخرى، ولم يكسره إلا خبر ابنته وأنا أصف له ما حدث، انهار على الكرسي وتحوّل إلى كائن واهن خائر القوى بطئ التنفس، كانت المرة الأولى التي أراه فيها يبكي، ظل يردد "الحمد لله"، سألني أكثر من مرة إن كان قد فعل بها ما هو أكبر من مجرد التحرّش بيديه، وكنت أطمئنه في كل مرة أنني سألتها جيدًا.

هدأ قليلًا وظل يوجه إليّ الأوامر واحدًا تلو الآخر وأنا أوافق...

(لا عمل بعد اليوم، لا خروج إلا بإذني، ستهتمين بـ "أميرة" فقط والبيت وابنك الذي لا نعلم عنه هو أيضًا شيئًا طوال اليوم، لا يدخل أي مخلوق إلى هنا إلا بعلمي)

وقمت لأناديها فقد أراد أن يطمئنها وقد رجوته ألا يخبرها أنه يعرف لأنها تخاف منه وتخجل، وحتى لا تتأذى مشاعرها أكثر، واتفقنا على استشارة طبيب نفسي أذهب إليه معها، واتجهت إلى غرفتها فوجدتها كما وصفت لك.

فتحت "أميرة" عينيها ونظرت إلي بانكسار، ثم أمسكت يدي وقبضت عليها بوهن، التقت عيناي بعينيها للحظات فابتسمت لها،

ولمحت دمعة تنساب وتشق طريقها خلف أذنيها لتغوص وتختفي في وسادة ليست تلك المرة الأولى التي تهرب إليها دموع الموجوعين.

وعادت للنوم، حاولت برفق أن أحرّك يدها حتى تمكّنت من إدخالها تحت الغطاء لأدفئها، واستدرت موجهة كلامي لأمها وقلت سائلة إياها:

- لا شك أن القلق سبب ما مرّت به "أميرة"، ولكن هل يوجد تاريخ مرضي في العائلة، أقصد أي مرض نفسي؟

تنهدت سهير وقالت وهي ترنو إلى ابنتها في رثاء:

- في عائلتنا؟! لا أظن. ولا أعرف هل يوجد في عائلة "حمدي" من يشكو من "الوسواس القهري" أم لا؟، لكن ما وصفته من أعراض كنت بالفعل قد لاحظته عليها وظننته شيئًا جيدًا.

النظافة الشديدة، وتكرار غسل يديها بالماء والصابون وإن ظلّت طوال النهار تغسلها، والنظام المبالغ فيه بشدة، الاحتفاظ بأشياء كثيرة جدًا أراها بلا فائدة كالأقلام الرصاص الصغيرة جدًا، وعلب الحلوى الفارغة التي كانت تحبها وهي صغيرة وما زالت، وفرش أسنانها القديمة منذ أن كانت في الصف الثالث الابتدائي كلها ما زالت عندها، يبدو أنها تعني لها شيئًا!

فكنت أتركها تحتفظ بها طالما أنها لا تفعل ما يزعجنا.

أحيانًا تقوم من نومها لتتأكد أن باب الشقة مغلقا أكثر من مرة وتعود للنوم، وكنت أظن هذا حرصًا فقط

حتى قلقها الزائد علينا كنت أظنه حبًا شديدًا لنا.

هزت رأسي بثقة وقلت لها:

- ليتكم تزورون الدكتور"أيمن"، وهو سيساعدها إن شاء الله.

هزّت رأسها موافقة وعدنا ليبتلعنا الصمت في تلك الليلة الباردة.

مرّ يومان لازمتها فيهما نهارًا حتى تعافت وغادرت لبيتها، وكنت أعود ليلًا لبيت أمي حيث بقي خالي "محمد" معي، حلّت مشكلة أخي بكلمة من السيد "حمدي" مرة أخرى ويا للعجب كأنه هو المدير الذى يملك زمام الأمر.، وعاد "جمال" لعمله السابق والحمد لله.

طلب أخي منّي أن أعود لبيته، لكنني فضّلت أن أبقى في بيت أمي، لأنني فعلا أشفقت على زوجة أخي فأنا متطفلة عليهم وأقيّد حرّيتها، ومهما حاولت أن أكون خفيفة فحضوري قيد لها وله، طال الجدال وأنهاه خالي عندما قال أنه سيبقى معي لفترة طويلة، فهو أيضًا يعيش وحده بعد زواج وسفر أولاده جميعا ارتحت كثيرًا، وحمدت الله أن يسّر لي خالًا طيبًا يؤنسني.

في اليوم الثالث اصطحبت "أميرة" ووالديها لعيادة الدكتور"أيمن"، وبالفعل بدأت العلاج

عدت في اليوم الرابع لألتقي بالأستاذة "نوال" مديرة المدرسة، احتسبت لي الأيام الثلاثة أجازة مرضية وسمح لي أخي بالعودة لعملي، سعدت بحدث رائع أدخل عليّ السرور، فالأستاذة "نوال" أصدرت قرارًا بأن تقام دورة لتنوير البنات عن كيفية مواجهة التحرش، وتمت دعوة أسماء لامعة، للحضور إلى المدرسة، لتقديم لقاءات منظّمة للطالبات، يشرح فيها كيف تتفادى الفتاة "التحرش الجنسي"، جسديًا أو لفظيًا

وكيف تحمي نفسها، وتتجنب الأماكن والأسباب التي تؤدي لتعرّضها

له، مع التنبيه على ضرورة إخبار الأهل عندما تتعرض أي فتاة لتحرش من أحد أقاربها أو معلّم فاسد أو طبيب غير أمين أو أي شخص تضطرّ للتعامل معه بأي حال من الأحوال، إلى آخر تلك الأمور..

عدت إلى البيت وكلّي إعجاب بشخصية الأستاذة "نوال"، وكيف تحاول نفع طالبات المدرسة بأي طريقة ممكنة، وكنت ممتنّة لها لدعمها لي ووقوفها أمام الأستاذة "سعاد" التي أشاعت في المدرسة أنني أفتّش أغراض الآخرين، حتى باتت المعلمات تتفحّصن حقّائبهنّ أحيانًا عندما أجتمع مع بعضهنّ مما جرحني بعمق وأشعرني بالإهانة البالغة وآلمني كثيرًا، كانت طبيعتي تغلب عليّ، ما زلت متحفّظة مع الجميع، ولا أحد يعرف عن خصوصياتي أي شيء، حتى أنني لم أتخذ صديقة مقرّبة من المعلمات لتجلس معي في غرفتي وتتناول معي الفطور ونصنع معا كوبين من الشاي الساخن، ونجلس لنتبادل أطراف الحديث الأنثوي الناعم، ونثرثر كثيرًا كعادة المعلمات والاختصاصيات في المدرسة.

وشعرت بوحدة وانعزالية تامة وسيطر عليّ شعور المنبوذين وجرحنى هذا بشدة فى البداية، لكنني قررت ألا ألتفت لرأي أحد فيّ، طالما لم أخطىء، وخاصّة الأستاذة "سعاد" وعصابتها الثّلاثية.

❊ ❊ ❊

22

كان البرد شديدًا في تلك الليلة، جلست بجوار خالي أحتضن كوب الشاي بيديّ لأستمد منه بعض الدّفء، وكنت أختبىء في شال أمي، رأيته يتابع نشرة الأخبار باهتمام شديد.

قرّرت أن أنتظر حتى تنتهي لأطرح عليه السؤال الذي سألتني إياه "أسماء"، تلك الطالبة التي أخبرتنا ببساطة، أن كل أحلام اليقظة حرام، وأنها سيئات تغضب الله، قلت له وهو يضغط على زرّ التلفاز ليطفئه:

- خالي، وددت أن أسألك سؤالًا، بما أنك درست شريعة، وقرأت كثيرًا من الكتب.

أجابني وهو يجلس بجواري بهدوء:

- خيرًا يا "دعاء"؟

تناولت رشفة من كوب الشاي وسألته بخجل:

- هل أحلام اليقظة حرام؟

رفع رأسه ودار بعينيه في الغرفة وقال:

- أحلام اليقظة أمر طبيعي، وفي فترة الشباب تزيد، ووجودها علامة صحية، أما الكثير والمبالغ فيه منها يحتاج إلى نوع من المقاومة، لأنها من الممكن أن تضيع عمرك كله في كلام فارغ، أو أحلام في الهواء.

وحرّك خالي أصابعه في الهواء، ثم نفض كفّيه وأكمل:

- سراب، وهم، فراغ، لا شيء!

لا تجلب منفعة دنيوية ملموسة، ولا دينية، مجرد لذّة وقتية!

حاولت أن أستوضح أكثر لأني بالفعل أدرك كل هذا، وكان هدفي حكمها فسألت مرة أخرى:

- هي إذًا ليست حرامًا؟

أكمل خالي وهي يشير إلىّ بيده أن أتمهل لأنه لم يكمل بعد:

- العلماء والعباقرة، والمخترعون بدأت عبقريتهم بحلم، وحدث إدراك بصورة مستقبلية في العقل بطريقة ما، فآمن به وعمل على تحقيقه، ثم تحول إلى واقع، وعملوا شيئًا نافعا للناس.

والإيمان يا ابنتي يحتاج إلى خيال، لنرى الآخرة، ويوم القيامة، والجنة، والنار، والحساب، لولا الخيال هنا ما اشتقنا للجنة وللقاء الله عزّ وجلّ.

عدت أسأله لأرتاح:

- ولو حلمت بفارس أحلامي؟

أجابني بعد صمت طويل:

- هذا نوع من حديث النفس، والخطر فيها هو تضييع الوقت بدون أية فائدة، أي لو ضاعت صلاتك بسبب أحلامك أو كان من الممكن أن تستغلي هذا الوقت في شيء نافع كقراءة القرآن، أو القراءة النافعة، أو التركيز على التميز العلمي، وتنمية العلاقات الاجتماعية مع أفراد أسرتك وأقاربك، فهي هنا تعطلك وبها خطورة وأثر سلبي.

أما كونها حرامًا أو حلالًا، النبي- ﷺ – قال: (لا يؤاخذكم الله بما حدثتم به أنفسكم).

وهذا نوع من حديث النفس، فليس فيها شيء من ناحية الحرمة لو كنت تتخيلين مباحًا، ولكن كما قلنا خطرها أنها تشغلك عن ذكر الله تعالى، وعن الصلاة والأخطر عندما يحدث ما يترتب عليها من قول أو عمل يغضب الله.

كإنسان يثير نفسه مثلا بالأحلام الشهوانية، ويرتكب بعدها معصية حرام، أي ترتب عليها تصديق بجوارح أخرى ووقع في الحرام، لابد أن يقاومها قدر المستطاع.

ران عليّ صمت للحظات، فقد أجابني خالي بالفعل، ووجدته يكمل كلامه وكأنه قرأ أفكاري:

- ما أنت فيه يا "دعاء" نوع من أنواع التلبيس، أنت تنسجين من خيالك فارس أحلام، شابًا كامل الأوصاف تحبّينه ويحبّك، ويحصل بينك وبينه ما يحدث في الحياة العادية من المحبة والمودة، والقرب والبعد والخلاف، وهذا في الغالب يكون متناسبا مع سنك، ولكن نصيحة وخذيها من خالك، لا تستمري في تلك الأحلام، لأنها ستؤثر على علاقتك بربك، أنتِ تشعرين بأنك تعيشين داخل نفسك حياة وردية، حلوة، مغرية، خالية من المشاكل، والحلاوة مغرية وستنسيك ما حولك، وستصدمين عندما تعودين إلى الواقع لتكتشفي ضياع ساعات طوال بلا فائدة...

لأنك ستدركين حجم الفجوة بين أحلامك وبين ما تستطيعين تحقيقه فى الواقع، فالأحلام تتقاطع مع الواقع أحيانًا وأحيانًا أخرى تتوازى معه فلا يلتقيان أبدًا...

لا مانع من وجود أحلام اليقظة، ولكن لا بد من وضع حدّ لها، ولتتحكمي أنت فيها، اضبطيها كما تضبطين الملح في طعامك، والسكر في فنجان قهوتك.

قاطعته وقلت:

- وكيف أضع تلك الحدود وأنا لا أنتبه لها إلا وأنا غارقة فيها، هي تأتيني وحدها، وخاصة قبل النوم بقليل وقد تمكث لساعات، ومن الممكن أن أقضي وقتا طويلًا في تخيّل موقف بحواراته.

هز خالي إصبعه في الهواء وكأنه يضغط زرا وقال:

- لا يوجد زر لتضغطي عليه فتتوقف أحلام اليقظة، ولكن من الممكن أن تقاوميها لتتحكمي أنت فيها

اقرئي قبل نومك كتابا أو رواية هادفة لتقوية لغتك العربية، استمعي إلى أي شيء مفيد مسجل على حاسوبك أو هاتفك الجوال، لقد صارت المعلومة الآن أسهل لجيلكم، مصورة أو مسموعة أو مقروءة، أما نحن فلم يكن أمامنا إلا الكتب والمذياع، وكان للخيال دور كبير، فكنا نستمع ونتخيل، في الحقيقة كنا نسمع أكثر مما نتكلّم، أما جيلكم فيتحدث كثيرًا.

توضئي قبل نومك واذكري الله حتى يغلبك النّعاس، ستشعرين براحة وسكينة إن شاء الله.

ثم قال وهو يمسّد لحيته البيضاء:

- أما من تأكلهم الأحلام أكلا، وتنهش في نفوسهم المتعبة، ولا يفرّقون بين الخيال والواقع، ويختلط الأمر عليهم، فهؤلاء مرضى، يحتاجون العلاج والشفاء، وهو ابتلاء، أسأل الله أن يشفي كلّ مريض وأن يحفظك يا ابنتي.

تذكّرت هنا رقم الهاتف الذي أعطاني إياه الدكتور "أيمن" وقلت لخالي:

- خالي.. هناك مستشفى يسمى مستشفى "السلام"، كان الدكتور"أيمن" الطبيب النفسي الذي يعالج "أميرة" قد أخبرني أن فيه هناك حالات

مميّزة، ومن الممكن أن تفيدني في رسالة الماجستير عن تأثير أحلام اليقظة والخيال على حياتنا، هل من الممكن أن ترافقني يوم السبت، أي بعد غد إن شاء الله؟

ابتسم خالي وقال بثقة:

- طبعًا، وكيف أرفض الأجر والثواب، عيادة مريض، وإدخال السرور على مسلم بإذن الله، ولكن عندي شرط.

قلت ضاحكة:

- أوامرك يا خالي..

قال بجديّة:

- "أحمد" يود الحديث معك هنا، وطلب مني أن يأتي غدًا، فهل من الممكن أن يتناول معنا الغذاء، أم أنّك لا تجيدين الطبخ؟

أجبته بعد تفكير للحظات:

- فلننه إذًا هذا الموضوع، دعه يأتي، وسأطبخ وستندمون.

ضحك خالي، وقام ليتّصل بـ "أحمد"، حيث سيلاقيه في المسجد القريب من بيت أمي، ويعودان معًا بعد صلاة الجمعة غدًا، وقررت أن أحاول أن أغلق أمام "أحمد" الباب خلال زيارته في اليوم التالي.

عاد خالي وأمسك رأسي وقبّلها ونظر إلى عيني وقال:

- أسأل الله أن يحفظك ويرزقك الزوج الصالح الذي يكون لك سكنا ومودة ورحمة.

وابتسمنا معًا عندما تذكرنا "مودة" و "رحمة" بنات أخي "جمال"، فقد اشتقت إليهما كثيرًا.

❊ ❊ ❊

23

برزت الشمس من خدرها وأخذت تنفض بيدها غبار الظلام عن وجه الأرض، استيقظت بنشاط، لم تكن المرة الأولى التي أعدّ فيها الطعام وحدي، لكنني شعرت أنني مرتبكة، اضطررت إلى النزول إلى السوق القريب من البيت لأشتري بعض الخضروات.

تذكّرت كل نصائح أمي التي كانت تقولها لي وأنا أستعد للذهاب إلى السوق، وفي كل مرة تلاحقني على الدرج وتطلب شيئًا نسيت أن تكتبه في قائمة المشتريات، اشتريت وكأنّي أحضر لها ما تطلبه لأطهوه معها.

عدت وأنا متحمسة، ودخلت المطبخ، ووقفت أدور حول نفسي، استيقظ خالي وضحك عندما رآني أجلس على أرض المطبخ، أراد أن يساعدني لكنني أبيت.

مر الوقت وخرج خالي لصلاة الجمعة، وبدأ السباق مع الوقت.

أنهيت الطعام، وصلّيت ثم عدت أرتّب المائدة، كنت بارعة في إعداد السلطات وتزيين الموائد.

عادا سريعًا، وكنت فخورة جدًا بنفسي، وأنا أقف كطبّاخة ماهرة، وأضع راحتي يديّ على خصري، وأتأمل شكل المائدة التي رتبتها بمهارة، دعوتهم أخيرًا للطعام وجلست أنتظر المدح.

لكنني اكتشفت أن الأرز كان يحتاج للمزيد من الماء لينضج جيدًا، وأظن أنني بالغت في إضافة الفلفل الأسود لطاجن الخضراوات مما جعل "أحمد" يسعل كثيرًا ويطلب الماء، وليتني انتبهت للدجاج قبل أن يحترق...أما السلطات فكانت رائعة.

المهم، تناولنا الطعام، وأضحكتني تعليقات خالي على الطعام، وقفشات "أحمد" التي انتزعت الابتسامة من فمي، وكان السبب طعامي اللذيذ طبعًا.

مرّ بنا الوقت، ووجدتني أجلس أمام "أحمد"، وفي يده كوب الشاي الساخن، وخالي يغادرنا حاملًا كوبه ليجلس أمامنا بعيدًا أمام التلفاز، يرانا ولكنه لا يسمعنا.

التفت"أحمد"إليّ وقال وهو يبتسم:

- أتعبناكِ اليوم.

أجبته وأنا أتذكّر وجهه وهو يحاول ابتلاع الأرز بصعوبة وقلت:

- في المرّة القادمة إن شاء الله سيكون الطعام أفضل.

أشرق وجهه بابتسامة واسعة وقال:

- إذًا سيكون هناك مرّة قادمة إن شاء الله؟

فهمت ما يرمي إليه فقلت موضّحة:

- أنا أقصد الطعام وليس أي شيء آخر.

وضع كوب الشاي ونظر إليّ بجديّة، وقال:

- لن أسألك عن سبب رفضك لي فجأة؟ لأن السبب الذي وصلني غير مقنع بالنسبة لي.

قاطعته بتبرّم:

- لكنه سبب مقنع بالنسبة لي!

أردف قائلا:

- دعيني أكمل، أعلم أن لديك مواصفات محددة تتمنينها في زوجك، كما كانت لي مواصفات أحلم بها ووجدت معظمها فيكِ، فهل يا ترى تلك المواصفات التي لم تجدينها في "أحمد" الجالس أمامك الآن من الممكن أن تتنازلي عنها إن أحسست أن هناك مواصفات أخرى ترضيك فيه، وتساعديني ولنتعاون حتى أسعدك وأرضيك وتكمليني وأكملك، ونكون روحًا واحدة كمالها في اجتماعنا معنا؟

ران عليّ صمت للحظات، فقد كنت أتوقع أن يسألني "لماذا رفضتِني"، وعن أسبابي، ثم يبدأ في انتقادها بعد أن أخبره بها.

فكّرت قليلًا ثم قلت له بوضوح:

- أخاف أن أندم، أنت غالب ما فيك من صفات تتمناها الفتاة في زوجها، لكنني كنت أتخيل نفسي في حياتي مع شخصية بصفات معينة، وددت أن يكون البيت الذي سأقيمه مع زوجي بيتًا على أسس وقواعد صحيحة وسليمة، أنا أفكر في أولادي إن شاء الله وليس في نفسي فقط.

فرك يديه بعصبية وسألني بنبرة صوت منخفضة عن تلك التي بدأ بها كلامه معي:

- هل هناك شخص آخر تنتظرينه؟ أنا من الممكن أن أنسحب بهدوء، ولن أضغط عليك أو أسبب لك أي حرج..

أغضبني سؤاله وقلت بعصبية:

- طبعًا لا يوجد، أنا لست من هذا النوع من الفتيات!

أشار بيده لأخفض صوتي الذي لاحظت أنه ارتفع عندما التفت خالي فجأة، وقال:

- آسف، لا أقصد، فأنا وكما هو واضح أفرض نفسي عليك، وأطاردك وربما هذا لأنك....غالية عليّ ولك مكانة خاصّة، وفكرت أنه قد يكون هناك شاب آخر قد وعدك أن يخطبك في المستقبل بصورة رسمية، وأنك تنتظرينه لظروف مثلا تعيقه في الوقت الراهن، أو...

قاطعته وقد بدأت أشعر أن وجهي سيحترق خجلا وقلت:

- فعلًا لا يوجد أيّ شخص، أنا التي رفضتك بكامل إرادتي دون أي مؤثّرات خارجية على قراري

فأنا أرفض أن أستغلّ مشاعرك وأنا لا أشعر بك، وأعتذر لصراحتي، لكنني فعلا شعرت بفتور رهيب.

قال بصوت مرتبك:

- إذًا أنت لم ترفضيني فقط لأنك تريدين زوجا كامل التدين، بل أنت أيضًا لم تتحرّك مشاعرك تجاهي.

هززت رأسي موافقة فقال بصوت هادىء:

-"دعاء" غالبًا عندما أحدثك لا تنظرين إليّ إطلاقًا، ولا أذكر أنك نظرتي في عيني لنصف دقيقة كاملة، عيناك دائمًا تهرب من عيني، حتى يوم خطبتنا، كنت أنا فقط من ينظر إلى عينيك، كنت أود أن تري نفسك في عينيّ، لكنك منعت نفسك، وحرمتِني أيضًا من رؤية نفسي في عينيك، أرجوك ارفعي عينيك وانظري إلى عينيّ مباشرة، نصف دقيقة فقط...نصف دقيقة بلا كلام.

أجبته وقد ارتبكت قليلًا:

-حسنا، هأنذا أنظر إليك

حاولت جاهدة أن أرفع عيني وأنظر إلى عينيه، لكنني لم أتمكّن من إطالة النظر إلي عينيه، و كل ما استطعته، هو خطف نظرة سريعة، حيث أننى لم أعتد على هذا..،

لاحظ ارتباكي وأردف قائلًا:

- ما زلتِ تهربين، يبدو أنك لا تتقبلين الأمر.

حتى لو "نصف دقيقة" لتتخذي بعدها قرارك!

عامة، هذا ما أردت إثباته لنفسى ولك.. وقد نجحت، أنت ترفضين النظر إلىّ تمامًا رغم أن هذا من حقك، ولا أدرى لماذا؟!!

ولكنّى أعلم أنك بهذا قد حكمت عليّ حكما سطحيًا؛ لأنك لو نظرت إليّ لربما كنت ستلمسين صدقًا في الحديث والوعود بما يمكن أن يطمئنك أو يشرح صدرك وتشعرين بالقبول...

ولكنك كمن يرفض أن يفتح الباب من الأساس...

عموما لن أضغط عليك أكثر من ذلك، فقد مرّت النصف دقيقة وما زلت غائبًا عنك رغم حضوري أمامك.

تنهّد، وقال بصوت تخالطه رنّة الحزن ورعدة الألم:

- هناك أشياء نحتاجها، وأشياء نتمناها، وفي النهاية لا يأتينا إلا ما يرضاه الله لنا، وفي المنع منه كل العطاء، الحمد لله.

وقام بعد أن استأذنني، وحيّاني تحيّة وجيزة وحرك رأسه بأدب، ووضع يده على صدره، وكأنه فارس نبيل ينسحب بشرف من مبارزة

اختار أن يخسرها إكرامًا لي..

سلّم على خالي، وخرج وأنا أشعر بارتباك شديد، لا أدري لماذا أوجعني وداعه هذه المرّة...

ظلّ خالي يسألني بعد انصراف "أحمد" عن رأيي، وأنا أكرّر بصوت واهن:

- لا أدري يا خالي، لا أدري.

ربّت خالي على كتفي، وقال بصوت واثق:

- أسأل الله أن يلهمك رشدك.

تذكرت عندها الرؤيا الثانية التي كتبتها لي الفتاة الغامضة في رسالتها، ورأيتها الآن تتحقق.

"رأيتك ترتدين فستانا بلون السماء، تنحدر منه حبّات اللؤلؤ، وشاب ينحني ليجمعها في كفّه ويعطيها لك، ثم تبعثرينها مرة أخرى."

مرّت الليلة ثقيلة على نفسي، حتى برودتها القارصة لم تخفف من النار التي اشتعلت في صدري، ازدحمت رأسي بالأفكار، وامتلأت بالهموم، لا أدري لماذا كنت حزينة وأنا صاحبة القرار برفضه!

تأكّدت أنه لن يعود مرة أخرى، صلّيت ودعوت له، وانتزعت نفسي من أفكاري، وحاولت أن أنام..

❊ ❊ ❊

24

استيقظت على جرس هاتفي الجوال، كنت قد أرسلت رسالة على رقم الدكتور "طارق حلمى" صديق الدكتور أيمن والذى أعطانى إياه بنفسه.

وعرّفته فيها بنفسي وأنني من طرف الدكتور"أيمن"، وأنه نصحني أن أتابع حالات تعالج في مستشفى "السلام"، والتي أخبرني أنها ستفيدني في دراستي ورسالة الماجستير التي عزمت على تقديم أوراقها.

أمسكت بالهاتف وقلت بصوت كسول:

- السلام عليكم..

جاءني صوت شاب قال وكأنّه يعرفني:

- "دعاء"؟ هل ما زلت نائمة حتى الآن!

تعجّبت منه! وأزحت الهاتف عن أذني لأتأكد من المتصل مرّة أخرى، وعندما قرأت الاسم الذي كنت قد أضفته لقائمتي سابقا للمرّة الثانية تأكّدت أنه هو!

فقلت بصوت معتدل:

- الدكتور "طارق"؟

قال مازحًا:

- نعم أنا، بشحمي ولحمي...أنت "دعاء" أليس كذلك؟!

أجبت موافقة فأردف قائلا بكلمات إيقاعها سريع:

- بالنسبة لحالة "فيروز" تفضّلي اليوم بعد الساعة الواحدة وحتى المغرب، هذا الوقت مناسب جدًا بالنسبة لي، هي موجودة معنا لبضعة أيّام وستخرج، لأنها تخرج وتعود حسب حالتها.

شكرته، وحاولت أن أكون جادّة في كل كلمة؛ فقد أحسست أنه يرفع الكلفة بيني وبينه، ويحدّثني بكل بساطة!

وقمت لأبلغ خالي الذي اعتذر بعد أن جاءته مكالمة من أحد أقاربه الذي مرض فجأة

ولا بد أن يسافر ليعوده في إحدى المستشفيات؛ حيث قرر الأطباء حجزه لأيام هناك؛ حتى تستقر حالته

ووعدني خالي أن يعود من سفره سريعًا قدر استطاعته.

كان لقائي بـ "أحمد" وحواري معه ما يزال يشغلني...

قررت ألا أذهب وحدي إلى مستشفى السلام، وجلست أمام التلفاز لساعات حتى شعرت بملل شديد

وقبل المغرب بنصف ساعة قررت فجأة أن أسرع وأذهب لعلّ تلك الزيارة السريعة تجيب عمّا يجول برأسي من أسئلة وتتفتح آفاقي وأدرك شيئًا جديدًا.

خرجت من بيتي وقد خلت الشوارع من المارة وكنا قبيل المغرب، حيث كان الطقس شديد البرودة، والرياح قويّة، والسماء مكتظّة بالسحب، وكأنها تتألّم من جراحها، وما هذه السحب إلا قطن يضمّد تلك الجراح!

وتوشك أن تنزف بشدة لتسيل أمطارها الغزيرة فتخفف عنها بعض الألم، ثم تعود للسكون!

ارتديت معطفًا أزرق ثقيلًا، وحجابًا أبيض عليه نقوش خفيفة زرقاء،

وحذاء مناسبا رقبته عالية، واصطحبت مظلّتي، ورفعت حقيبتي على كتفي وتشبثت بها.

أوقفت سيارة أجرة، وأخبرت السائق بوجهتي، فقال بصوت متحشرج:

- هذا المكان بعيد يا آنسة، وتلك المنطقة هادئة وتقريبًا مهجورة، لماذا ستذهبين إلى هناك في هذا الوقت؟

كما أنني عادة لا أذهب إلى تلك المنطقة فالعودة منها تكون بخسارة.

فأنا أقلّ راكبا إلى هناك ثم أضطر إلى العودة خاليًا بلا راكب ولا أجرة في وقت ربما أقلّ فيه سبعة من الركاب حولنا هنا...

كدت أتراجع، لكنني لم أحبّ أن أعود للبيت مرة أخرى وأجلس وحدي، أخبرته أنني سأضاعف له الأجرة، فوافق على الفور!

بعد ثلث الساعة كنت أقف أمام بوابة مستشفى" السلام"، وأظهر بطاقتي الشّخصية للحارس الذي يجلس على البوابة بملابسه الزرقاء المميزة.

سمح لي بالدخول بعد أن أخبرني أن مكتب الدكتور "طارق" في الطابق الثاني وقفت أمام المصعد وضغطت على الزرّ لكي أستدعيه، رأيت شابًا أنيقًا طويل القامة يرتدي معطفًا أبيض يقترب وفي يده كوب من القهوة الساخنة، رائحتها المميزة منبعثة بقوّة حتى سبقته بأمتار وقد وصلت لأنفي دون استئذان..

كان يسير بحرص حتى لا تنسكب، وأخيرًا وقف بجانبي، حيّاني بأدب فرددت باقتضاب، وعندما وصل المصعد دخلت فدخل خلفي فخرجت فورًا، وتركته يصعد به وقد رماني بنظرة تعجّب واستردها سريعًا، ثم لمحت ابتسامة ساخرة قبل أن ينغلق باب المصعد ليفصل بيننا، لم

أحب أن أكون مع شاب غريب في مصعد وحدنا، رأيتها خلوة لا ينبغي أن أضع نفسي فيها، وأظنها لا تجوز، ماذا لو تعطل المصعد بنا!

ضغطت على زر المصعد مرة أخرى، وصعدت للدور الثاني، وسرت بهدوء في الممرات الطويلة حتى لا أزعج المرضى بعد أن لاحظت أن حذائي يصدر صوتًا يشبه القرع المكتوم على الطبول قبل الحرب وخاصة أن خطواتي سريعة..

كان المستشفى أنيقًا وراقيًا ونظيفًا، أعجبتني اللوحات المشرقة المعلقة على جدران صالة الاستقبال الزهرية اللون، كما أعجبتني رائحة العطور المنتشرة في كل مكان، لا بد أن تكاليف العلاج هنا باهظة جدًا، خرجت أمامي من إحدى الغرف فجأة ممرضة لطيفة، سألتها بهمس:

- أين مكتب دكتور "طارق حلمي"؟

أشارت وهي تبتسم على باب مفتوح وقالت:

- يجلس مع مريض في غرفة رقم تسعة.

اتجهت إلى الغرفة التي أشارت إليها الممرضة، واقتربت لأجد أمامي الشاب الذي التقيته عند المصعد بمعطفه الأبيض، يجلس على الفراش الذي يتوسط الغرفة، أمامه شاب آخر جلس واهنًا بقميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه موجًا، وعلى عينيه نظّارة رقيقة إطارها باهت، يبدو شعر رأسه الناعم المنمّق وكأنه قد أغرقته المياه للتوّ، وقد كست عينيه نظرة حالمة منكسرة، كان يحتضن كوب القهوة بيديه ويتحدث بصوت خافت مع طبيبه، طرقت الباب بهدوء فالتفت إليّ الطبيب وقال:

- مرحبا آنسة"دعاء" أعرفك بـ "حسام" الفنّان

اقتربت بعد أن لاحظت الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على

وجه الشاب الجالس على الفراش لتبرز آثار الوهن والضعف على قسمات وجهه، وقلت بصوت أخرجته بصعوبة:

- السّلام عليكم

أجاباني معا في صوت واحد:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

وبدأ "طارق" يتحدث وكأنني لست بغريبة عنه ولا عن "حسام"، وأكمل حواره معه قائلًا:

- هل قمت برسم لوحة جديدة؟

أجاب "حسام" ببهجة لطيفة:

- نعم، الكثير من اللوحات، عندما تتحسن حالتي وأعود إلى البيت سأقيم معرضا للوحاتي وسأدعوك يا دكتور "طارق".

ثم التفت إليّ بجسده الواهن وبعينينه الغائرتين في جمجمته وقال بودّ:

- وأنت أيضًا يا آنسة "دعاء" أنت مدعوة لمعرضي الذي سأقيمه.

ابتسمت له وقد تعجبت من تلقائيتهما معي وكأنهما يعرفاني من قبل وقلت:

- إن شاء الله

قام الدكتور "طارق" الذي كان قد أعدّ كوب القهوة هذا لمريضه "حسام"

واستأذن بلطف منه وخرجنا معا من الغرفة.

❊ ❊ ❊

25

"طارق"

لم أشعر بالحرج عندما خرجت تلك الفتاة الرقيقة من المصعد الذي استقللته في المستشفى التي أعمل بها، والتي عرفت بعد قليل أنها "دعاء"، ولكنني كنت مشغولًا بالتفكير في السبب، هل خافت مني؟!

لا أستطيع أن أحصي عدد المرّات الكثيرة التي أغلق فيها باب المصعد علي أنا وأنثى لا أعرفها، بعضهن فاتنات، وبعضهن في عمر أمي، والكثير من الممرضات بأعمار وأشكال متفاوتة، ونحن نتنقَّل من طابق لآخر، والكثيرات من النساء والبنات الفاتنات بعطورهن التي تدير الرأس، وبملابسهن الفاخرة.

ومعروف عن المستشفى هنا أنها تستقبل أصحاب المقام الرفيع نظرا لارتفاع تكاليف العلاج فيها، ولم أكن لالتفت لأي واحدة منهن، فقد كانت كلمات أمّي تتردد في نفسي، وهي تحذّرني من النساء وفتنتهن حتى أنني أصبحت أصدّهن وكأنّهنّ أعداء لي.

وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تفرّ فيها أنثى من المصعد الذي شاركتها فيه!

يبدو أنها خافت مني، أو ربما تعرّضت للأذى من أحد الحمقى من قبل في أحد المصاعد فأصابها الرّهاب.

كنت أحمل كوب القهوة لـ "حسام" أحد مرضاي الذين أتابعهم

هنا بالمستشفى، فقد أخبرني أنه يشتاق إلى القهوة.

شاب رائع في الثالثة والعشرين من عمره، لولا تلك الضلالات النفسية التي تفقده السيطرة على حياته لكان الآن زوجا لفتاة رائعة.

لا أدري لماذا أشعر تجاهه بالمسئولية؛ ربما لأنني أعلم أنه يتيم منذ صغره ولا يرعاه أحد بعد زواج شقيقته الكبري التي كانت تعتني به!

ولولا أن شقيقته الصغري تسكن معه في نفس البناية لمات منزويًا ووحيدًا في أحد أركان شقته الفاخرة

دون أن يعلم بحاله مخلوق.

لولا ثراؤه الفاحش لكان تائهًا الآن في شوارع الإسكندرية يتخبّط وينفر الناس منه، وربما يقذفونه بالحجارة.

في كل مرّة ينهار فيها يصحبه زوج شقيقته، ثم تأتي شقيقته بنفسها بعد أسبوعين، وتسدد الفواتير، وتعود به لشقّته الأنيقة التي دعوني إليها في أول مرة التقيت بهم فيها؛ لكي أقنع "حسام" أن يدخل المستشفى للعلاج، وجدته يومها متقوقعًا على أريكة في غرفة مظلمة، أضاءتها أخته بضوء خفيف ونحن نترقّب رد فعله، فالتقت عيناي بعينيه، وبدأت معرفتي به.

لن أنسى أبدا نظرة الألم الملتاعة في عينيه والتي مزّقت فؤادي، ولن أنسى تلك اللوحات التي رأيتها حوله وكأنها أفراد عائلته، والتي أخبرني أن لكل واحدة من تلك اللوحات قصة خاصة، فوجدته وكأنه يعيش فيها قصصا قصيرة نهاياتها سعيدة، بين ألوانه التي يخلطها بخياله وأحيانًا بمسحة ألم فيبدع؛ حتى ينهار فجأة لأنه أوقف العلاج.

في كل مرة كنت أنبّه على شقيقته أنه لا بد أن ينتظم "حسام"

في علاجه وألا يقطع أبدا الدواء، وأنّ قطعه فجأة يؤدي لسوء حالته، لكنه يعود إلينا بعد شهر لنفس السبب!

تشغلها الدنيا عنه، فينسى الدواء، وأحيانًا يرفضه عندما يقتنع أنه قد شفي تمامًا.

كانت زيارة "دعاء" للمستشفى نقطة تحول في حياتي، فأول لقاء بها لفت نظري أن هناك رسائل تأتينا أحيانًا فجأة لتلفت أنظارنا لأشياء ثمينة وجميلة بين أيدينا، لكننا لا ندرك قيمتها، وإن فتحنا مداركنا لتلك الرسائل واستوعبناها بتعقّل، لن تتفلّت من بين أيدينا تلك الأشياء الجميلة، كما تتفّلت وتهرب الرمال من بين أصابعنا...

كنت على علم سابق من الدكتور"أيمن" أن "دعاء" تحتاج لنموذج للخيال الإبداعي، لأنها ستعد دراسة موسّعة عن أحلام اليقظة، وعزمت على ترتيب لقاء بينها وبين "فيروز"، فالدكتور "أيمن" كما عهدته دائمًا يشبه البحر...عميق بما لديه من علم غزير، كريم ككرم الموج الذي يقذف الخير ويلقي به على الشاطئ دون أن تطلبه، وأحيانًا يحمل على عاتقه توصيل البعض لبر الأمان

فهو أستاذي وربما كأبي، وأحيانًا صديقي وأخي الأكبر، وكثيرًا قاموسي الطبيّ، أو مخزن أبحاثي.

كانت "دعاء" تسير بجواري، وبدأت فورًا أتحدث معها وكأنني أعرفها، لاحظت أنها كانت تركض لتوافق خطواتي الواسعة والسريعة فهدّأت من مشيتي قليلًا وسألتها:

- لماذا أنت هنا يا "دعاء"؟

بدا لي أنها تضايقت عندما ناديتها بلا كلفة، ولا ألقاب.

فقد حدّقت وهي تنظر أمامها بدهشة، وقالت بضيق لم تفلح في إخفائه:

- أحاول أن أبحث عن حالات مميزة من المرضى هنا، وخاصة من لديهم "خيال إبداعي" كما أخبرني الدكتور "أيمن" فقد أوضّح لي أن هناك خيالًا مرضيًّا، وخيالًا طبيعيًا إن صح التعبير، وخيالًا إبداعيًا عبقريًا ربما سأراه هنا.

توقّفت عن السير والتفت إليها وقلت أنبهها:

- المكان هنا يحتاج إلى شخصيات هادئة، ونفس طويل، ربما تستمعين لحوار طويل مع شخص يزعم أنه نبيّ، وأخرى ترى أن الوحي يأتيها ويتنزّل عليها من السماء، أو شخص مقتنع أنه المهدي المنتظر!

هزّت رأسها بثقة وشدّت قامتها وقالت وقد كست وجهها الجدية التامة:

- أعلم أن هناك أوهامًا وربما هلوسات يصدّقها المريض، لكن ليس هذا ما أقصده، أبحث تحديدا عن الإبداع..أودّ أن أراه.

لاحظت تفاديها النظر إلى وجهي، فأدرت رأسي وسرت أمامها وأنا أقول:

- سنمرّ الآن على "فيروز"، هيا بنا

سارت خلفي حتى نهاية الممر، ودلفنا إلى جناح آخر خاص بالنساء، حييت الممرضة التي استقبلتنا بابتسامة، رفعت صوتي لأعلمها بوجهتنا وقلت:

- غرفة رقم سبعة وعشرين

فقالت بعد أن ابتلعت شيئًا كانت تلوكه في فمها وازدردت ريقها

بصعوبة وقد ظهر كوب الشاي في يدها اليمنى:

- أمها هناك، جاءت منذ ساعة.

هززت رأسي ونظرت إلى "دعاء" وبدأت أعرفها بحالة "فيروز" فقلت ونحن نسير:

- "فيروز" امرأة متزوّجة، في أوّل العقد الثالث من عمرها، التقت بزوجها في الجامعة، درسا معا في كلية الآداب قسم "الأنثروبولوجي"، هل تعرفينه؟

هزّت رأسها ورفعت كتفيها وأجابت بثقة:

- طبعًا أعرفه، هو علم الإنسان والجماعات والحضارات والعادات والتقاليد وما شابه.

عدت لأكمل لها قصة "فيروز":

- بدأت بينهما قصّة حب عميقة، ولأنه يسكن في نفس المنطقة التي تسكن بها، تعددت اللقاءات على الطريق كل يوم إلى الجامعة، كانت دائمًا شاردة، وكان يلاحقها بنظراته، ويدسّ لها بين كتبها أشعاره التي كانت هي مصدر إلهامه ليكتبها، كان يكتبها من أجلها هي فقط، لتقرأها هي فقط، ولتسعدها هي فقط، لأنه يحبها هي فقط، كما أخبرني، أحبّها كثيرًا وصارع طواحين الهواء من أجلها.

استوقفتني "دعاء" وسألتني وقد أطلّ الفضول من عينيها:

- هل كان يعلم بمرضها قبل أن يتزوجها؟

أكملت ملبّيا فضولها:

- كان يعلم من البداية أنها تعاني وتحتاج إلى علاج نفسي، وأصرّ على الزواج منها؛ لأنه أحبها بشدة وأنجبت له الجميلة " ياسمين"،

والتي هي الآن في الثامنة من عمرها، ربما تلتقين بها،
آية من آيات الله تمشي على الأرض..
التفتت "دعاء" إليّ واحتلت وجهها ابتسامة مشرقة، وبدا لي أنها تحب الأطفال، فأكملت لها القصة:
- وبدأت "فيروز" تنهار أحيانًا، وتنعزل، وتغوص في نفسها ووحدتها، تثور أحيانًا وتبكي بشدة
ثم تعود أحيانًا لحياتها وكأنها لا تشكو أيّ اضطراب نفسي، وقبل أن تتم ابنتها عامها الأول، بدأت وكأنها تغادر الجميع إلى مكان ما في عقلها، وتختبيء فيه، حيث لا يراها أحد.
في الكثير من الأحيان تبدو وكأنها فقدت حاسة السمع والبصر ولا ترى إلا الورقة والقلم فقط، وتبدأ في الكتابة، وتستغرق الكثير من الوقت فيها، وربما تتحدث مع أشخاص رواياتها، والتي تسميها أحلام.
انتقلت أمها للعيش معها لترعاها وصغيرتها، وبعد أن تعددت الدفاتر، وصارت غرفتها ممتلئة بها
وكل دفتر يحوي قصة.
جلست في إحدى المرّات بعد أن حجزناها هنا في المستشفى لتتلقى العلاج المكثف، وقرأت ما تكتبه فوجدت أنها تكتب خيالًا رائعًا، إنها الفانتازيا المبهرة، هل تعرفين ما هي الفانتازيا يا "دعاء"؟
قاطعتني "دعاء" وقالت بتأثّر وهي تحملق في الطريق أمامها:
- طبعًا أعرف، "الفانتازيا" هي نوع من الأدب يعتمد على السحر والأشياء الخارقة للطبيعة كعنصر أساسي لفكرة الرواية أو القصة، والحبكة الروائية تدور في فضاءات وهمية وربما على سطح الكواكب

وهي تختلف عن الخيال العلمي وقصص الرعب.

قلت بإعجاب:

- رائع جدًا، يبدو أنك تحبين القراءة، هل تعلمين أيضًا أن هناك تداخل بين الفانتازيا والخيال العلمي والرعب وأيضًا التراث الشعبي والأساطير والخرافات، وأن هذا ما أبدعت فيه "فيروز".

قاطعتني قائلة:

- إذًا هي خيالية ومبدعة.

هززت رأسي موافقًا ثم أكملت:

- أتعلمين يا "دعاء"؟ أظن كتاباتها لو خرجت للواقع لنافست الروايات العالمية، فقد قرأت البعض منها بالفعل أنا والدكتور "أيمن"، فقط أظنها تحتاج إلي مراجعة من كاتب محترف؛

لأن هناك فجوات أحيانًا بين السطور، ربما يملؤها هو بخبرته.

انعقد حاجبا "دعاء" وسألت بتعجب:

- ولماذا لم تقدِم وأهلها على نشر تلك الروايات؟

أجبتها شارحًا:

- أهلها لا يهتمون، فكل هم أمها وزوجها هو سلامتها فقط، وتعلقهم بها شديد جدًا، وأظنهم ينفقون كل ما يملكونه على علاجها هنا، أحيانًا أشفق عليهم؛ فالتكاليف باهظة.

أذكر مرة قرر زوجها أن ينشرها واتصل فعلًا بدار نشر، لكنها رفضت بشدة أن تلتقي بهم أو حتى أن تعرض أعمالها عليهم، إنها تتعامل مع كتاباتها وكأنها جزء منها، ولو اقترب أحد منها تنزعج

بشدة وتخبئها أحيانًا، وتتخذ موقفا دفاعيا إن اقتربنا منها، لقد صورنا بعضها وهي غائبة عن الوعي لنتمكن من الاطلاع عليها.

وصلنا أخيرًا للغرفة رقم سبعة وعشرين،

وقفت أمام الباب والتفت لـ"دعاء" التي امتلأت عيناها بالفضول وقلت لها:

- ستقابلين الآن شخصية مبهرة لكنها في نظر البعض "مريضة".

قاطعتني بذكاء لتدفعني إلى إبداء رأيي، وقالت:

- وهل أنت كطبيب لا تعتبرها مريضة أو مجنونة؟

أجبتها وأنا أبتسم:

- لا تتوغلي في الطب النفسي، ولا تسأليني عن التشخيص، فلن يهمك معرفته وربما لن تستوعبيه لأنك لست طبيبة نفسية، ولا تقحمي الفلسفة هنا حتى لا تحتاري، هل تظنين يا "دعاء" أن هناك علاجًا للاضطراب النفسي يشفي بدرجة مئة بالمئة؟!، وأنني أنا وأنت وجميعنا أسوياء؟

ووصلنا لهذه الدرجة من الكمال بحيث لا نصف أنفسنا بأننا لا نعاني من أي اضطراب نفسي؟

المجنون حقًا هو من يغيب عقله بقصد منه، فيرتكب الرذيلة ويبدو وكأنه قد تحول إلى كائن آخر حيواني شهواني.. يزني، ويسرق، ويخون، ويسب ويلعن، ويقتل، هذا هو عين الجنون.

غمغمت "دعاء" بصوت خافت وقالت:

- يتركون الحلال ويعصون الله بالنعم التي وهبها لهم!

وهم يعلمون أن كل هذا حرام، وهم بكامل وعيهم،

فعلا جنون.

أكملت بعد أن لاحظت ربطها لكلامي بالحلال والحرام وقلت:

أما هؤلاء ممن يشغلون الغرفات هنا، فهم نفوس غير مطمئنة، تئن من الوجع كما نئن عندما نصاب بصداع قوي، غالبًا يحسّ هؤلاء المرضى أنهم مخطئون رغم أنهم لم يقترفوا ذنبا..

وغالبًا لا يشفون بالكامل.. ولا يختفي الألم بالكامل، بل يبقى كامنًا في الأعماق وربما يطفو من آن لآخر، فيشعرون به وتستمر الحياة...

وستأتي لحظات وتطمئن تلك النفوس بإذن الله.

قالت وقد بدت عليها علامات التأثر:

- عندك حق، لا يوجد إنسان كامل

قلت بصوت رجوت أن تكون نبرته مطمئنة لها:

- مستعدة؟

أجابت وهي تقبض على حقيبتها بقوة، وكأنما تطمئن نفسها وتستجمع رباطة جأش كافية، ثم قالت بصوت صارم:

- نعم مستعدة

دلفنا معا لغرفة "فيروز"، التي كانت تجلس معتدلة على فراشها، وبجوارها على كرسي جلدي كبير جلست أمها وقد أسندت خدّها على كفّها لتبكي حظّ ابنتها العاثر.

❊ ❊ ❊

26

عندما دلفت لغرفة "فيروز"، ظننت أنني سأرى مريضة منكوشة الشعر، ممزقة الملابس، تصرخ، واللعاب يسيل من فمها، تخاطبني بعبارات غير مفهومة.

وربما تضحك بهستيرية، لكنني وجدتها وعلى وجهها بقايا مسحة من الجمال الباهت غير اللافت للنظر بحجاب رمادي، وعلى كتفيها شال من الصوف الأبيض، وقد جلست معتدلة على فراشها كالطفل الصغير الذي انتهى للتو من بكاء شديد، فمسحت أمه وجهه بالماء، وألبسته ثيابا نظيفة، وربتت عليه وبقي ساكنًا، هذا السكون الذي يعقب بعض الأوجاع، والذي يكون هو أشد اللحظات هدوءًا حيث تكون هناك هيبة....

بدت وقد أحدق بها الهم، وعضها المرض، فالتوى عليها سبيل الهناء، ابتسمت لها وحييتها، أطالت النظر نحوي، وظهرت على وجهها علامات الاستغراب، وكأنها تستنكر وجودي، أشارت إليّ وسألت الدكتور "طارق":

- من هي؟

أجابها بهدوء:

- الآنسة "دعاء" تود إعداد بحث عن الخيال وأحلام اليقظة، واقترحت عليها أن تلتقي بك، عقدت حاجبيها بشدة وكأنها تمسك

بروحها المضطربة بينهما، وقالت بضيق وهي تهز رأسها:

- لا، لا، لا أريد أن أتحدث معها.

شعرت بالارتباك، وقمت بعد أن اعتذرت وكدت أغادر الغرفة لولا أنها سألتني بصوتها الذي تصحبه بحة خفيفة وقالت:

- لماذا أنت هنا؟

ابتسمت بعد أن مررت سريعا بوجه الدكتور"طارق" الذي كان قد سألني نفس سؤالها منذ قليل وقلت:

- تشغلني أحلام اليقظة، وأود أن أعرف عنها المزيد.

ضحكت ضحكة ممزقة حزينة وقالت:

- هي شعور جميل كلما ترتشفين منه ستزدادين عطشًا

صمتت برهة وأنا عاجزة عن التفوه بحرف وأخيرًا قالت بخفوت:

- لو غادرتني أحلام اليقظة دون أن أدونها لن يكون بالإمكان أن أمسكها مرة أخرى، أدركت هنا سبب شغفها بالكتابة، فهي تشعر بالأمان عندما تدون أحلامها.

التفت إلى الدكتور "طارق" ووجدته يقفز على منضدة منزوية ويجلس عليها، ثم يستند بظهره على الحائط، ويربع ذراعيه ليتأملها وهي تتحدث إليّ، فعدت واقتربت منها أكثر، وسألتها:

- وهل عندما تكتبينها تشعرين أنك وصلت إليها؟

أدارت رأسها إلىّ، وبنظرات غريبة نظرت في عيني بعمق ثم ابتعدت بنظراتها وحملقت في الغطاء الذي كان يغطي ساقيها وقالت بصوت واهن وكأنه ينحدر حتى يخفت:

- لم أكن أعرف بأنني سأصبح مولعة بما كنت أعتبره هواية بسيطة في بداية حياتي، كانت الكتابة هوايتي، وصرت أدمنها.

أسرعت أسألها وقد خفت أن تقطع الحوار فجأة، فلم أكن أتوقع أصلًا أنني سأحاورها هكذا وقلت مستفهمة:

- كيف تشعرين وأنت غارقة في الخيال؟

أجابتني بعد أن بدأت تظهر على وجهها ابتسامة خفيفة:

- أشعر أن هناك شيئًا ما يصعد بروحي إلى مكان من الخفة والنقاوة حيث لا يمكن لشيء أن يشدني إلى الأسفل، أرى اليراعات وهي تطير وتومض هنا وهناك كأضواء الزينة، وأرى زهورًا تتدلى من أغصان الأشجار بجمال أخاذ.

شعرت ببهجة وهي تصف لي ما تحس به، ووددت أن أسألها مرة أخرى، وقبل أن أنطق أشار إليّ "طارق" ليسكتني، ووضع سبابته على فمه، فعدت لصمتي واستطردت هي قائلة:

- أغمض عينى، وأتحدث مع كل شيء، حتى الجمادات وأوراق الشجر، وأشم رائحة العشب الأخضر المبلل بقطرات الندى، وأسمع أصوات العصافير وهمس السحاب، وأحيانًا أشعر وكأنني طفلة صغيرة أفلتت أمها شعرها الناعم، وألبستها فستانًا جميلًا واسعًا وطويلًا، فركضت حافية تحت زخات المطر، أشعر وكأن عقلي يجذب الخيال إلى رأسي كما يجذب المغناطيس برادة الحديد إليه، أتعلمين يا "دعاء" لقد انتهيت للتو من كتابة أحد أحلامي، وسأبدأ في تدوين حلم جديد.

ابتسمت لها واقتربت لأجلس قريبا منها على طرف الفراش، فرفعت عينيها وتأملت وجهي وقالت وهي تميل برأسها قليلًا:

- عيناك جميلتان، كم عمرك يا "دعاء"؟

أجبتها:

- سبعة وعشرون عامًا

ابتسمت والتفتت لأمها وقالت:

- سبعة وعشرون حلمًا جميلًا، كم هو رائع!

مدت يدها تحت وسادتها وأخرجت صورة لطفلة رائعة الجمال وقالت:

- هذه حلمي الجميل، حبيبتي "ياسمين"

تناولت منها الصورة، كانت لابنتها "ياسمين" وهي تجلس على كرسي أنيق، بفستان أحمر،

وشعرها الأسود الفحمي يغطي جبهتها وينسدل على كتفيها ليحيط بتموجاته وجهها القمري البريء، فتظهر عيناها الرائعتان

ابتسمت وقلت بفرح:

- كم هي جميلة!، إنها تشبهك تمامًا

تناولتها من يدي مرة أخرى وأمسكتها بحرص ومسحت بأناملها على وجه ابنتها في الصورة وكأنها تتحسس بشرتها وقالت:

- نعم تشبهني كثيرًا.

عادت لصمتها، وسكنت وكأنها لا تراني، ثم التفتت وأمسكت بدفتر جديد كان على وسادتها، وبدأت تدون شيئًا ما، حاولت أن أختلس النظر لأقرأ ما تكتبته في منتصف الصفحة، لكنها أسرعت وأخفته عني، وابتسمت بمكر وقالت بصوت ضحوك:

- لا تتلصصي على أحلامي.

تراجعت مبتسمة بحذر حتى لا أضايقها.

أشار إليّ الدكتور "طارق"، فقمت بعد أن حييتها، لكنها هزت رأسها ولم تلتفت إليّ، أمسكت أمها بيدي بين يديها الدافئتين وربتت عليها بحنان، ومنحتني ابتسامة جميلة تشبه ابتسامة حفيدتها التي رأيتها في الصورة، وقد كنت أتعجب من صمتها طوال جلستنا، ثم خرجت ويشغلني سؤال وجهته للدكتور "طارق" فور أن أغلق باب الغرفة عندما قلت له:

- رأيتها سعيدة بأحلامها وهي تدونها، فلماذا في عينيها كل هذا الحزن؟

أجابني بعد أن حول نظراته عني إلى النافذة التي كانت أمام غرفتها وتطل على مدخل المستشفى وقال:

- الاعتياد على الوجع يجعلك تستسيغينه، وربما تفتقدينه، فهي تشعر من داخلها أن حالة الحزن شيء ضروري لها، فكتاباتها يتخللها بعض الحزن.

طارت من رأسي كل الكلمات عندما رأيت السماء من النافذة وقد اسودت، وأغرقت بأمطارها الغزيرة كل شيء، وخلا الطريق من المارة والسيارات، تملكني شعور بالرهبة للحظات، فكيف سأصل إلى البيت؟ وتذكرت شيئًا هامًا...

لاحظ الدكتور "طارق" نظراتي الفزعة، فتوقف عن الكلام فجأة واتكأ على النافذة وسألني بصوت مرتاب:

- فيم تفكرين؟

أجبته بتوتر:

- أود أن أصلّي المغرب بسرعة

ابتسم وأشار إلى مصلى النساء، دلفت إليه بسرعة، وصليت المغرب، وفور أن انتهيت من صلاتي أذن العشاء

شعرت بضيق شديد لأنني أخرت صلاتي وانشغلت بالحديث، وتذكرت كيف كنت أنتقد من يفعلون هذا، وهأنا ذا أقع في نفس الخطأ!

وخرجت لأجد "طارق" لا يزال واقفًا أمام باب الغرفة ومستندا على الحائط بظهره، وقد رفع إحدى ساقيه واستند بقدمه على كرسي قريب..

أقبل إليّ وقال بعد أن وضع الهاتف على أذنه:

- أين تسكنين؟

تلجلجت قليلًا وقد بدأت أتشتت فأنا لم أعتد على إخبار أي شاب بمعلومات عني بتلك السهولة وقلت بحذر:

- في منطقة تبعد عن هنا ثلث ساعة تقريبًا.

بدا وكأنه يستمع إلى صوت من يحدثه على الهاتف، وقال ببهجة:

- أين كنت يا "نورهان"؟ أقلقتِني عليك؟

أخفض رأسه وهو يستمع إلى الإجابة، وسار بضع خطوات مبتعدا وهو يضع يده في جيب بنطاله ثم قال:

- لن أستطيع العودة اليوم، فالأفضل أن أبيت هنا الليلة، وحاسوبي ليس معي، سأنتظرك غدًا إن شاء الله.

حاولت أن أبدي أنني منشغلة بالنظر من النافذة، وقررت أن أنصرف

حالًا، فقد بدأت أتحرج من الوقوف معه، ومن أسئلته المباشرة.

وكلامه معي بلا كلفة وكأنه يعرفني من قبل، كما أنه وسيم وجذاب، ولابد أن أحمي نفسي من الوقوع في الفتن، سأحافظ على كل قلبي الذي عاهدت نفسي أن أغلقه أمام أية شائبة أو فتنة تعكّر صفوه

وألا أفتحه أبدا إلا لزوجي، ليكون لحبي الحلال مذاقه الخاص عندما يدق دقّة الحب التي أنتظرها...نعم لا بد أن أنصرف الآن.

أنهى المكالمة سريعًا، واقترب يحدثني.

وبينما كنت أستأذن منه لأنصرف، بتر كلامي بغتة وقال:

- لحظة، سأحضر لك نسخة مما صورناه من كتابات من "فيروز" دون علمها لتطلعي عليها

هززت رأسي موافقة ووقفت مكاني أنتظر، لأجد أمامي والدة "فيروز" التي خرجت من الغرفة واكتشفت أنها تبحث عني، وما إن رأتني قالت فورًا:

- الحمد لله أنني وجدتك.

نظرت إليها وابتسمت متسائلة فأكملت:

- "فيروز" تريد أن تراك، وأخبرتني أن أطلب من الدكتور "طارق" أن يحضرك مرة أخرى، أرجوك تعالي معي الآن، فهي تود أن تعرف المزيد من التفاصيل عن حياتك ويبدو أن الأمر يهمها.

حاولت أن أعتذر لها فقد بدأت أخاف ألا أجد سيارة أجرة تقلني إلى البيت، لكنها عادت تتوسل إليّ وقد لاحظت فرحة ابنتها بزيارتي لها!

وأمسكت بيدي وجرّتني خلفها

ووجدتني بعد لحظات غارقة في حوار عميق مع "فيروز" التي سألتني كثيرًا عن نفسي، وعملي، وأهلي

وحتى شقيقتي رحمها الله

ومرت ساعات، تخللتها لحظات صمت وتفكر منها، كدت في كل مرة أنصرف

لولا نظرات أمها التي كانت تحثني على البقاء، كانت "فيروز" تتفادى نظراتي وتسمعني فقط وهي تنظر إلى الحائط الخالي أمامها وكأنها ترسم في مخيلتها ملامح الحلم الجديد، وكنت أحاول أن أعود ببصري إليها فجأة لأقبض على نظراتها إليّ، والتي كانت تنزوي سريعًا بعيدًا عن عيني ونحن نتحاور، أطل علينا الدكتور "طارق" مرة واحدة من خلف الباب، وتركنا سريعًا، ولم أره مرة أخرى إلا وهو يعطيني ظرفًا ورقيًا ثقيلًا بعد أن خرجت من الغرفة، كان يحوي ما طبعه من كتابات "فيروز" لأطلع عليه، وقد شعرت بالرعب عندما نظرت إلى ساعتي ووجدتها قد تخطت العاشرة والنصف ليلا.

❋ ❋ ❋

27

كان المطر ينهمر بغزارة، والرياح الباردة تهز الأشجار في الحديقة المحيطة بالمكان بقوة، وكان أمامي خياران، إما أن أبقى في المستشفى وأنسى أمر العودة إلى البيت أو أجتاز الباب وأتحمل العواقب.

وقفت أمام المستشفى أنتظر أن تمر سيارة أجرة أمامي، شعرت بالخوف وقد أصبح الطريق موحشًا، حتى حارس المستشفى اتجه إلى الداخل هربًا من البرد وبقيت وحيدة.

تفحّصت السماء فإذا بقطع سوداء مظلمة تتدجّي وتتكثّف ويملّس بعضها في أحشاء بعض، حاولت أن أتصل بخالي، لكن هاتفه كان خارج نطاق الخدمة، قررت أن أتصل بأخي فوجدت هاتفه مرة مغلقًا، ومرة خارج نطاق الخدمة.

احتضنت الكيس الورقي بذراعيّ وكنت أمسك بمظلتي وأحتمي بها من المطر ووقفت أنتظر وأترقب، مرّ الوقت والطريق يزداد ظلمة ووحشة، وفجأة سمعت صوتا والتفت لأجد "طارق" يقترب، وقد رفع معطفه الأبيض فوق رأسه ليحتمي به من المطر وهو يقول:

- "دعاء" المكان هادىء ووقوفك هكذا في هذا الوقت خطر جدًا، ولا أظن أن أي سيارة أجرة ستصل إلى هنا الآن، تفضّلي إلى الداخل وسنحاول تدبير سيارة تقلك إلى بيتك.

كدت أعود معه وفجأة!... وقفت سيارة "أحمد" أمام المستشفى،

فتح الباب وترجّل من سيارته ثم اقترب منّا، وأقبل على"طارق" يصافحه بحرارة، وبدا لي وكأنهما يعرفان بعضهما!

قال "أحمد" وكأنّه يقصد أن يسمعه "طارق" قبل أن ننصرف من أمامه معًا:

- تفضلي يا أستاذة دعاء"، خالك هاتفني منذ قليل وطلب مني أن آتي إلى هذا العنوان لأنه قلق عليك.

وطلب مني أن أقلك إلى المنزل حالًا، سرت خلفه بعد أن شعرت أن الخوف بداخلي قد تلاشي، فوجوده أشعرني بالأمان.

فتح "أحمد" لي باب السيارة لأجلس بجواره، لكنني فتحت باب السيارة الخلفي، فقد خجلت أن أجلس بجواره، دار حول السيارة بسرعة بعد أن أشار للدكتور "طارق" ليحييه مرة أخرى، وانطلق يقود السيارة..

لم تخرج منه كلمة واحدة، وبدت قسمات وجهه متجهمة مليئة بالمرارة، حاولت أن أقطع الصمت وكنت في غاية الحرج، فقلت وأنا أراقب الطريق وقد خفّ المطر وصار كالبكاء:

- كنت في زيارة "فيروز"، هي مريضة وتعالج هنا في المستشفى.

رمقني بنظرة تشي بعدم التصديق ورفع حاجبيه، وقال متهكمًا:

- وهل مواعيد الزيارة تمتد إلى منتصف الليل!

أجبته بغضب:

- طبعًا لا، لكنني لم أجد أي سيارة أجرة هنا.

هز رأسه باستنكار وعاد لصمته وتركني أتخبط بين أمواج أفكاري المتلاطمة، وصلنا إلى بيت أخي وقال دون أن يلتفت إليّ:

- تفضلي.

التفت إلى مرآة السيارة الداخلية فجأة فالتقت عيناي بعينيه، وكانت تظهر نظراته التي ألهبت وجهي وقلت برجاء:

- لا أستطيع دخول بيت أخي الآن، أرجو منك أن تقلّني إلى بيت أمي.

قال باستخفاف:

- وماذا سيقول الجيران عن فتاة تعيش وحدها وتعود بعد منتصف الليل مع شاب في سيارته، الأفضل أن تصعدي الآن لبيت أخيك.

شعرت بضيق شديد، وكدت أفتح باب السيارة، لولا أنه انطلق بها فجأة، وقادها بعصبية، حتى أنني شعرت أننا سنصطدم بأي شيء يتحرك أمامنا لولا خلو الطريق من المارة، وقبضت على حقيبتي بقوة وكأنني أتشبث بها طلبا للأمان.

تحدث بعصبية وبكلمات سريعة كطلقات الرصاص قال:

- "جمال" لا يعرف أنك خارج البيت، وغالبًا قد نام مبكرًا اليوم فهاتفه مغلق، خالك "محمد" لن يعود الليلة، حاول الاتصال بك لكن هاتفك كان خارج نطاق الخدمة، واتصل بي وأخبرني أنك ربما تكونين بتلك المستشفى، عندما تدخلين المنزل وتغلقين الباب جيدًا اتصلي بي لأبلّغ خالك أنك بالبيت.

ابتلعت ريقي وأنا أتخبط بين شعوري بالغضب وإحساسي بالخجل والتوتر الشديدين، ولم أتفوه بكلمة ردا عليه مما زاده ضيقا مني بالتأكيد.

وصلنا سريعًا، ووقف بالسيارة أمام باب بنايتنا القديمة والتي بدت مظلمة ومهجورة ومهيبة في ليلة الشتاء تلك، حاولت أن أشكره فلم يلتفت أو يرد بكلمة، ترجلت من سيارته وأنا أشعر بوخز حارق

في كل بدني رغم البرد القارص!

التفت لأطمئن أنه ما يزال هناك ورأيته يراقبني من طرف خفيّ، وشعرت أن البناية كشبح أسود يبتلعني صعدت راكضة على الدرج، وكأنني أهرب من خيال يطاردني...

وضعت المفتاح في الباب ودخلت بيت أمي وأنا خائفة، أغلقت الباب جيدًا خلفي ثم أسندت ظهري على الباب وتنهّدت...أخيرًا وصلت.

لأول مرة في حياتي أشعر بكل هذا الخوف، أمسكت هاتفي لأبحث عن رقم"أحمد" وتذكرت أنني قد حذفته من قائمتي بعد فسخ خطبتنا، حاولت أن أتذكّره ولم أتمكّن، استسلمت أخيرًا.. واتصلت بخالي بنفسي وطمأنته...

ثم جلست ساكنة أراجع ما مررت به، وبعد ربع ساعة أفزعني جرس الهاتف فانتفضت وأمسكت به لأجيب على "أحمد" الذي نهرني بغضب:

- ألم أخبرك أن تهاتفيني فور دخولك إلى البيت؟!

أجبته بخجل:

- كنت أبحث عن الرقم.. و..

بتر كلماتي بحدة وقال:

- هل أغلقت الباب جيدًا؟

أجبته وأنا أتلفت حولي وكأنني أتأكد وقلت:

- نعم.

أغلق هاتفه فجأة، ولم يترك لي الفرصة لأكمل كلامي معه، وسمعت صوت السيارة، فقد كان واقفًا طوال الربع ساعة الماضية ينتظر منّي اتصالًا على الهاتف!

أمسكت رأسي وقد أصابني الصداع فجأة، فقد وضعت نفسي موضع شبهة وأخطأت بخروجي وحدي لمكان بعيد في وقت متأخر، ليتني اعتذرت وانتظرت خالي ليذهب معي في وقت لاحق...

قمت إلى غرفتي هربًا من الأفكار والهواجس التي كانت تطاردني وحاولت أن أنام، فغدًا سأعود للعمل...

أصابني غمّ شديد، فصورتي الآن اهتزت أمام "أحمد" لأنني تأخرت خارج البيت حتى منتصف الليل، وكنت أقف مع شاب غريب يبدو أنه يعرفه!

ولا بد أن الدكتور "طارق" أيضًا يتساءل عن علاقتي بـ "أحمد"..

وماذا لو عرف أخي "جمال" بما حدث؟ ماذا سيقول عني!؟

وماذا سأقول لخالي "محمد"؟

❊ ❊ ❊

28

"أحمد"

هل فقدت عقلها؟، أم أنا الذي قد خدعت فيها!

لا بد أن هناك حكاية مطوية في حقيبة أيامها لا أعرفها، وسرًّا دفينًا مختبئًا في قلبها لا أعلمه.

يبدو أنني أثقلت على نفسي بكثرة التفكير فيها وهي مشغولة بغيري.

لا شكّ أن "طارق" هو سبب رفضها الزواج مني، فهو طبيب ناجح، وشاب وسيم، ويحفظ كتاب الله كما تتمنى هي في زوجها، وكيف لا تعجب به وكل من يراه يحبه!

وأنا شخصيًا كنت أحبه رغم ثقته في نفسه المبالغ فيها والتي تميل إلى الغرور أحيانًا..

إذًا هذا هو فارس أحلامك الذي تنتظرينه يا "دعاء"..

ولكن كيف التقت به، ولماذا لم يخطبها حتى الآن؟!

لا أنسى أبدًا اسمه الذي كان يتردّد دائمًا ونحن نقف في المدرسة

مدرسة التحرير الإعدادية، الفناء الواسع، القميص الأبيض والبنطال الرمادي، سارية العلم، صفوف التلاميذ، وملابس فريق الكشّافة، وطابور الصباح حيث كان يحصد الجوائز، وصوت وكيل المدرسة

وهو ينادي عليه بصوته الجهوري:

- الفائز الأول في مسابقة القرآن الطالب "طارق حلمي".

- مشروع الحاسوب الفائز بالمركز الأول الطالب "طارق حلمي".

- الأول على المدرسة الطالب "طارق حلمي".

كان "طارق" عبقريا ومتألّقا، وكنت أحب اجتماعي معه في حصص الألعاب، فروحه المرحة وقفشاته المضحكة كانت تروق لي، وكنت أسعد لسعادته، افترقنا بعدها في المرحلة الثانوية حيث التحقنا بمدرستين مختلفتين، لم ألتقِ به بعد ذلك إلا مرات معدودات على أصابع اليد، وكان لقائي به دومًا مميزًا كتميزه... فهو يترك انطباعا حلوا في كلّ مرّة.. وأثرا طيّبًا في نفسي..لا أستطيع أن أكرهه الآن..

ولم أتوقع أن يكون هو أيضًا الفائز الأول بقلب الإنسانة الوحيدة التي أحببتها في كل هذا الكون.

ولا أستطيع أن...أن..أكرهها

كنت أظنها متحفّظة، يبدو أنني كنت أحمق جدًا!

انتهى الأمر أيتها الفراشة، سأمزّق أجنحتك، لن أسمح لك بالطيران والتجوال في صدري مرة أخرى

وإن دقّ قلبي لأجلك مرة أخرى فسأسكته.

❋ ❋ ❋

29

"دعاء"

استيقظت هذا الصباح مبكرًا، السماء ما زالت تبكي، ودموعها تغرق كل شيء.

وصلت إلى المدرسة قبل الطالبات، وجدت الرسالة الثالثة تحت باب غرفتي وأنا أفتحها.

بخط جميل وعطر مميز، تملكني شعور بالفضول الشديد واتجهت إلى مكتبي وجلست لأفتحها وأقرأها

رأيتك أمس، كفراشة زرقاء، لها جناحان كبيران شفافان ورائعان، تطيرين ويطير خلفك سرب كبير من الفراش الأزرق، سبقتك الفراشات وابتعدت كثيرًا، وبقيت أنت ترفرفين بأجنحتك في مكانك، لكنك لا تحلقين حتى اقترب صائد الفراشات، وحملك على كفه، ونفخ بلطف، فعدت تحلقين!

قرّبت الرسالة من أنفي لأشمّ رائحتها وابتسمت، فقد أعجبني أن أكون فراشة، تفاءلت قليلًا، وهدأت نفسي.

وقفت أراقب الفناء الغارق بالماء، والفتيات وكل منهن تختبىء في ملابسها، وتدسّ كفّيها في جيوبها وتقترب بودّ من رفيقاتها بحثًا عن الدفء، تذكّرت "أميرة" التي ما زالت غائبة.

قررت أن أمر عليها بعد الظهر، أو ربما أتصل بها.

مرت الحصص الأولى بسلام، وأطلّت الشمس بحياء من خلف السحب، كأنها تخجل منا، فهي لا تملك إيقاف برودة الجو، ولا تقدر على حجب المطر، وتأخرت بدفئها علينا.

وقفت أمام باب غرفتي وابتسمت وأنا أراقبها، وأغمضتُ عينيّ ورفعت وجهي للسماء لعلي أنعم ببعض الدفء من خيوط الشّمس التي تسرّبت من بين السحب.

وفجأة!.. سمعت صوت نحنحة ففتحت عينيّ لأجده أمامي مباشرة، يقف ويتأمّلني وأنا على هذا الحال!

إنه الأستاذ "مروان" معلّم اللغة الإنجليزية، أعرفه شكلًا واسمًا، لكنني لم أتبادل معه أطراف الحديث من قبل، حيّاني ببهجة ووقف بجواري وكأننا أصدقاء!

وبدأ يتحدث بصوت متهدج ويقول:

- أستاذة "دعاء" أنا....أنا...

هززت رأسي بآلية محاولة إبداء الحزم والجدّية وسألته:

- خير يا أستاذ "مروان"؟

قال بصوت مضطرب:

- أنا معجب بك وأودّ أن أتقدم لخطبتك.

عقدت الصدمة لساني، ووقفت حائرة، فقال بصوت مهتزّ:

- هل أنت مرتبطة؟

شعرت فجأة وكأن دلوًا من الماء الساخن انسكب على رأسي، وأن

وجهي قد التصق بالمكواة، وأن زلزالًا حلّ بجسدي.

ابتلعت ريقي بصعوبة، وتلفّت حوالي، ونظرت إلى كل شيء ما عدا وجه "مروان"، وجدتني أسير بخطوات مضطربة إلى غرفة الأستاذة "نوال"، وأدخل دون أن أطرق الباب، ثم أجلس أمامها وهي تتحدث مع أحد المعلمين، طالعتني باستغراب، ثم عادت لحديثها مع المعلم وأنهته بلطف لينصرف.

التفتت إليّ وسألتني باندهاش:

- ماذا بك يا "دعاء"؟

أجبتها وأنا أرتجف:

- أستاذ "مروان" جاء الآن وأخبرني أنه معجب بي!

وسألني هل أنا مرتبطة أم لا؟!

رفعت حاجبيها وابتسمت ثم قالت بهدوء:

- يريد الزواج منك إذًا؟...

أجبتها بغضب:

- وكيف هذا وهو متحرر جدًا في أفكاره، وينتقد الحجاب كثيرًا كما هو معروف عنه بالمدرسة، ويثرثر كثيرًا مع المعلمات والطالبات، كما أنه مدخّن، كيف يجرؤ على الحديث معي هكذا؟

وكيف يتخيل أنني سأقبل الزواج منه؟!

غمرت وجهها ابتسامة بديعة وقالت:

- وكيف لا يتمنّاك زوجة فأنت عروس جميلة، فالشباب يا ابنتي وحتى إن ضلّوا قليلًا عندما يريدون الزواج يبحثون عن الفتاة الصالحة،

التي تحافظ على البيت.

عودي لغرفتك ولا تلتفتي إليه، ولو حاول مرّة أخرى، وأخبرك بشكل مباشر أنه يطلبك للزواج، اعتذري له واجعلي ردّك واضحًا قاطعًا، فأنا أخشى أن يظنّك كباقي الفتيات اللئيمات اللاتي تجعلن الباب نصف مفتوح ونصف مغلق، ترفض الزواج من الشاب ولكنها تظهر له الودّ والتلطّف وبعضهن تمدحه في وجهه فتحيّره معها وتذره كالمعلّق، وأنا على يقين أنك لست كذلك، فكوني واضحة وصريحة، ولو ضايقك أخبريني.

للأسف وجوده هنا بالمدرسة خطأ فادح، وسأحاول بذل قصارى جهدي حتّى يترك المدرسة

فأنا لا أحبّذ فكرة وجوده كمعلّم للبنات في تلك المرحلة العمرية، وشخصيته بهذه الطريقة.

استمعت إلى نصائح الأستاذة "نوال" وعدت إلى غرفتي وأنا في ضيق، فأكثر ما كان يحيرني هو إقباله عليّ وانجذابه لمثلي.

كيف أعجبته؟، وكيف أحبني وأنا معقدة كما تقول بعض الزميلات عني؟!

عندما عدّت وجدت رسالة في ظرف أنيق على مكتبي!

ظننتها رؤيا جديدة من الفتاة صاحبة الرؤى، فتحتها، وفوجئت أن بها أبياتًا من الشعر من الأستاذ "مروان" العاشق الولهان، كتبها مع كلمات حارّة، ووقع باسمه.

شعرت بغضب شديد وكدّت أذهب إليه وأمزق الرسالة وألقيها في وجهه، لكنني فضلت الصمت وضعتها في درج مكتبي، لعلّي

أسلمها للأستاذة "نوال" فتتصرف معه، وجلست أترقب.

لم أخرج من غرفتي إلا عندما أذّن لصلاة الظهر، والتقيت بالطالبات في المصلّى، وصلينا معًا، عدت إلى غرفتي ورأسي مزدحم بالأفكار، وما زال يقلقني أمر "مروان" الذي اكتشفت أنه معجب بي فجأة!

أرسلت إليّ الأستاذة "نوال" تطلبني فورًا، وفي طريقي إلى غرفتها لاحظت نظرات حاقدة من "رباب" معلمة التربية البدنية، والتي تتبع الأستاذة "سعاد" كظلّها، والتي كانت تقف ومعها ثلاث معلمات خارج الغرفة، ومن داخل غرفة الأستاذة "نوال" أتى صوت "سعاد" وهي تصرخ:

- قصة حب، ورسائل، وأشعار، وما خفي كان أعظم.

وقفت وكأنّ على رأسي الطير، وتبادلت النظرات مع الأستاذة "نوال" التي أشارت إليّ لأقترب، فاقتربت وأكملت "سعاد":

- ورع كاذب، وتمثيلية حقيرة، ترتدين قناعا أمام الجميع، وأنت في الحقيقة فتاة لعوب، كيف تجرؤين على تبادل الرسائل مع "مروان"؟!

وجدت هذه الرسالة بدرج مكتبك، فضحك الله يا خائنة.

صحت وأنا أتلعثم من شدّة الغضب:

- وكيف تفتّشين في أغراضي؟

ردت بصوت مشروخ:

- انظروا.. انظروا.. من تتحدث عن التفتيش في أغراضها!

طبعًا لأكشفك أمام الأستاذة "نوال"، فهي مخدوعة فيك.

انفعالي الجارف حبس الجمل في حلقي، وانعقد لساني، ولم

أتفوه بكلمة، ثم التفت إلى الأستاذة "نوال" وهي تقول:

- استدعيت "مروان" وهو في الطريق، فلتخفضي من صوتك يا "سعاد"، ما أعرفه أنه يريد الزواج منها وهي أخبرتني بنفسها اليوم.. وأنا أثق بها.

مصمصت "سعاد" شفتيها، وازداد التقاء حاجبيها وزفرت بحنق ثم قالت:

- كاذبة، "مروان" سألني عن"رباب" من أسبوعين ويريد خطبتها، والآن فقط عرفت لماذا لم يسألني مرة أخرى، الهانم كانت تشاغله، وترسل إليه الرسائل الغرامية.

صرخت فيها وأنا أتمنى أن أدق عنقها بيدي وقلت:

- أين تلك الرسائل التي تزعمين أنني كتبتها؟، أخرجيها الآن، وكفاك حقدًا.

رفعت حاجبيها المرسومين وقالت باحتقار:

- ولماذا سأحقد عليك أيتها النكرة.

وأشارت إلي بسبابتها وحركتها من أسفل إلى أعلى.

دارت بعصبية وكادت تخرج من الغرفة، لولا "مروان" الذي دلف إلى الغرفة مرتبكا، شاحب الوجه، زائغ العينين، يتصبب عرقا، ثم وقف يستمع إلى الأستاذة "نوال" التي سألته مباشرة وهي تمد يدها بالرسالة تجاهه:

- هل هذه الرسالة منك يا أستاذ "مروان"؟

أجاب بارتباك بعد أن تناولها من يدها ثم طالعني بنظرات كلها عتاب ولوم وقال:

- نعم هي بخطّي، لماذا أحضرتِها للمديرة يا آنسة "دعاء"؟

طالعت الأستاذة "نوال" وجهه بجدية وقالت:

- الأستاذة "سعاد"هي التي فتّشت في درج مكتب"دعاء" وأحضرت الرسالة لي.

ردت "سعاد" محاولة إخفاء حرجها من فعلها الشنيع وقالت بغلّ:

- ألم أخبرك، رسائل غرامية، إنها فتاة لعوب..

التفت "مروان" إليها وقاطعها بعصبية وقال:

- لا...لا...الرسالة هذه هي الوحيدة مني إليها، لم تكتب الآنسة "دعاء" أي رسالة لي، وددت فقط أن أعبّر عن مشاعري، فقد راقبتها طوال الأيام الماضية ورأيت كيف هي خلقا وأدبا وعفّة وحياءً، هي فعلا فتاة رائعة، وكنت أود أن أخطبها لأنني أعجبت بها، وبالفعل أخبرتها اليوم، فخجلت منّي وتركت المكان، فعدت إلى مكتبي وتخيّرت من الكلمات ما يليق بها ويعبّر عن إعجابي بكل ما فيها من صفات، وكتبتها في رسالة، ووضعتها لها في غرفتها لعلها تقرأها وتتفهم مشاعري، ورأتني المعلمات وأنا أخرج من غرفتها، لكنها فعلًا لم تكتب لي أي رسالة أبدًا.

تعكّر وجه "سعاد"، التي بدأت تتبرّم، وقالت بحنق:

- وكيف تريد أن تخطبها، وأنت بنفسك قد حدّثتني عن إعجابك بـ "رباب"؟

رمقها بنظرات حاقدة بدوره وقال:

- لقد غيّرت رأيي.

قاطعتهما الأستاذة "نوال" التي كانت تتنقل بعينيها بين وجوهنا

جميعا بهدوء وقالت:

- أستاذة "سعاد"، أظن "دعاء" تحتاج منا اعتذارا على الاتهامات الباطلة، وعلى اقتحام خصوصيتها وفتح رسالة تخصها.

عوجت "سعاد" فمها لأسفل بقرف ثم قالت باستكبار:

- هي من بدأت واقتحمت خصوصيتي وفتّشت في مكتبي، ولم تعتذر، وأنا أيضًا لن أعتذر.

واستدارت لتخرج من الغرفة بخطوات غاضبة تكاد تفلق كعب حذائها نصفين، ويلاحقها صوت الأستاذة "نوال" التي رفعته لتسمع المعلمات اللاتي وقفن لتتنصتن خارج الغرفة، وهي تسير نحو الباب الذي كنت ما زلت أقف بجواره داخل الغرفة وأستند إلى الحائط من هول الموقف وبشاعة الكلمات ووقع الصدمة على نفسي، فقد كانت طريقة "سعاد" جارحة ومؤلمة:

- فلتقبلي اعتذارنا جميعا يا "دعاء" أنت فعلا إنسانة محترمة، وأرجو أن تعذري الأستاذة "سعاد"، فالأمر اختلط عليها ولم تقصد الإساءة.

وأخذت بيدي، وأغلقت الباب، ثم التفتت إلى الأستاذ "مروان" وطلبت منه أن يجلس، فجلس أمامي وقال بتوتر:

- آسف جدًا.

خلعت الأستاذة "نوال" نظارتها وقالت له:

- لماذا تريد الزواج من "دعاء"؟ وشخصيتها مختلفة تمامًا عن شخصيتك يا "مروان"

أجابها وهو ينظر إلى وجهي ويتفحّص ملامحي بجرأة مما جعلني أزداد ارتباكا:

- ولم لا؟

أجبته بتوتر وأنا أشيح بنظراتي بعيدا عنه:

- لأنني ربما ملتزمة قليلًا، وطريقة تفكيري تختلف عن طريقة تفكيرك تمامًا، فأنت متحرر، كما أن الحجاب لا يعجبك! ألم تخبر الطالبات بذلك؟

رفع يده باستنكار وقد بدأ يغضب ثم قال:

- ولكنك لست ملتزمة، بل أنت عادية جدًا!!

صفعتني كلماته.. وشعرت بضيق شديد.. وسألته باستنكار:

- لماذا قلت عادية؟

أجاب وهو يبتسم باستخفاف وقد بدأت طريقته في الكلام تتغير بعد أن استفزته ردود أفعالي وكلماتي:

- ملابسك عادية، وحجابك قصير ولا يغطي صدرك، ليس خمارًا ولا نقابًا، ولا ترتدين القفازين كبعض الفتيات، صحيح أنك لا تضعين مساحيق التجميل، لكن ربما لأن ملامحك بريئة وأنت لا تحتاجينها

أنت عادية جدًا، مثلي تمامًا.

ارتبكت وشعرت بالغضب يدبّ في جسدي، وحاولت أن أهدأ قبل أن أرد قائلة:

- ربما حجابي ليس خمارًا ولا نقابًا ولكن ملابسي فضفاضة، كما أنني لا أصافح الرجال، ولا أضع مساحيق التجميل لأنني أراها زينة لا تجوز إلا لزوجي، وليس لأن ملامحي بريئة كما تقول!

آسفة جدًا، أنا لا أقبل الزواج منك، وأرجو أن ينتهي هذا الأمر هنا

أمام الأستاذة "نوال" ولا تفاتحني فيه مرة أخرى.

وقمت لأستأذن من الأستاذة "نوال"، التي أصرّت قبل أن أخرج على تمزيق الرسالة أمامي وأمام "مروان" ثم رسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، ثمّ طلبت منه بهدوء ألا يعترض طريقي مرة أخرى، وأخبرتني أن أنصرف مبكّرًا الآن قبل نهاية اليوم الدراسي، وأن أتجنّب"سعاد" وعصابتها الثلاثية، وخرجت فعلًا من المدرسة وأنا أحمد الله أن أجرى الحق على لسان "مروان" عندما برّأني من إرسال الخطابات الغرامية له.

❊❊❊

30

تركت العنان لنفسي وأخذتني قدماي في جولة عبر الطرقات حول المدرسة...

سرت في طريقي وأنا أحملق في كل فتاة تمرّ من أمامي، وبدأت أتفرّس في ثياب النساء في طريقي، وبدأت ألحظ الشباب وهم يمرّون بجوار كل فتاة أو امرأة، لاحظت أنهم يفسحون الطريق لكل من ترتدي ملابسَ فضفاضة وحجابًا طويلًا، ولا ينظرون إليها.

كما لاحظت أنهم يلتفتون بعد مرور كل فتاة ترتدي الملابس الضيّقة حتى لو كانت محجبة، وضايقتني نظراتهم لها وهم يلتهمون جسدها بأعينهم بلا حياء أو خجل.

تمهّلت قليلًا وراقبت بائعًا يقف أمام زبونة تشتري منه شيئًا وعيناه على صدرها المكشوف..

مررت ببعض النساء ممن يتركن جزءًا من مقدمة الشعر تطل من تحت الحجاب ويكشفن جزءًا من العنق وفتحة الصدر ويكشفن سيقانهن، ويُضيّقن على خصورهن بالأحزمة.

والتفت لأجد رجلًا يسير مع زوجته صاحبة الحجاب الطويل، ويحيطها بذراعيه كلما اقتربا من زحام ليحميها من المارّة.

وجذب انتباهي فتاة أخرى ترتدي حجابا لكنها تضحك مع رفيقتها وتتحدث بصوت عال سمعه كل من مرت بجواره.

وصلت إلى الكورنيش، وقررت أن أسير قليلًا لعل رائحة البحر تخرجني من حالة الضيق التي كنت فيها، فبعد لقائي بـ"أحمد" أمس، أجهز "مروان" على ما تبقى لدي من هدوء وسكينة.

مررت بشاب وفتاة بدا لي أنهما عاشقان، كانت تميل برأسها على كتفه بطريقة مائعة، وكان منظرهما لافتًا للنظر، للأسف كانت ترتدي حجابًا يشبه حجابي.

مررت بفتاة صارخة الأنوثة، شعرها الحريري الأسود يطير على كتفيها، رأيتها وهي تمر بين الشباب، البعض يلتفت إليها ويتحسّر، والبعض ينهشها بنظرات جائعة، والبعض تخدش هي حياءه عندما تجرحه وهو يستعفف، جلست قليلًا على أحد المقاعد لأراقب هذا التدرّج الرائع في لون ماء البحر.. كم أعشق اللون الأزرق.

حاولت أن أصفّي ذهني من أي شيء يعكر مزاجي، وتنفّست قليلًا وأنا أستمع إلى دمدمة الأمواج المتوثّبة على صخور الشاطئ.

ابتعادي التدريجي عن الشاطئ أمهلني وقتًا حتى أرتب أفكاري، واتخذت قرارًا هامًا.

عدت لبيتي وفتحت خزانتي وأخرجت ملابسي كلها ورتّبتها على فراشي، قلّبت بيدي بين حجاباتي المختلفة

تأمّلت صوري مع زميلاتي بالجامعة.

فعلًا كان "مروان" على حقّ، لا بد أن أغيّر من مظهري ولكن ليس لأجل أحد؛ بل لأرضي الله، أحتاج درعًا أو حصنًا يحميني من أي تصرّف يؤذيني.

أحتاج شيئًا مثل راية أرفعها وأنا بين الناس ليعرف الجميع توجّهي

وطريقتي التي أحب أن يعاملوني بها، شيئًا كتلك الشارة التي يعلقها طلّاب المدارس ليعرف من حولي لأي شيء أنتمي، طريقتي في ارتداء ملابسي ستجعل من أمامي يعرف أنني أنا "دعاء" مختلفة عن أية فتاة أخرى، فأنا... لن أقبل أن أصافحك، ولن أجلس بجوارك، ولن أضحك معك ولن تلقي أمامي نكتة من تلك النكات البذيئة، ولن أمدّ يدي لأخبط بدلال على يدك وأقهقه لو كنت تمزح معي، كما أن المزاح ممنوع معي لأنك غريب عني ولست من محارمي، ولن أقف معك أبدًا وحدنا بطريقة بها شبهة.

ستتوقف عن فتح موضوع حساس عندما تراني أمامك لأنك ستحترمني، ستحافظ على ألفاظك وأنت تتحدث وأنا موجودة، لن تجرؤ على التلفظ بألفاظ تخدش حيائي، ستفسح لي الطريق عندما تراني أمرّ، سأجبرك على احترامي، وسأحافظ على نفسي.

ردائي وحجابي سيضع لمن حولي حدودا ولن يتخطاها أحد.

سأطيل حجابي وأغطّي صدري، وسأتوقف عن دسّ حجابي في ياقة فساتيني وعباءاتي وقمصاني

سأحاول ارتداء قفاز إن لزم الأمر حتى يراه الجميع.. ولا يمدّ أي شاب يده ليسلّم عليّ، فأنا أكره السلام على الرجال، وأعلم أنه لا يجوز.

ولن أنسى هذا الرجل الذي التقيت به منذ ثلاثة أعوام وأنا مع أمي في عيادة طبيب الأسنان، وكانت زوجته قريبة لأمي وسلّم عليّ، وظل ممسكا بيدي يتحسسها ويضغط عليها حتى سحبتها من يده بصعوبة وكنت في ضيق شديد منه، أمّا والد صديقتي "ريهام" والذي

في كلّ مرة أزورها فيها وأرفض مصافحته

يقول لي:

- ربيتك وحملتك وأنت صغيرة وترفضين السلام عليّ؟

أعلم أنه رجل طيب، وأعلم أنه ليس كلّ من يمدّ يده إليّ ليسلّم عليّ فاسق وعديم الأخلاق، لكنني لن أغضب ربي من أجله، فما عدت تلك الفتاة الصغيرة التي رفع عنها القلم، سأردّهم بلطف.

مرّ الوقت وأنا أدور في غرفتي، ابتسمت عندما لاحظت أن معظم ملابسي زرقاء، حتى حجاباتي نصفها بلون السماء، وإن كانت بيضاء فنقوشها الصغيرة باللون الأزرق!

وفجأة!.. سمعت جرس الباب، وصل خالي أخيرًا، الآن أشعر بالأمان..

ولا بد أن أعدّ شيئًا لنأكله، أي شيء طعمه لذيذ، لملمت ملابسي المتناثرة وذهبت لأعدّ الطعام..

❊ ❊ ❊

31

في اليوم التالي وصلت إلى المدرسة بمظهري الجديد، حجاب طويل أزرق يغطي صدري ويصل طرفه إلى خصري، وتطير أطرافه خلف ظهري وتغطيه، شعرت أنني كفراشة تطير وتستتر بجناحيها.

تلاشى الخجل الذي كنت أشعر به دائمًا عندما كنت أسير في الطريق، وأنا أظنّ أن الجميع يراقب خطواتي وملابسي وحذائي.

كنت قبل أن أطيل حجابي أتفحّص ملابسي طوال الطريق بتوتر، أما الآن فلا.. لأنني أصبحت تحت ستر جميل سألت الله أن يجعل تحت هذا الستر ما يرضيه عني..

استقبلتني الأستاذة "نوال" بابتسامة ساحرة، وقبّلتني على جبيني قبلة برائحة أمي، رأيت الفرحة في عينيها..

مررت من أمام الفصل الذي أحبّه، فصاحت الفتيات وتجمعن على نافذة الفصل تباركن لي وكأنني عروس.

لمعت عينا"سارة" وهي تمدّ يدها من النافذة لتصافحني، وكانت ابتسامة "سالي" الذكية ساحرة، أما "أميرة" التي عادت أخيرًا ركضت إليّ فاحتويتها بين ذراعي وتعانقنا طويلًا، تحسّنت قليلًا وبدت لي بحال أفضل، غادرتهن لغرفتي وأنا سعيدة.

جلست على مكتبي في غرفتي التي رأيتها اليوم أطيب رائحة، وأكثر اتساعًا، وأجمل أركانًا وأزكى هواءً، كنت سعيدة لأنني شعرت

أنني خطوت خطوة لأقترب من إرضاء ربي، كم أحبك ربي.

تسلّمت راتبي وقررت أن أنفّذ ما وعدت نفسي به، سأشتري لنفسي كتابًا جديدًا وربما رواية، وسأسعد بنات أخي.

توجهت فورًا بعد انتهاء الدوام لمكتبة قريبة من بيتنا ودار بيني وبين البائع حوارٌ سريعٌ:

- كيف حالك يا عم "قدري"؟

رد وهو يهزّ يديه:

- أستاذة "دعاء"، أين كنت؟ لم تزورينا منذ فترة طويلة؟

أجبته وأنا أتنقل بنظرات فضولية بين الكتب المعروضة:

- هأنذا عدت لأشتري منك بعض الكتب، أخبرني عن الجديد؟

التفت إلى الكتب المعروضة وسحب منها ثلاثة كتب وقال بصوت جاد:

- هذه رواية جديدة لكاتب يبدو أنه يلاقي نجاحًا كبيرًا، فالطلب على كتبه يزيد، وبالاسم، وكل من يأتي يشتري الثلاثة معًا، أنصحك أن تأخذيهم جميعًا.

سألته باهتمام وأنا أقلّبهم بين يدي:

- هل صدر غيرها لنفس المؤلف؟

أجاب وهو يهزّ رأسه:

- لا، فقط هذه الكتب الثلاث.

ابتسمت وأخرجت حافظة النقود من حقيبتي وأعطيته ثمن الكتب وأنا أشعر بالبهجة، وعدت إلى البيت

وسريعًا ما تقوقعت بجوار خالي أمام التلفاز، وهو يتابع نشرة الأخبار.

بعد قليل استسلم خالي للنوم، فأغلقت التلفاز وسرت بهدوء لأحضر الغطاء، ألقيته على كتفيه بلطف ودسست وسادة تحت رأسه بحذر، وخفّضت الإضاءة، وجلست أقرأ.

اكتشفت أنني اشتريت ديوانين للشعر ورواية لنفس الكاتب، أنهيت الرواية قبل أن يؤذّن للعشاء، وقمت منتعشة فقد كانت رائعة، أعجبتني طريقة الكتابة وتوزيع الأفكار على أربع مراحل وأنا أقرأ الرواية،

رؤية جديدة لنوع آخر من البشر، وكأنك تعيش في كوكب آخر، أفكار صادمة، ومواقف غريبة، فانتازيا لذيذة، ويبدو فعلًا أن هذا الكاتب سيلاقي نجاحًا كبيرًا.

أمضيت وقتًا في ترتيب البيت وأعددت العشاء لخالي الذي تناوله بسرعة وعاد للنوم.

بعد منتصف الليل بدقائق، حاولت أن أنام، لكنني شعرت بالأرق، وقررت أن ألقي نظرة على كتابات "فيروز" التي أعطاني إياها الدكتور "طارق".

جلست في فراشي وسحبت الكيس الورقي، وأخرجت منه الرواية الأولى، وبدأت أقرأ..

شعرت بالسعادة حيث لامست المقدمة شيئًا ما في نفسي، وأوغلت في القراءة وصدمت بما قرأته!!

قفزت من فراشي، وشعرت أن غرفتي تدور بي، وأن المصباح قد سقط فوق رأسي!

يا للهول!، هذه الرواية هي نفسها التي قرأتها منذ قليل!

أحضرت الرواية التي اشتريتها وجلست أقارنها برواية فيروز، صفحة بصفحة، إنها نفسها!

حتى أسماء الأبطال، وتلك المخلوقات العجيبة التي ظهرت خلال الرواية للبطل الرئيسي، نفس الأسماء والصفات والأحداث!

قلبت الرواية وقرأت اسم الكاتب أكثر من مرة!

"حاتم فريد"

وعدت لأوراق "فيروز" وبحثت عن التاريخ لكنني لم أجده، "فيروز" تكتب وتكتب، ولا يهمها التاريخ واليوم، هناك من يسرق روايات "فيروز" ويطبعها لحسابه وباسمه، لصّ بارع أضاف إلى بعض الأجزاء عبارات بطريقة أدبية محترفة، فربط بين المراحل الأربعة في الرواية، وصارت فعلا تحفة من الخيال الإبداعي.

سأعود لتلك المستشفى غدًا، وسأكشف هذا الكاتب المزيف.

❊ ❊ ❊

32

"نورهان"

أخيرًا توقف المطر، سأذهب اليوم إلى "طارق" في المستشفى ليشرح لي بعض المحاضرات، فقد مرّ يومان ولم تتكحل عيناي برؤيته، وقد اشتقت إليه كثيرًا.

والدي هو سبب حبي له، فهو لا يتوقف عن الكلام عنه وعن ذكائه، وعبقريته، ودائمًا يقول لأخي:

- ليتك تكون ناجحًا مثل "طارق"، شاب رائع وممتاز

إعجاب أبي الكبير به جعلني أراقبه.. وجهه، وعيناه، وطريقته في الكلام، حتى أنني حفظت ملابسه، وألوان قمصانه، وربطات عنقه الأنيقة، وحفظت رائحة عطره، حتى وقعت في الحب.

آه لو يعرف كم أحبّه، وكم أتمنى أن أراه بجواري وأنا بفستاني الأبيض، أخشى أن أكون بعينيه غير ناضجة أو صغيرة، فأنا أصغره بتسع سنوات.

أحيانًا أراه غامضًا، فهو يتحدّث معي كثيرًا، ويشعرني أننا أصدقاء، ولكن تلك اللحظات التي يسكت فيها

ويتركني أتخبط في ظنوني وأنا لا أعرف ما الذي يدور برأسه تجعلني أتألّم.

وصلت أخيرًا وصففت سيارتي أمام بوابة المستشفى، وترجلت وسرت بخطوات سريعة طار قبلها قلبي إلى باب غرفته، طرقت الباب فوجدته نائمًا على مكتبه كعادته، فهو يمضي الكثير من الوقت مع مرضاه، يتحدث إليهم ويسمعهم كثيرًا، ويتابعهم أكثر من مرة خلال اليوم مما لا يتيح له الوقت ليعود إلى بيته لينام فيه.

أظن أنه سبب رئيسي في نجاح المستشفى هنا، وأظنه سيتفوّق على أبي في مهنته.

أغار عليه من الطالبات اللاتي يراقبنه في المحاضرات، أودّ لو أنني خبأته منهن لأفوز به وحدي

اقتربت وكدت أوقظه لكنني أشفقت عليه، فتركته ينعم بتلك الدقائق وجلست أراقبه.

أحب لون شعره البني، وأتمنى أن أنجب بنتًا لها نفس لون شعر أبيها، وولدًا ذكيًا مثله.

ليته يخبرني اليوم أنه يحبني وأنه يرغب في الزواج مني، سأوافق فورًا وسأطلب من أبي أن ييسر له كل شيء.

كنت أستمتع بمراقبته لولا صوت الهاتف الذي أفزعه، فانتفض ورآني وابتسم لي كعادته وقال بصوته الدافىء:

- "نورهان"، كيف حالك؟

أجبته هامسة بفرح:

- الحمد لله، أجب على الهاتف أولًا.

أمسك هاتفه ونظر إلى شاشته المضيئة ثم أجاب بعد أن تنحنح وقال:

- "دعاء" كيف حالك؟ أتمنى أن تكوني بخير.

شعرت بوخزة في صدري عندما رأيت اسما لفتاة غيري يتراقص بحروفه على شفتيه، وجلست هادئة وكلّي آذان صاغية.

قال بعد صمت لهنيهة:

- مرحبا بك، تعالي في أي وقت، وأحضريها معك.

عاد للصمت وهو ينصت لـ "دعاء" التي لا أعرفها ثم قال:

- خيرًا إن شاء الله، لكنها خرجت من المستشفى اليوم، فحالتها استقرّت، وكالعادة تتابع في بيتها العلاج

ولا تأتينا إلا عندما تنهار مرّة أخرى، وغالبًا يحدث هذا بعد عدّة شهور..

أنصت باهتمام مرّة أخرى ثم قال :

- سأنتظرك طبعًا، مع السلامة.

كان أول سؤال سألته له بعد أن أغلق هاتفه ووضعه في جيب معطفه الأبيض، هو:

- من "دعاء" يا "طارق"؟

أجابني وهو يبتسم:

- فتاة مهذّبة جدًا، ستعدّ رسالة الماجستير عن الخيال وتأثير أحلام اليقظة، ودلها والدك على بعض الحالات هنا لتلتقي بهم وربما تستفيد بما تعرفه عن حالاتهم في دراستها.

قلت وأنا أكظم غيظي بصعوبة:

- والدي الذي أرسلها؟

هزّ رأسه موافقا وقال:

- أجل، ومررت معها على "فيروز"، طبعًا تعرفينها.

هززت رأسي موافقة وقد تذكرت "فيروز"، وعدت أسأله بفضول عن "دعاء" فقلت وأنا أحاول انتقاء كلماتي حتى لا يلاحظ غيرتي:

- لماذا ستأتي اليوم و"فيروز" ليست هنا؟!

أجابني وهو يبتسم:

- أعطيتها كتابات "فيروز" لأنها مهتمة بالخيال الإبداعي، وقد كنت فعلا قرأتها أنا ووالدك من قبل وأعجبتنا، ويبدو أنها اكتشفت شيئًا هامًا، وتود أن تتحدث مع أم "فيروز" و"زوجها" أيضًا.

كدت أستدرجه ليحدثني عنها أكثر، وفوجئت به ينطلق في وصفها والثناء عليها قائلًا:

- "دعاء" فتاة خلوقة جدًا، ومحترمة ومهذبة، صوتها هادئ، ستعجبك بحجابها وملابسها المحتشمة.

شعرت بضيق، فها هو يعود للتلميح عن عدم ارتدائي للحجاب، حاولت أن أتجاهل كلامه، وهززت كتفي بلا مبالاة، فاستطرد قائلًا:

- التقينا عند المصعد وكانت لا تعرفني، خرجت هاربة عندما دخلته، كما أنها لم ترفع عينيها في عيني طوال حواري معها، حياء نادر.

ازداد ضيقي، وشعرت بالغيرة تشتعل في صدري، وحاولت أن أغيّر حوارنا عنها حتى أقلل من أهميتها وأخرجت كتبي ليشرح لي كعادته، فقام من مكانه وقال بمرح:

- سأحضر بعضًا من القهوة، فهل أحضر لك معي؟

أومأت برأسي موافقة وجلست أنتظر وصول "دعاء"...

لأرى منافستي التي نبتت غيرة منها في قلبي في ثوان معدودة.

عند الساعة الرابعة، وبينما كنت أنتظر في غرفة أبي بعد أن انتهيت من مراجعة بعض محاضراتي مع "طارق"، والتي في الحقيقة كانت حجة لكي أراه وأتقرّب منه، رأيت من نافذة الغرفة سيارة أجرة تقف أمام بوابة المستشفى، وتترجل منها فتاة بيضاء، عليها حجاب طويل ملفوف بأناقة حول وجهها، أسرعت بالخروج من غرفتي واتجهت لغرفة "طارق".

طرقت الباب لأعلن عن وصولي، انتظرت قليلًا، ثم دفعت الدفّة بلطف ودلفت لأكون بجواره عندما تقترب "دعاء"، بالفعل كانت هي، ووجدتها فعلا كما وصفها، هادئة ومهذبة، ولا ترفع عينيها في وجه "طارق" عندما يتحدث معها، لكنها كانت تنظر إليّ بود، عكس ما توقعته، فقد كنت أظنها ستنفر مني وتعاملني بجفاء لأنني لا أرتدي الحجاب كما تفعل بعض زميلاتي في الجامعة.

بعد تبادل التحيّة قالت "دعاء" بصوت جاد وهي تخرج كتابًا بغلاف أنيق، وأوراق مصورة:

- انظر يا دكتور "طارق"، هذه الرواية لمؤلف جديد، اشتريتها أمس، وقرأتها، وفوجئت أنها نفس رواية "فيروز"، بنفس الأحداث والأشخاص، ولكن عليها اسم "حاتم فريد"!

بتر"طارق"كلماتي بغتة وقال متعجبًا:

-"حاتم" زوج "فيروز".

جلست "دعاء" التي كانت ما تزال واقفة وكست وجهها علامات

الدهشة وقالت بمرارة:

- زوجها يسرق كتاباتها وينسبها لنفسه!

لا بد أن نخبرها هي وأمها و...

قاطعها "طارق"وقال بحزم:

- أرجو ألا تفعلي، ولا تتسبّبي في إحراجي وإحراج الدّكتور "أيمن"، سيتسبب تدخلك هذا بالكثير من المشاكل لنا، وخاصة أن المستشفى هنا يشارك في إدارتها، كما شارك في تأسيسها، أكثر من طبيب مشهور وأستاذ جامعي، ونحن نحرص على سمعتها، كما أن زوجها - وهوالمسئول عنها فعليًا- سيعد هذا تطفلًا وتجاوزًا، فلنتحلّ ببعض الحكمة.

رفعت"دعاء"حاجبيها في دهشة ثم قالت باستنكار:

- ونسكت عن الحق!

أليست هذه سرقة؟

أين الملكية الفكرية؟!، ألأنها مسكينة وتعاني من اضطراب نفسي؟!، لا يحق له سرقة أفكارها هكذا!، هذا حرام.. حرام، أرجوك أعطني رقم هاتف والدة "فيروز"، أودّ أن ألتقي بها وأخبرها بالأمر.

رد "طارق "بعد أن غضّن جبينه وقال بصوت جاف:

- هناك حدود لنا لا نستطيع تجاوزها والتدخّل بتلك الطريقة أراه خاطئًا، بل قد يؤدي إلى انتكاسة خطيرة في حالة فيروز إن كان الخبر صادما لها، ولا شك أنه سيكون كذلك بالفعل، دعيني على الأقل أفكّر وأستشير الدكتور "أيمن".

وتحاوروا أمامي وأنا أراقبهما... وظلّ "طارق"يعترض في هدوء

كعادته، لكنها كانت مصممة على رأيها واحتدّ بينهما النقاش.

قامت "دعاء" وقد بدا على محيّاها أن كلام "طارق" لم يعجبها مما أسعدني قليلًا، فكونهما على خلاف في الرأي ولو للحظات جعلني أشعر بارتياح، لكن ارتياحي لم يدم طويلًا، فقد فاجأها "طارق" وهو يرنو إليها ثم قال:

- مبارك الحجاب الطويل والقفاز، أرى تغيرًا، وأظنك هكذا أفضل كثيرًا يا "دعاء".

احمرّت وجنتاها، ووقفت تستأذننا بالانصراف في الحال، وقالت باقتضاب وهي تستدير لمغادرة المكان في ارتباك:

- بعد إذنكما، فرصة سعيدة يا "نورهان"، أرجو أن تبلغي سلامي للدكتور"أيمن".

انتهزت الفرصة لأقترب منها أكثر، لعلّني أتمكّن من كشف بعض الحجب، وأعلم خبيئتها

نهضت بسرعة وعدّلت هندامي بيديّ وقلت:

- سأذهب أنا أيضًا يا "طارق"، وسأقوم بتوصيل "دعاء".

قال "طارق" دون أن يرفع رأسه وقد انشغل بملف أحد مرضاه وبدأ يطالعه:

- فكرة رائعة، فهي لن تجد سيارة أجرة بسهولة، أراكما على خير.

خرجنا من غرفته، وسرت معها، وكانت دقّات قلبي تسابق خطواتي.

❋ ❋ ❋

33

"دعاء"

لن أنسى أبدًا علامات الدهشة التي غمرت وجه "نورهان" عندما سمعتني أتمتم بدعاء أكرره كثيرًا "اللهم اغسل حوبتي"، حيث حدقت في وجهي، وعلى شفتيها ابتسامة تميط اللثام عن أسنان ناصعة وسعادة هادئة، حتى أنني ضحكت من الطريقة التي طالعتني بها بنظراتها وهي تفتح باب سيارتها الحمراء الأنيقة وتسألني بفضول:

- ما معنى"حوبتي"؟

أجبتها وأنا أراقب تعابير وجهها الجميل:

- معنى واغسل "حوبتي" أي امح واغفر"إثمي" وذنبي.

هزّت رأسها بلطف ثم أدارت محرّك سيارتها وانطلقت تقودها ببطء وهي تستمع إليّ وأنا أصف لها عنوان بيتي.

كانت "نورهان" فتاة جميلة ورقيقة، لها وجه فاتن وروح حلوة، وتأسرك ابتسامتها الراقية

سرقت انتباهي بأناقتها حيث كانت ترتدي فستانًا ورديًا قماشه من الصوف الفاخر أظهر جمال لون بشرتها المشربة بحمرة خفيفة.

وارتدت عليه معطفا أبيضَ قصيرًا يصل بالكاد إلى خصرها، ياقته المستديرة شغلت أطرافها بوردات صغيرة رائعة، وكأنها نبتت من

نسيج الفستان نفسه، وكانت تعقص شعرها كأميرة، وحول عنقها عقدٌ من اللؤلؤ يشبه السوار الذي يحيط بيدها اليمنى، وأما حقيبتها الفاخرة وحذاؤها الأبيض فقد كانا أكثر ما لفت نظري عندما كنت أسير بجوارها ونحن في طريقنا إلى السيارة، أعجبتني كثيرًا، وتمنيت لو أنها خبّأت جمالها لزوجها فقط.

تذكّرت صديقتي "ريهام" عندما كنا نجتمع ومعنا زميلاتنا في الجامعة كل أسبوع عند واحدة منّا في بيتها، حيث كنا نتزيّن هكذا وربما أكثر، ونضحك ونأكل ونفرح، ثمّ نقوم لنتناوب على المرآة نمسح وجوهنا ونعود لحجابنا، وتعود كل منّا لبيتها وقد أشبعت هذا الجوع الأنثوي للحليّ والتزين.

شردت قليلًا وأنا أتأمل الطريق وأتفكّر في نفسي وأنا في يومي الأول بعد أن أطلت حجابي، أي اختبار هذا!، اللهم ثبتني.

انتشلني صوت "نورهان" وهي تسألني:

- وماذا ستفعلين لو رضيت "فيروز" بأن ينشر زوجها رواياتها باسمه؟

التفت إليها وقلت بشجن:

- سأحزن كثيرًا، ولكن ما يهمني فعلا أن أتأكّد أنها تعرف هي أو أمها.

ابتسمت وسألتني بودّ:

- أوَ تهتمين بـ"فيروز" لهذه الدرجة؟

أجبتها بعد صمت لهنيهة وقلت:

- الأمر بالنسبة إليّ رفع ظلم، وشهادة حق، و....لا أخفي عليك أنا فعلًا تعلّقت بها كثيرًا.

طالعتني باستغراب ثم قالت:

- بعد لقاء واحد!

أطرقت قليلًا أتفكّر في ملاحظتها وقلت بعد صمت قصير:

- نعم، فقد التقيت بها أيضًا عدّة مرات في كل صفحة من روايتها، طريقتها جعلتني أرى وجهها بين السطور، وكأنّي أستمع إلى صوتها بتلك البحّة اللطيفة التي تصاحبه وهي تخبرني عن تلك الفضاءات الوهمية، والأشياء الخارقة للطبيعة وكأنها أجزاء من أحجية كبيرة تكتمل عند آخر صفحة في الرواية، فأرى الصورة واضحة أمامي.

قالت "نورهان" ببهجة:

- شوّقتِني لقراءة رواياتها، عندي فكرة، ولا أدري هل هي من الصواب أم لا، ولكن عندي فضول شديد لرؤيتها، سأتّصل بالمستشفى، وسأطلب من إحدى الموظفات في مكتب الاستعلامات أن تحضر لنا عنوان بيت "فيروز"، ولنمرّ عليها، ولتكن زيارة عادية استكشافية يا "دعاء"، لا تخبريهم الآن حتى لا نتسبب في المشاكل، وحتى نعرف من أبي ما الطريقة المناسبة لتوصيل الخبر لهم، ونحاول أن نتأكّد هل هي على علم بما حدث أم لا.

وافقتها وقد جذبتني الفكرة كما يجذب قدر العسل النحلة، وجلست أراقبها وهي توقف السيارة تحت شجرة وارفة الظلال، ثم أنصت إليها وهي تتحدث إلى إحدى الموظفات في إدارة المستشفى، ثمّ تشير إليّ بيدها وكأنها تسألني عن قلم، فأخرجت مفكرتي وأعطيتها قلمي الذي لا يفارق حقيبتي، دوّنت العنوان وأغلقت هاتفها، ثم بادرتني على حين غرّة وقالت:

- ما هذا؟!

كانت تشير إلى الصفحة المقابلة للصفحة التي كتبت فيها عنوان "فيروز" وكنت قد نقلت فيها عبارات أعجبتني من كتاب "الحب والحياة"، وانطلقت تقرأها بصوت مسموع:

- "أحبك.. هى الكلمة الجميلة الوحيدة التى يتحرك بها الإنسان، ويفضّل فيها امرأة بالذات، يطلبها بالاسم، ويعلن ارتياحه لوجوده معها، ويحضر معها بوجوده كله، بجسمه، وطبيعته، وعاطفته، وعقله، وثقافته، ويستمتع معها بهذا الحضور الكامل بلا كراهية، بلا أنانية، بلا غيرة".

التفتت إليّ "نورهان" وهي تضيّق عينيها في دهاء وقالت:

- أنت تحبين إذًا؟

شعرت بالخجل الشديد، لكنني حاولت ألا أظهره وأنا أسحب مفكرتي بلطف من يدها قبل أن تقرأ ما كتبته عن فارس أحلامي الذي لم أعثر عليه حتى اللحظة، وقلت بنبرة حاولت أن أخرجها بثقة:

- ليس كل من يكتب عن الحب محب!..مجرد كلمات أعجبتني للدكتور"مصطفى محمود" عن الحب.

أكملت وقد امتلأت عيناها بالفضول:

- أعجبتني الكلمات جدًا، أنت إذًا لا تقرئين الروايات فقط!

تذكرت مكتبتي وقلت بزهو:

- عندي مكتبة جميلة، ليتك ترينها يا "نورهان"، فأنا أعشق الكتب، وربما أختي "حنين" رحمها الله هي السبب في حبي للقراءة.

رأيت ابتسامة ترتجف على شفتيها وهي تسألني:

- رحمها الله، متى توفيت؟ وهل كانت مريضة؟

شعرت للحظة وكأن روح شقيقتي تخللتني وصارت ترفرف في صدري، وقلت:

- توفيت"حنين" منذ عشر سنين، كانت عروسًا جميلة، هي من علمتني الصلاة، وحبّبتني في القراءة...

هزّت "نورهان" رأسها باهتمام لتشجعني على الإفصاح عن باقي قصتي مع أختي فأكملت:

- كانت تدثّرني بغطائي الصغير، ثمّ تحملني وهي تجلس على كرسي هزاز وتهمس في أذني كل ليلة وتقرأ لي قصة جميلة وهي تحملها بين يديها وتضعها أمام عيني لأراقب الصور،

كانت تصف بطريقتها ما يدور من أحداث، حتى أنام في حضنها، ثم تحملني وتضعني في الفراش

وتظلّ بجواري للحظات حتى تتأكد أنني مستغرقة في النوم، وعندما كبرت قليلًا ، صارت تعطيني القصّة وتطلب مني أن أقصّها عليها لأنها تريد أن تنام، ونتبادل الأدوار وتصبح هي صغيرتي التي أريدها أن تنام.

ترجّحت دمعة في مقلتيها فأحببت أن أخرجها من جوّ الحزن والتعاطف معي، وقلت بحماس وأنا أعتدل في جلستي:

- هيا إلى "فيروز" فلنقم بالمغامرة.

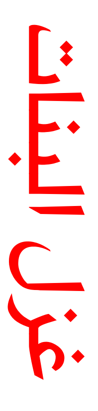
ابتسمت وأدارت سيارتها، وانطلقنا نثرثر على الطريق، وجدتها طيّبة القلب، ولاحظت كلامها الكثير عن "طارق"، وبدا لي أن بينهما شيئًا ما، فالنظرة التي رأيتها في عينيها، تشي بالكثير.

إنها تحبه!

وصلنا سريعا إلى بيت "فيروز"، صعدنا على الدرج، وكدنا أن نصل إلى الطابق الرابع الذي كانت فيه شقّة الأستاذ "حاتم فريد".

رنّ هاتف "نورهان"، إنها أمها تطلب منها الحضور الآن، تركتني على الدرج على وعد بلقاء آخر وتبادلنا أرقام الهواتف، وددت لو بقيت معي قليلًا، فقد بدأت أرتبك.

❊ ❊ ❊





34

مرة أخرى شعرت بتدفق الأدرينالين في أوردتي، وتذكرت وقوفي على باب بيت "أميرة"، رجوت ألا أتلقى صفعة أخرى هذه المرة، تسارعت دقات قلبي، وشعرت أن عقلي يدور.

طرقت الباب الأنيق لتفتح لي الجميلة "ياسمين"، انتشلتني من الخوف بعينيها الخضراوتين ونظراتها التي أشعرتني بالأمان عندما بحلقت في وجهي بعذوبة..

سألتها عن جدتها، وإذا بصوت أمها يأتينا من بعيد وهي تسألها من بالباب، فأخبرتها أن تُعلِم أمها بأنني "دعاء"، تركتني "ياسمين" أمام الباب، ثم عادت تركض سريعا ودعتني بلطف إلى الدخول لغرفة واسعة وعلامات الانشراح بادية على محيّاها.

توزّعت المقاعد المذهّبة الأنيقة فيها فوق بساط نقشاته الجميلة سرقت نظراتي، وتهت في ألوانها الزاهية

وكأنها امتصّت أفكاري، شعرت براحة وسكينة!

لم تكن الجدّة في البيت، وجلست أنتظر "فيروز" في غرفة الصالون وحدي، أطلت أخيرًا بوجه متورّد وملابس أنيقة، وبدت لي مطمئنة وسعيدة، وجلست أمامي وقد التصقت بها ابنتها "ياسمين"

ابتسمت للصغيرة وداعبت شعرها بيديّ قليلًا، ودار بيننا حوار دافيء، بدأته "فيروز" بابتسامتها عندما قالت وهي تقرّب مني علبة

أنيقة لكي أتناول قطعة من الحلوى:

- رائع أنك أتيت، كنت سأطلب رقم هاتفك من الدكتور"طارق"، فقد اشتقت إليكِ.

ابتسمت وقلت بحبور:

-هذا شرف لي، أراك أفضل كثيرًا.

قالت بفرح:

- نعم. أنا فعلًا أعيش أسعد أيام حياتي.

كدت أن أغيّر رأيي ولا أخبرها بأمر روايتها، وخفت أن أعكّر مزاجها، وهي التي بدت لي بحالة غير التي رأيتها بها في المستشفى.

حاولت أن أقول شيئًا لطيفًا، لكنها بدأتني بسؤالها الذي أخرجني من صمتي وقالت:

- "دعاء" لماذا تقلقك "أحلام اليقظة" ولماذا تنبشين حولها هكذا؟!، لا أظنها مجرد دراسة، فأنت غارقة فيها، أليس كذلك؟

تفاجأت بإدراكها لحقيقة ما شغلني حقًا عندما زرتها، وأذهلني تركيزها ووعيها، فقد كنت أظنها إما حزينة أو شاردة فقط، وقلت لها:

- أخاف منها، وخاصة أحلامي عن زوجي المستقبلي، لقد صرت أبحث عن "فارس أحلامي" الكامل في كل مكان، ولم أعثر عليه حتى الآن، ولا أظنني سألتقي به.

أجابتني بابتسامة واسعة وقد لمعت عيناها بذكاء:

- ستلتقين به في روايتي القادمة التي أكتب عنك فيها.

قلت وقد شعرت بضيق:

- ولكن الحلم لا يكفيني، صرت أفتقد السعادة في واقعي، أريد أن ألتقي بزوجي هذا، وأشمّ عطره، وأسمع صوته، وأمسك يديه، وأنظر في عينيه، فأنا أشعر بوحدة وفراغ موحشين في صدري..

شاركتني "فيروز" صمتي لبرهة، وكأنّ بيننا حوارًا صامتًا، وأحببت أن أنتهز الفرصة فقلت:

- علمت أن زوجك أيضًا يكتب الروايات.

قالت بفرحة:

- إنه يكتب أشعارًا رائعة يا "دعاء"، وله ديوانان من الشعر، وهناك رواية باسمه في الأسواق.

ترددت لبرهة ثم قلت بصوت منخفض:

- قرأت إحدى روايات الأستاذ "حاتم" الجديدة، وكان لديّ سؤال عنها.

قالت بود:

- تفضلي طبعًا.

سألتها بجدية:

- متى كتبها؟

أجابت سؤالي بسؤال آخر:

- لماذا تسألين؟

قلت بحرج:

- فقط... ربما فضول!

أجابت بطريقة آلية:

- كُتبت منذ أعوام، وأخيرًا قررنا نشرها.

قاطعتها مستفهمة:

- قررتما...إذًا فهل شاركتِه في تأليفها؟

ألقت عليّ نظرة احتجاج وقالت بضيق:

- لماذا تسألين؟

رددت بصوت متلعثم من الاضطراب وقلت:

- أظن أنني قرأتها من قبل.

تلجلجت وقالت:

- ماذا تقولين!

حاولت أن أعتذر، وقلت بتوتر:

- لا أقصد أن أضايقك، ولكن.. وددت أن أشكرك إن كنت قد شاركته في كتابتها.

رفعت يدها مشيرة إليّ بالسكوت وقد بدا على وجهها الضيق الشديد ثم صاحت قائلة:

- توقفي من فضلك لا تتدخلي في شئوننا، أن...أنا.... حتى لا أعرفك جيدًا، فنحن التقينا مرة واحدة، ولا أدري كيف تجروئين على قول هذا الهراء السخيف، أرجوك اخرجي فأنت لا تعرفين شيئًا.

اعتذرت وقلت محاولة الخروج وأنا في قمّة الحرج:

- آسفة، سأخرج حالًا.

وكدت أخرج لولا أنها صرخت:

-"دعاء"...

أنا آسفة...

تعالي هنا.. اجلسي واسمعيني، حتى لا تتشوه صورة "حاتم"، لا بد أن تعرفي الحقيقة...

اقتربت بهدوء وجلست مرّة أخرى لأسمعها..

أطرقت في هدوء وقالت في حزن:

- لم يكن قرار نشرها باسم "حاتم" سهلًا، فأنا التي نشرتها باسمه.

همست بصوت منخفض:

- ليس من حقك، ولا من حقه.

التفتت إليّ بحركة خاطفة من رأسها ثم ردت باستنكار:

- كيف وأنا صاحبة الحق!

طالعتها بنظرات واثقة وقلت:

- هذا خداع، وكيف تقبلين أن ينسب لغيرك إبداع لم يكن له أي دور فيه؟

قالت بوهن:

- من أجل "ياسمين"

صحت فيها:

- بالخداع والحرام!

قالت مدافعة عنه:

- هو لم يسرق، اسمعيني للنهاية، أنا لا أريد أن أواجه العالم، لا أحب الناس، أتعلمين، لا يأتي أحد لزيارتنا، الناس يخافون مني، لأنني أحيانًا أبكي وأصرخ، حتى جاراتي لم أرهن منذ سنوات، وجدت

استحسانًا ممن قرأ روايتي، زوجي وأمي، والدكتور" أيمن" والدكتور "طارق"، وأظنك وصلت إلى روايتي عن طريقهما، وأحببت أن تنشر باسم زوجي ليكون هناك شيء ما تفخر به ابنتنا.

قاطعتها وقلت:

- عذر غير مقبول.

قالت بتبرّم وضيق:

- وما شأنك أنت؟

أصبت بحرج شديد مرّة أخرى وقلت:

- فعلًا، أنا هكذا أتطفل، أنت حرّة في كتاباتك، وهذا زوجك، وطالما أنك تعرفين بالأمر فليس هناك داع لوجودي هنا.

قالت بصوت مهزوم:

- وددت أن أخفف عنه، فهو يشعر بالضياع، ويتحمّل الكثير من أجلي، أنا أحبّه يا "دعاء"، أريد أن أرى السعادة في عينيه.

سألتها:

- ولكن لماذا لا تكون باسمك، ولك أن ترفضي تمامًا التعامل مع الإعلام؟

عادت إليها النظرات الحزينة، ورفعت رأسها فجأة وقالت وكأنها تخاطب نفسها:

- وددت أن أهديه شيئًا، وددت أن أعوضه عن كل لحظة غبت عنه فيها وأنا بين يديه، فهو يغرقني حبّا حتى وأنا غائبة عن وعيي، حتى وأنا أفقد أعصابي، حتى عند انهياري، هكذا أخبرتني أمي وهي تشهد

كما أنه يتكفّل بمصاريف علاجي كاملة...

قلت محاولة أن أقنعها:

- ولكن..

قاطعتني فورًا واستطردت قائلة:

- لم يتزوج بأخرى، ولم يحبّ غيري، ألا يستحق هدية!

قلت بتعجب:

- وكيف قبِلَ هو هذا؟

قالت بنفس السكينة وبنفس النبرة الهادئة التي بدأنا بها الحوار:

- لم يكن يعلم، ألم أخبرك أنها هدية، هو بالفعل وقّع عقدا مع أحد دور النشر من أجل نشر ديوانين من الشعر، ولكن للأسف الروايات تنتشر بصورة أكبر، فمعظم الشباب لا يقبلون على قراءة وشراء كتب الشعر ويفضلون عليها الروايات، وهذا للأسف تقصير وجهل من هذا الجيل، ورأيت أن الرواية ربما إن حققت شهرة ستفيده، وتروّج لاسمه ككاتب، وأرسلتها لدار النشر دون علمه، فقد بدا لي يائسا في الفترة الأخيرة.

قلت بلهجة قاطعة:

- لا بد أن نصلح الخطأ.

هزّت كتفيها وقالت:

- لا يوجد خطأ، أنا وهو واحد!

اقتربت منها لأتمكّن من النظر في عينيها عن قرب وقلت:

- أنت مبدعة، لا بد أن تخرج كتاباتك باسمك للنور، الأفكار التي

تسطرينها ضمن الحبكة الدرامية في رواياتك الخيالية لم تطرح هكذا من قبل، ستؤثرين في جيل كامل.

قالت بنظرة ممتنّة وقد لمحت في عينيها بريق حبها لزوجها:

- هو من علّمني كل هذا، هو من علّمني الحب، وما كنت لأكتب لولا حبّه، لا يوجد فارق بيني وبينه،

أنا هو.. وهو أنا، إن فرح هو فتلك سعادتي، وإن نجح فأنا أتقدم، لا أغار من نجاحه ولا يغار من نجاحي

حتى أنه يمرض لمرضي.

فشلت في إقناعها، وانصرفت بعد أن ظلّت تؤكد عليّ أن أتكتم الأمر،

جذبتني فجأة من ذراعيّ واحتضنتني بحنان لدقائق قبل أن أرحل، وكأنها تمنحني نفحة من الحب..هذا الحب الذي افتقدته منذ وفاة شقيقتي وأمي، ربتت على ظهري كثيرًا، وددت لو أنني بقيت لفترة أطول، فرت دمعة من عيني وجدت طريقها إلى كتفها الذي كانت رأسي مستندة عليه، وهمست في أذني قبل أن أنصرف:

- تحرري من تلك "الأغلال الناعمة"

أو اتركي أحدهم يحررك منها، حطّمي القيود.. أحلامك حلوة وأنت تغرقين في حلاوتها، أنت أسيرة لأحلامك يا "دعاء" ومقيّدة بأغلال لا تشعرين بها لنعومتها وحلاوتها.. فالأحلام حلوة.

غادرت "فيروز" وقد أفسحت لها مساحة واسعة في قلبي، وعدت وقد تعلّمت الكثير.

تعلّمت أنه من الممكن أن يذوب شخص في نصفه الآخر، كما

يذوب السكر في الماء العذب فيمنحه حلاوة نذوقها جميعا ولا نفرق بينهما!

وربما لا نرى بأعيننا إلا الماء!

فنحب الماء، ونمدح الماء، ونعشق طعمه ونرتوي به، ونطلب المزيد ويبقى السكر حلاوة تذوب، ثم تختفي في الماء لتجعله حلوا!

"الحب ذوبان"

عندما تكون هناك وعندما تحتاجك زوجتك، وإن غاب وعيها ولم تعرفك حيث يعضّها المرض فلا تتخلّ عنها.

وعندما تقرئينه ككتاب خالٍ من الطلاسم فتشعرين بضيقه دون أن يصرّح، وعندما تمنحها دفئًا لكي تعيش فيك.. وتعيش بها.

"الحب.. ذوبان."

❊❊❊

وبعد تلك الأحداث التي تركت بصمات في نفسي..عدت إلى عملي باهتمام أكبر، والمزيد من الاحتراس من عصابة "سعاد"، وبعض الحرص في التعامل مع المعلمين والمعلمات،

أتابع "أميرة "باستمرار وأشجعها لتنجح هذا العام وأنا أتألم من أجلها فقد عاد أبوها وأمها لما كانا عليه من انشغال بعالمهما عنها، كنت أتبادل الابتسامات مع البنات وفكري مشغول بالكثير من الأشياء،

فهناك الكثير من العقد والمشاكل حولنا نحاول باجتهاد أن نحلّها.. فتنحلّ بالفعل قليلًا لكنها تبقى معقودة!

أتتني رسالة أخرى من صاحبة الرؤى الغامضة، وجدتها أيضًا تحت

قدميّ وأنا أفتح باب غرفتي في صباح أحد الأيام.

أمسكتها كعادتي وقربتها من أنفي وشممت رائحتها العطرة، وفتحتها فورًا لأقرأها:

"رأيتك تقفين وأمامك يمر سرب من الأحصنة البيضاء والسوداء والكستنائية، وقد اقترب منك حصان أسود جميل وانحنى لتمتطيه، وبعد أن ركبت على ظهره صار جامحًا وركض بسرعة، وكدت تقفزين به من فوق جدول ماء، وفجأة سقطت من فوق ظهره، وامتطته أميرة أخرى، وبقيت أنت على الأرض وفي يدك حدوة من اللجين تبرق بشدة خلعت من إحدى قوائم هذا الحصان الأسود"

ابتسمت وبدأت أفكّر في البحث عن تلك الفتاة، ووضعت الرسالة في حقيبتي لأضمّها إلى باقي الرؤى في علبة أنيقة كانت لأختي رحمها الله، طويتهم وحفظتهم فيها فقد صرت أنتظر تلك الرسائل، كنت أستمتع بالغموض الذي أعيشه عندما تصلني بتلك الطريقة، وأحببت رائحتها العطرة.

❋ ❋ ❋

35

كانت رسائل الهاتف لا تتوقف بيني وبين "نورهان"، التي اتضح لي أنها شخصية ودودة ومرحة.

وددت أن أرها مرة أخرى، فأرسلت لها أدعوها لزيارتي، وبالفعل جاءت صباح يوم الجمعة حيث سافر خالي مرة أخرى لليلة واحدة يتفقد بيته وأقاربنا ليعود عصر السبت إن شاء الله.

كنت قد أعددت الأرز باللبن، وبعض الفطائر، ورتبت البيت كما كانت تحب أمي، حتى أنني شممت رائحتها في كل ركن بالبيت.

قررت أن أخرج مع "نورهان" وقت الغداء لنتناول الدجاج المشوي في أحد المطاعم القريبة والتي تطلّ على شاطئ البحر.

وصلت مبكّرا وكنت سعيدة بلقائها، أتتني بمظهر رائع كما لقيتها أول مرة، ساحرة بفستانها الأرجواني الفاتح، وأنيقة بمعطفها الذي اشتق لونه من أعذب درجات اللون الأخضر، وفاتنة بخصلات شعرها الرائعة، خلعت معطفها وجلسنا نثرثر معًا، واصطحبتها لغرفتي ومعنا كوبان من الشاي الساخن.

أشرت إلى مكتبتي البسيطة، واقتربت وهي تحتضن كوب الشاي بكفيها، ووقفت تقرأ أسماء الكتب، وبعد لحظات صمت قالت:

حديث القمر، أوراق الورد، السحاب الأحمر، رسائل الأحزان، وحي القلم، المساكين، على السفود

كل هؤلاء لنفس الكاتب "مصطفى صادق الرافعي"!

أجبتها بسعادة وقلت:

- نعم إنه فارس الكلمات، رجل كان يكتب بماء القلوب، أعشق كتاباته، لا بد أن تقرئي له يا "نورهان"

قالت وهي تمسح بيديها بلطف على الكتب:

- هل كلها روايات؟

أجبتها بعد أن جلست على فراشي:

- ليست روايات، إنه يتحدث عن الحبّ ومشاعر المحب بصيغة أدبية راقية، وبلاغة مبهرة، ومعاني عميقة، فلتقرئي "أوراق الورد"

هزت رأسها وقالت:

- حدثيني عنه أولًا.

أخبرتها وقد شعرت بانتعاش وسعادة تدبّ في أوصالي:

- الكتاب عبارة عن مجموعة رسائل من حبيب إلى محبوبته، وهي تحمل في جملتها مواضيع مختلفة تصبّ في بئر الحب، وهي كلها مكتوبة بفلسفة الجمال والحب وشاعرية الروح، بأسلوبٍ راقٍ جدًا ولطيف وحيٍّ حتى يكاد أن يتنفس، يقول مثلًا:

"أريدها لا تعرفني ولا أعرفها..

لا من شيءٍ إلا لأنها تعرفني وأعرفها..

تتكلم ساكتةً وأرد عليها بسكوتي..

صمتٌ ضائعٌ كالعبث..

ولكن له في القلبين عمل كلامٍ طويل"

تأثّرت "نورهان" وسحبت الكتاب من الرفّ، واقتربت وجلست بجواري على الفراش، وناولته لي وقالت:

- اقرئي لي يا "دعاء"، أحب أن أسمعه بصوتك فإحساسك بالكلمات جعل لها وقع في نفسي.

أمسكت "أوراق الورد"، وفتحته مباشرة على مقطع قريب لقلبي كنت قد وضعت علامة ورقية أسفل الصفحة لكي أتمكّن من الوصول إليه سريعا عندما أحب، قلت موضحة قبل أن أقرأ...

اسمعي هذه الرسالة وهو يتحدث إلى زجاجة العطر التي سيهديها إليها:

"يا زجاجة العطر اذهبي إليها..

وتعطّري بمس يديها..

وكوني رسالة قلبي لديها..

وها أنذا انثر القبلات على جوانبكِ

فمتى لمستكِ فضعي قبلتي على بنانها..

وألقيها خفيّة ظاهرة في مثل حنوّ نظرتها وحنانها..

وألمسِـيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها..

وها أنذا أصافحكِ فمتى أخذتكِ في يدها فكوني لمسة الأشواق..

وها أنذا أضمّكِ إلى قلبي..

فمتى فتحتكِ فانثري عليها معاني العطر لمساتِ العناق"

وقعت أسهم كلمات "الرافعي" في مرماها وسط قلب "نورهان" الموجوع حبّا، وبدأت تفتح قلبها وتخرج ما بجعبتها من أسرار..

حدثتني عن حبها لـ"طارق"... وجدتها غارقة في بحر مسجور من العشق، تتخبط في غيابة الجبّ

تأمل أن يلتقطها "طارق" ويصطفيها للزواج منه فتقرّ عينها ولا تحزن، ومرّ الوقت ولم ننتبه إلا وأذان العصر يؤذّن له، قمت معها وتوضّأنا وألبستها إسدال الصلاة الخاص بيّ، وارتديت إسدال أمي الواسع، ووقفت أنظر إليها وقلت بفرحة:

- كم أنت جميلة يا "نورهان"!

طالعتني بنظرة ذات معنى ثم قالت بخجل:

- سأتحجب ولكن ليس الآن، أعلم أنني لست جميلة بالحجاب، فأنا أفقد كل أناقتي تقريبًا عندما أغطي شعر رأسي.

قلت موضحة:

- أنت هكذا أجمل لأن نظرة الرضا من الله لك الآن أغلى من ألف نظرة إعجاب من كل البشر، يكفيك أنه يحبك لأنك تركت الزينة لتقفي بين يديه.

ولم أترك لها مجالًا لترد، بل درت ثم اتجهت إلى القبلة وقلت "الله أكبر"، صلّت بجواري، وانتهينا من الصلاة وعلى وجهها نظرة حائرة، قررت ألا أضايقها بملاحظاتي مرة أخرى..

بعد ساعة دعوتها للخروج معي لنتناول معًا وجبة شهية من الدجاج المشوي في مطعم قريب من البحر

راقبتني وأنا ألفّ حجابي في صمت، وقبل أن نخرج، طلبت أن ترى صوري عندما كنت في الجامعة

أحضرتها لها وجلست تقلّبها، بدا لي أنها كانت تريد أن تتعرّف

على طريقة ارتدائي للملابس وقتها..

خرجنا أخيرًا، وذهبنا معا إلى المطعم القريب.

جلسنا على طاولة الطعام بسعادة، تذكرت أنني لم أخرج منذ فترة طويلة مع أحد، كانت زيارة "نورهان" كغرفة الإنعاش بالنسبة لي، منحتني جرعة من البهجة والفرحة والتفاؤل، رغم أنها تصغرني بسنوات قليلة فقط كانت تطالعني بنظرات طفلة تطالع أمها ببراءة.

انتهينا من تناول الطعام، واتخذنا قرارًا جريئًا أن نتجه إلى الشاطئ ونخلع أحذيتنا ونسير على الرمال بجواربنا، ونترك ماء البحر البارد يلامس أقدامنا في هذا البرد، سارت بجواري وكلتانا تراقب الشمس وهي تودعنا بحنانها الدافىء، من بعيد حملت لنا الجلبة البعيدة أصواتًا عالية، ورأينا حشدًا صغيرًا من الناس يتوسطهم شرطي يدوّن شيئًا في مفكرته.

من بعيد سيارة الإسعاف تقترب.. فتاة في مثل عمرنا تقريبًا صدمتها سيارة، اقتربت نورهان منها وحاولت أن تساعدها قدر استطاعتها بحكم دراستها للطب، الفتاة لا تنزف.. لكنها تتألم بشدة.. كانت خائفة من الموت!

ظلّت تكرر الشهادتين وكأنّ ملك الموت أمامها الآن.. وظلّت "نورهان" تطمئنها أن الإصابة بسيطة ولاداعي للقلق!

حملوها أخيرًا على نقّالة وأدخلوها إلى سيارة الإسعاف، وانطلقت السيارة مبتعدة عنّا بمصباحها الأحمر، وهو يدور وصوتها المفجع الذي ينطلق ليهزّ شيئًا في أعماقنا ويفجعنا..

عدنا لطريقنا على الشاطئ حيث الرمال نتلمّس السكينة

تنهّدت "نورهان" بعمق وقالت:

- أريد أن أتحجب.

التفت إليها وسألتها:

- فجأة هكذا! ما الذي حدث؟

أجابت بهدوء، وكأن هذه رسالة من ربي، وأشعر أيضًا أنك رسالة من الله لأنتبه.

سألتها بفضول:

- كيف؟

ردّت وهي تعبث في الرمال بقدميها وقالت:

- عندي كل شيء.. كل شيء تتخيلنه، ولم أشعر بالسعادة إلا عندك اليوم، ورغم أنك فقدت والديك وأختك، وتعيشين وحيدة، ألا أنك تركضين على الطريق إلى الله وسط ابتلاءاتك، وأنا غارقة في النعم وأعصاه... كما أنني صرت أخشى الموت.. كما تخشاه تلك الفتاة التي صدمتها السيارة منذ قليل.

شعرت للحظات بالإشفاق على نفسي، وانتابني شعور أني مسكينة، فقد أوجعني تعرية ابتلاءاتي أمامي فجأة بتلك الكلمات، لكنني كنت أعرف أنها لا تقصد، فابتسمت وقلت أشجعها:

- هل أنت واثقة من قرارك يا "نورهان".. ألن تخلعيه بعد أن تزول تلك الرّهبة بعد أن يمحى من ذاكرتك صوت تلك الفتاة ووجهها وهي خائفة؟

قالت وهي تسحبني من ذراعي:

- نعم واثقة، فأنا لست من النوع الذي يتردد، أنسيت أنني أدرس الطبّ وأرى أكثر من هذا... هيّا إلى السوق، معي مبلغ يكفي لشراء ملابس جديدة.

ومضينا والرمال قد ملأت جواربنا والتصقت بأقدامنا، والتصقت معها الكثير من نفحات السعادة.

انتهينا من جولتنا وتوجهنا إلى السيارة لنعود إلى البيت وجلست أتأمل "نورهان" برأسها الملفوف بحجاب أرجواني هادئ ليليق بفستانها الذي كانت ترتديه والابتسامة لا تفارق وجهي... ما زالت تبحث عن الأناقة

لكنني اطمأننت عندما وجدتها تمسح ما على وجهها من أصباغ، وتفرك شفتيها لتزيل أحمر الشفاه

هربت دمعة من عينيّ وهي تقف أمامي عند بوابة بنايتنا القديمة لتودّعني ثم تسألني عن شكلها بالحجاب...

وفجأة وقبل أن أجيبها بأنها رائعة وأن نظرة رضا من الله تكفيها الآن..أحاطتني بذراعيها واحتضنتني بقوّة.

لاحظت بريق السعادة في عينيها وهي تنطلق بسيارتها مبتعدة عنّي وأنا أقف أمام بنايتنا القديمة

دخلت بيتي وعدت لوحدتي... كانت أقدامي تؤلمني جدًا، فقد سرنا كثيرًا.

رفعت قدميّ على مقعد وجلست أراقب التلفاز لعلّي أتسلّى بأي شيء، ارتحت أخيرًا، وجلست سعيدة وقد غمرني شعور بالرضا لأنني سرت مع "نورهان" في سبيل الله.

وفجأة قطع الصمت اللطيف الذي كان يحتويني صوت هاتفي الجوال!

وإذا برسالة تأتيني عليه،

"هل تقبلين الزواج مني؟"

ابتلعت ريقي بصعوبة، وشعرت أن الدماء تغلي في رأسي، إنها من الدكتور"طارق"

ظللت أحملق في شاشة هاتفي، وسريعا ما لاحقتها رسالة أخرى:

"أريد رقم هاتفكم بالبيت، أو هاتف والدك أو أخيك الأكبر"

تسارعت دقات قلبي وقمت أدور حول نفسي.. ووصلت الرسالة الثالثة:

"أود أن أزوركم بالبيت مع أمي لأخطبك"

كدت أن أصرخ، وجلست كالصنم أفكّر في ما يحدث!

تجاهلت الرسائل، ولم أجب على الرنات المتتالية، فقد حاول أن يتصل بي أكثر من مرة، لكنني لم أجبه إطلاقًا... ماذا سأفعل؟!

❊ ❊ ❊

36

"أحمد"

مرت أيام منذ أن التقيت بـ"دعاء"، ما زلت غاضبًا، أخشى أن أسأل عليها أختي "نور" فتخبرني أنها خطبت لـ"طارق"،

حاولت أن أبحث لها عن عذر أو أي سبب يبرر وجودها هناك حتى منتصف الليل ولم أجد.

كنت أجلس كالعادة أمام التلفاز حتى يداهمني النوم فجأة، هكذا تعودت كل يوم، فصوته هو الشيء الوحيد الذي يؤنسني في وحدتي.

كنت قد استغرقت في النوم للتو عندما أيقظني صوت هاتفي، كان رقمًا غريبًا، أجبت لأفاجأ أنه "طارق" الذي قال بمرح:

- أحمد، كيف حالك؟ أنا "طارق حلمي".

أجبته وقد شعرت بانقباض في صدري:

- أهلا يا "طارق"، كيف حالك، كيف عرفت رقم هاتفي؟

أجاب وما زال المرح يصاحب صوته:

- من "أسامة"، المهم، أريد رقم هاتف والد "دعاء".

قلت متعجبا:

- والدها متوفى!

سألني باهتمام:

- إذًا هاتف عمها أو خالها أو أخيها.

سألته بفضول:

- لماذا تريده؟

أجابني:

- أريد أن أخطبها، فهي فتاة رائعة، ومهذبة، وبصراحة هذا النوع من البنات أصبح نادرًا الآن.

قلت وقد بدأت تتأجج في صدري حمم بركانية جعلتني أشعر أن جسدي كله يشتعل:

- فعلا هي كما قلت وأكثر، ترى.. ما الذي أعجبك فيها؟

قال بعد صمت لهنيهة:

- يا لها من فتاة رائعة!، تفرّ من المصعد وغيرها تركض نحوي لتجاورني للحظات فيه!

تغضّ بصرها عني وهي تكلّمني، تحافظ على صلاتها، ملابسها محتشمة، لا تجلس بجوارك في السيارة، وتفضّل الجلوس في المقعد الخلفي خجلًا منك، كما أنها ذكية ومثقفة وواعية وناضجة فكريًا.. رائع!

أظنها الزوجة الصالحة التي كنت أبحث عنها، فعلًا أحتاج إلى زوجة أفضل مني، فأنا تحولت بالتدريج مع ظروف دراستي الطويلة ثم ظروف عملي الصعبة إلى إنسان آلي، أحتاج لشخصية رائعة وكاملة تلملم شتاتي المبعثرة.

قلت وقد صارت دمائي تغلي في عروقي:

- سأرسل لك رقم أخيها "جمال" في رسالة

سألني بفضول:

- ما صلة القرابة بينك وبينها؟

أجبته وأنا أحاول أن أكون مهذبًا قدر استطاعتي:

-هي شقيقة "جمال" زوج أختي "نور".

قال بمرح:

- إذًا سنقترب كثيرًا يا "أحمد"، وسنكون عائلة واحدة، كم أحب هذا، أخبرني...هل خطبت أو تزوجت؟

أجبته وأنا أتألم وكانت يداي ترتجفان:

- لم أتزوج بعد، ويبدو أنني لن أتزوج.

قاطعني وقال:

- عندي لك عروس رائعة، طالبة في السنة النهائية من كلية الطب، وهي ابنة أستاذي الدكتور"أيمن"

تذكرت فورًا اليوم الذي رأيت فيه "دعاء" وهي تخرج من عيادته، وبدأت أعرف الآن كيف التقت به، وقلت بود مصطنع:

- طبعًا أعرفه، طبيب مشهور وناجح.

قاطعني قائلا:

- وابنته رائعة وجميلة ومثقفة، ستعجبك كثيرًا.

رددت بكلمات رجوت أن تكون لطيفة وأنا أحاول أن أتمالك نفسي:

- سأخبرك عندما أنوي الزواج، المهم أن تتأكد أنت أنك مقتنع

بـ"دعاء"، وأنها مقتنعة بك، ولا تتزوجها إلا بعد أن تتأكد أنك تحبها حقًا، وحافظ عليها.

سألني متهكما:

- وكيف سأعرف أنني أحبها، فأنا لم أقع في الحبّ من قبل، كما أنها متحفّظة جدًا، لا أظن أن لقاءً واحدًا سيكفي لكي أحكم، وربما الحب يأتي بالتدريج.

شعرت لوهلة ببارقة أمل تلوح أمام عيني وتربت على كتفي، فالقصة إذًا بالنسبة لـ"طارق" لا تتعدى البحث عن عروس مناسبة.

وليس الأمر متعلقًا بمشاعر أو قصة حب بينه وبين "دعاء"

لكنني سريعًا ما شعرت بغصّة في حلقي عندما تذكرت رفضها لي شخصيا، ولا شك أنها سترحّب بالزواج من "طارق".

أجبته بكلمات اقتلعت قلبي معها:

- انظر في عينيها لدقيقة، واطلب منها أن تنظر إليك وهي تحدثك، فهذا حقكما، وهذه رؤية شرعية

سألني بتهكم وقال:

-أهذا هو الحب!

قلت وأنا أتوجع:

-لا.. تلك هي البداية فقط.

ستشعر بدقة قلب قوية ووجع خفيف غير مؤلم لحد المرض يتوسط صدرك وكأنك على وشك السقوط من مكان مرتفع، وجع خفيف لكنك ستحبه.

ضحك كثيرًا وقال بسخرية:

- أنا غير مقتنع بكلامك، هذا نسميه في الطب شيئًا آخر، وربما أفسره ببساطه أنه أثر الهرمونات.

أجبته وقد خرجت من فمي الكلمات بتلقائية:

- هي لحظة التقاء روح بروح أخرى تتعارفان وتأتلفان بعد أن تختار بعقلك، فنحن لا نسير على طريق إلا بعد أن نتحسسه جيدًا، وأنت اخترت "دعاء" أولًا لأنك تعلم أنها عفيفة، فابحث الآن عن القبول واستشعر دقّة الحب.

قال بثقة:

- فعلا هي عفيفة، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير من أدب وطهر وعفّة وشرف إلا وجدتها فيها.

قلت مؤكدًا على كلامه:

- وأنا أشهد بذلك.

أضاف "طارق" قائلًا:

- القبول والحب واختيار العقل والانسجام والتكافؤ.. كلمات عميقة ولكن للأسف كل شيء يتغير بعد الزواج.

أجبته بعد صمت لوهلة وقد تدفقت الكلمات وهربت من صدري:

- رأيت الحب في عيني أبي وقد اشتعل رأسه شيبًا هو يجلس على طاولة الطعام وقد سقط حاجباه وارتعشت كفه وهو يدس اللقمة في فم أمي..

ورأيت الحبّ في وجه أمي وهي تمسح على جبين أبي وهو مريض وتشدّ على جسده الواهن الغطاء لتدفّئه وكل نظرة من عينيها التي امتلأت بالدموع تشفق عليه وتقبّله.

حتى وقوفها خلف النافذة في ليالي الشتاء قلقًا عليه عندما كان يتأخر

في العودة من عمله وهي ترتجف لا أدري خوفًا أم بردًا... كان عين الحب..
والللحظات التي كان يشاركها أبي فيها وهي في المطبخ ليساعدها في إعداد الطعام..
ومحاولاتها لكي تتقن صنع فنجان القهوة له.
وجلوسهما معا أمام التلفاز، وصلاتها خلفه، وسجودهما لله معًا... منتهى الحب.
ورأيت الحبّ في عيني زوج أختي وهو يمسك بيديها ويشاركها الوجع ويعتصر قلبه وهي تصرخ وتبكي عندما كانت تلد ابنتها الكبرى.
ورأيته في ابتسامة بائعة الخضراوات وهي تشتري أمامي زوجًا من الجوارب الصوفية لزوجها من أحد الباعة بجنيهات قليلة.
ورأيته بين كل زوجين جلسا بجوار بعضهما أمام البحر وقد فصلت بينهما مسافة يمر منها صغارهما وهما يركضان حولهما لكن قلبيهما ملتصقان في صدر واحد.
وابتلعهما الصمت لكن كلاهما انتهى من حل طلاسم شخصية حبيبه وفهمه فباتت تتحدث هي إليه بالصمت ويرد عليها بسكوته، ويتبادلان نظرة وابتسامة تحمل كل المعاني بلا حروف وبلا أصوات
وإيماءة خفيفة منهما تكفي لكي تشي بأن بينهما قصة حب!
الحب، أن تسمع زوجتك في صمتها وهي تسمعك، وتراها عندما تغيب عنك بقلبك وهي تراك، وترحمها وإن لم تشتكِ إليك وهي ترحمك، وتشعر بآلامها وتبكيك أوجاعها وهي تشعر بك،
الحب لا يحتاج إلى وسامة ولا رشاقة ولا مال ليستمر، الحب أن تحب زوجتك بكل ما هي عليه، وكل ماكانت عليه وكل ما ستكون عليه، ويكون كلاكما أمام الآخر روحه التي تتحرك وكأنها تعيش فيه

ويعيش فيها، وقلبها يدق في صدره وقلبه يدق في صدرها.

قاطعني "طارق" قائلا:

- ما كل هذا يا "أحمد"!، يبدو أنك مغرم يا بطل، ترى من سعيدة الحظ؟

أجبته وأنا أشعر وكأنني ألفظ أنفاسي الأخيرة وقلت:

- أسألك الدّعاء بأن ييسر الله لي الخير...

رد بمرح:

- بالتأكيد.. وسأدعوك لحضور الخطبة قريبًا..

عضضت على شفتي وقلت بألم:

- دعها توافق أولًا.

رد بثقة:

- أنا واثق أنها ستوافق، وما كنت لأقدم على خطبتها إلا وأنا على يقين أنها لي...

انتهت المكالمة وأغلقت الهاتف وأنا أتألّم، فقد كانت مكالمته نكئا لجراحي الغائرة.

ومرّت أكثر الليالي بؤسًا في حياتي، طارت الفراشة، بعد أن أزاحت رحيق الحبّ من قلبي بجناحها الرقراق

وتركتني وحيدا أتجرّع مرارة أن أموت وأنا ما زلت على قيد الحياة.

❊ ❊ ❊

37

استيقظت في منتصف الليل على هاتفي وظننته "طارق" مرة أخرى، أمسكت هاتفي لأجد اسم أخي يظهر على شاشته، رددت عليه بقلق:

- خيرًا يا أخي، هل حدث شيء؟

أجابني بصوت مطمئن وقال بفرح:

- غدًا بإذن الله عودي من المدرسة إلى بيتي مباشرة، فهناك شاب يريد خطبتك، وسيأتي مع والدته، ولقد أخبرت خالك "محمد" ليعود مبكرا ويقابلهم معنا.

شعرت بتوتر شديد وسألت أخي:

- ما اسمه؟

أجاب بفرحة:

- طبيب بشري اسمه "طارق حلمي" أخبرني أنه معجب بأخلاقك وسيأتي غدا، يبدو أن الدكتور"أيمن" الذي يعالج "أميرة" هو من رشحك له، فهو يعرفه جيدًا.

قلت بصوت متقطع:

- أنا لست مستعدة الآن يا أخي، ولست في حالة نفسية تسمح لي باتخاذ قرارات هامة، فما زلت مرتبكة منذ وفاة أمي ولم أجد

السكينة بعد، وأخشى أن يؤثر هذا على رأيي وأوافق على أي شاب يطلبني للزواج فأندم، وأرى من الأفضل أن نؤجل تلك الزيارة فهل من الممكن أن تتصل به وتؤجلها؟

رد أخي بلهجة حازمة:

- لن أؤجل زيارته ولن أسمح لك بتضييع هذه الفرصة، سمعنا كلامك كثيرًا يا "دعاء" وكنت أخشى في الماضي على أمي وغضبها إن شددت عليك، ولكن يبدو أنك تحتاجين من يوجهك ويساعدك على اتخاذ قرارك فأنت خائفة ومترددة، وعموما لا تقلقي فلن أزوجك إلا ممن يستحقك..

لم أجد ما أقوله لأخي، وأنهيت المكالمة معه بهمهمات وأصوات مبهمة، لا أدري كيف فهمها!

أمضيت الليلة في حيرة، ماذا سأفعل غدا!

أرسلت رسالة لـ"طارق" وكتبت فيها:

- "هل من الممكن تأجيل الزيارة للأسبوع القادم، وأن تطلب أنت من أخي "جمال" هذا بنفسك"

وكنت قد عزمت على زيارته في المستشفى إن ردّ بالقبول لأحاول إنهاء الأمر بعيدا عن أهلي، لكن

رده جاء سريعا برسالة لم يسأل فيها حتى عن السبب حيث قال:

- "لا... سنأتي في الموعد المحدد إن شاء الله".

ضايقتني رسالته وتعجّبت من رد فعله، وتساءلت لماذا يتصرّف هكذا؟!

وقررت أن أرفضه بطريقة طبيعية حتى لا أحرج أخي، وأن أنتهز

الفرصة لألفت نظره لـ "نورهان"

في اليوم التالي عدت إلى بيت أخي وأنا ما زلت أتخبّط، وما زالت الأفكار تتوارد على رأسي كالمطر الغزير وتزدحم وتناطح بعضها البعض كالسحابات الغاضبة، كنت في حالة لا أحسد عليها.

جاء"طارق" مع والدته، والتي اتضح لي كم هو يشبهها كثيرًا، نفس لون العينين، ونفس زاوية الأنف والابتسامة الدائمة، حتى طريقة الكلام.

جلست بقوامها الممتلئ، ووجهها الطيّب تحدثنا عن "طارق"، وكيف كان في طفولته رائعًا، ومتفوقًا، وكيف كان هو هدية الله لها بعد وفاة والده وهي صغيرة السن وكيف صبرت وربّته ليكون كما هو الآن، فوجئت أثناء الحوار أنه يحفظ القرآن كاملًا، ولم أكن على علم بهذا!

لاحظت فرحة أخي بمواصفاته التي كان يعلم أنني كنت أتمناها في زوجي، قام أخي وزوجته مع والدة "طارق" وتركونا لنتبادل أطراف الحديث قليلًا، فبدأ هو كعادته وقال بمرح:

- كنت أعلم أنك لن تردّي على طلبي ولن تعطيني رقم هاتف أخيك، فأنت خجولة جدًا، لهذا قررت أن أصل إليه بطريقتي الخاصة

رددت وأنا لا زلت أقلّب أفكاري:

- من أعطاك رقم هاتف أخي؟

أجابني ليصدمني:

- "أحمد".

شعرت برجفة تجتاح جسدي كله، وقلت بتوتر:

- هل أنتما صديقان؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب وقال:

- كان معي في المدرسة حتى افترقنا في المرحلة الثانوية، شاب رائع وخلوق، كنت أحبه كثيرًا، أخبرني أنه لم يخطب بعد، ورشحت له"نورهان"، ما رأيك؟

وقعت كلماته على رأسي كالمطرقة، وقلت وأنا أحاول إخفاء ارتباكي:

- "نورهان" رائعة، ورقيقة، وجميلة، وبعد خروجي معها أمس اكتشفت أنها إنسانة مميزة.

قاطعني قائلًا:

- جميل أن تكونا صديقتين، فهذا سيسهل تواصلي مع "أحمد"، فأنا أحب أن أقوّي علاقتي به، حاولت أن أصمت قليلًا لعلي أحسن ترتيب الكلمات والأفكار في رأسي، حتى أنه كان يتكلم وأنا غائبة عنه للحظات

قلت له بكل وضوح:

- لماذا تريد الزواج مني؟

سكت هنيهة، ثم قال وقد سرحت نظراته في الفراغ:

- لأنك فتاة أحلامي.

قلت بتهكّم:

- لست فتاة أحلام، أنا فتاة عادية.

أطرق للحظات مفكرًا ثم رفع رأسه وقال بلهجة جادة:

- دائمًا كنت أحلم بزوجة تقربني إلى الله، عفيفة شريفة، مستورة بحجابها بعزة، أخرج من بيتي وأنا مطمئن أنها ستحفظ غيبتي، لا تفتنها الدنيا بزينتها، ولا تركض خلفها فتؤذيني.

قاطعته بهدوء وقلت:

- لكنني لست مثالية كما تظن، أنا كأي فتاة أخرى، أحاول أن أكون كما يحب ربي، لكنني أقصّر كثيرًا.

رد بعد أن تنهّد بعمق وقال:

- أنت بريئة جدًا يا "دعاء"، الفتيات من عمرك وممن هم أصغر منك تجعلن من أنفسهن سلعًا رخيصة كما رأيت من معظم من التقيت بهن في حياتي، فقد مررت بالكثير من المواقف المخجلة، بعضهنّ تركض خلفي، وكأنها تود أن تلقي بنفسها بين ذراعيّ، وأخريات تَحُمن حولي وكأنني صيد ثمين.

والكثيرات تصدر منهن أفعال مهينة لهنّ، وحتى على الإنترنت الحياء أصبح عملة نادرة، وأنت ومن هنّ شبيهات لك تجاهدن جهادًا كبيرًا بين كل تلك الفتن.

أعجبني فيك عزة نفسك وتعففك، فلم يهمك أن أغضب عندما تركتِني في المصعد، ولم يهمك أن يغضب"أحمد" عندما جلستِ في المقعد الخلفي في سيارته، كما أن نظراتك وطريقة ملابسك تدلّ على عفافك، الأولوية عندك إرضاء الله، وهذا ما جذبني إليك.

قلت بتردد:

- لست رائعة كما تراني، فذنوبي كثيرة... ولكن هل أنت أيضًا تجاهد؟

رفع حاجباه وقال:

- أحاول كثيرًا.

خطر لي أن الوقت مناسب لأسأله هذا السؤال الذي كان يخطر ببالي كثيرًا، خرجت مني الكلمات بعفوية وقلت:

- لماذا أنت متساهل جدًا؟

التفت إلى وكانت نظراته تلهب وجهي وسألني بحدة:

- كيف!

قلت ألومه:

- أنت تجلس مع"نورهان" وحدكما في غرفتك بالمستشفى وتغلق الباب وتشرح لها، وترفع الكلفة عندما تتحاور مع أية فتاة وناديتني عندما رأيتني أول مرة باسمي مباشرة وكأنك تعرفني.

ضحك بسخرية، وقال في تهكّم تشوبه مرارة:

- وهل كان لابد أن أقول أهلًا أستاذة أو آنسة "دعاء" مثلًا!

أنت تصغرينني ربما بست سنوات!

أكملت متجاهلة نبرة السخرية في صوته وقلت:

- أنت لا تغضّ بصرك.

حدّجني بنظرات غاضبة وقال بثقة:

- أنا أحاول فعلا أن أغضّ بصري، ونظراتي ليست نظرات شهوانية جائعة، أنا فقط أنظر لمن يتحدث معي احترامًا له، ولا تنسَيْ أنني طبيب، كيف سأعالج مريضتي دون أن أنظر إلى وجهها؟

هذا جزء من تشخيص المرض، اسألي أيّ طبيب.

قاطعته بهدوء وقلت:

-أنا لا أنتقدك كطبيب، هذه رخصة، أنا أقصد نظراتك لـ"نورهان" ولي وأنا أكلمك، فأنا لست مريضة تعالجها، ولا هي أيضًا، أليس كذلك!

شعرت أنه غاضب جدًا وقال باقتضاب:

- نورهان هي التي تطاردني!

ران علينا صمت لدقيقة، حاولت فيها أن ألملم أفكاري المتناثرة

تذكّرت الآن بعض ما كان يخبرني به "أحمد"، فلا وجود لإنسان كامل لا يخطىء، حتى "طارق" وهو يجلس أمامي لا يعلم شيئًا عن ذنوبي، ولا تقصيري، هو فقط يراني كاملة، ورغم أن به صفات تمنيتها في زوجي المستقبلي، إلا أن له طباعًا لا أقبلها، ربما من السهل أن تتغير لكنني أيضًا لم أشعر وأنا معه بالقبول، أو... بدقة الحب التي أنتظرها، تذكّرت وجه "نورهان" وهي تصف حبها له، وشعرت بتأنيب الضمير لأنني أجلس أمامه، فلم أنجح في إلغاء تلك الزيارة للأسف.. فقلت له:

- دكتور"طارق"، أنت إنسان رائع ولكنني لا أوافق على الزواج منك.

تغيرت تعبيرات وجهه وقال بمرارة:

-هكذا، مباشرة دون تفكير!

أجبته بثقة:

- نعم. فأنا أدرك تمامًا ما أريده.

سألني بعصبية:

- وما الذي تريدينه!

أجبته بهدوء:

- ما تريده أنت بكل بساطة في فتاة أحلامك أريده أنا في فارس أحلامي، نصف آخر يأخذني إلى الجنة

قاطعني بغضب وقال:

- من قال أنني لن أعينك على هذا!، أنت تحكمين من جلسة واحدة وبضع كلمات!، يبدو أنك فتاة مغرورة.

أغضبتني الكلمة وتركته يكمل:

- يبدو أنّ خبرتك محدودة ولا تدركين الواقع جيدًا، لا وجود لفارس الأحلام يا عزيزتي... كم أنت بعيدة جدًا!

أجبته بصوت مخنوق وقلت:

- ربما أنا بعيدة فعلًا، ربما ما أتمنّاه مستحيل.

أشاح بوجهه عنّي وهزّ رأسه بهدوء وقال:

- لا يهمّ، ربما حديثي معك سيفيدني بطريقة ما، وربما في افتراقنا خير..

تصنّعت الابتسامة وقد أدهشني موقفه، يبدو أن لديه كبرياء جعل رفضي له شيئًا عابرًا، أو ربما يتصرّف هكذا حتى يُظهر لي أن الأمر غير مهم، تعجبت من انسلاخه من حالة رفضي له دون أي حرج،

واتخاذه للأمر بسهولة رغم ضيقه وقلت بعد صمت للحظات:

- خيرًا إن شاء الله.

ضحك وقال متهكمًا:

- أنا حتى لم أشعر عندما نظرت إليك بما أخبرني به "أحمد".

سألته بفضول:

- وماذا قال لك؟

أخبرني وهو يبتسم:

- قال لي بعد أن أطمئن إليك بعقلي أن أتأكد من عواطفي، وأن أنظر في عينيك لأعرف هل هناك قبول بيننا أو لا، وأنني سأشعر بدقّة قلب قوية ووجع خفيف غير مؤلم لحد المرض يتوسط صدري وكأنني على وشك السقوط من مكان مرتفع و....، يبدو أنه يعيش حالة حبّ.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أستمع فيها لوصف مشاعر"أحمد" والتي أتتني على لسان "طارق" بطريقة لم أتوقعها، أدركت لماذا كان يسألني أن أنظر إليه لدقيقة أو نصف دقيقة، عندما عاد ليخطبني مرة أخرى وأنا مع خالي ببيت أمي، وكنت أتفادى النظر إليه، لا أدري لماذا، أرادني أن أشعر أنا أيضًا به، أن أبحث عن القبول والتقاء الأرواح، لكنني وقتها لم أكن أفهمه!

كاد "طارق" يقوم، فاستوقفته بإشارة من يدي وقلت له:

- هناك أمر لا بد أن تعلمه جيدًا.

قال بأدب:

- تفضّلي يا"دعاء"، فما زلت أحترمك وأقدّرك، كلّي آذان صاغية.

قلت وأنا أحاول أن أتخير كلماتي:

- أحيانًا يكون بين يديك شخص مميز، مقبل عليك، يحبك بشدة، يراقبك، حتى أنه يحفظ سكناتك وحركاتك

وما تحبّه وما تأكله، حتى ألوان ملابسك، وربما يهيأ إليك أنه يرخّص نفسه، ولو حاولت أن تقيّمه قبل أن تحكم عليه بسطحية

دون أن تفتش خلف أفعاله لعرفت أنه كنز، فربّما يكون هو نصفك الآخر الذي تنتظره.

شعرت فجأة أنني أتحدث عن "أحمد"، ولاحظ "طارق" توقفي عن الكلام، فهز رأسه وقال:

- "نورهان"

قلت برجاء:

- نعم، إنها تذوب فيك عشقًا وحبًّا، وتراقب كل شاردة وواردة تخصّك، ورأيت فيها الكثير من الصفات الطيبة.

قال بابتسامة هادئة:

- أعرف أنها تحبني، وكنت أعلم أنها تنتظر.. لكنني كنت أتمنى أن ألتقي بمن هي أفضل منها..

غمرني شعور بالاستياء والغضب منه لأنه يعلّقها وكأنها طائر رقيق علق جناحه وهو يطير بالقرب من عش حبيبه الذي يعشقه فاستعذب جواره وآنس برؤيته فأشاح بوجهه عنه وأهمله لأنه يعلم يقينا أنه لن يطير. وقلت بجدية:

- بعد حجابها أنا أستبشر خيرا، وأظنها تسبقني بكثير، لا تستبعد على أحد الهداية مهما بدا لك منه

كست وجهه علامات الدهشة وقال:

- تحجبت إذًا...هذا رائع.

وصمت قليلًا وكأنه يقيّم الأمر كله في رأسه، وتنقل بنظراته في المكان وكأنّه يفكر في شيء.

ثم قام وهو يقول:

- لا شك أن لك دورًا في حجابها، ولا أنكر أنها خطوة رائعة وأنها لو كانت مثلك منذ البداية ما ترددت لحظة عن خطبتها،

أرجو منك أن تساعديها دون أن تعلم أنني طلبت منك هذا وإلا لن أتزوجها، فأنا أخشى أن يكون حجابها شكلي فقط، وأخشى أن تتراجع فجأة وتخلعه وهذا أكثر ما يتعسني أن أتزوج من إنسانة فارغة لا يملأ صدرها ما يظهر على أفعالها من نضج وإيمان وفكر يناسبني، وأما عن باقي نصائحك... فسأحاول أن أغض بصري وأقلل من تساهلي يا... آنسة "دعاء".

قلت باقتضاب:

- أرجوك لا تخبر "نورهان" عن زيارتك ولا عن حديثنا هذا أبدًا.

أومأ برأسه موافقًا، وتركني وسرعان ما لوى شفتيه بابتسامة ودّية وانتهت الزيارة.

شعرت براحة بعد انصرافه، كان رد فعله وإن دلّ على برود مشاعره قليلًا إلا أنه دلّ على ذكائه وإدراكه أن الزواج لا يتم إلا بتوافق الطرفين، فهو يدل أيضًا على عدم تعلّقه الشديد بي وثقته بنفسه- ربما لدرجة الغرور- ودبلوماسيته الشديدة.

حتّى تقبّله لترشيحي ل"نورهان" كان بطريقة مميزة احترم فيها رأيي، بل وسألني أن أساعدها!

إذًا هو يدرك قيمتها جيدًا، ليته يتزوجها ويحبّها كما تحبّه، وبالطريقة التي تتفاعل بها مع أمورها، لأنها تمتلك دفئا من المشاعر يفتقر هو إليه، ورصيدًا من الأحاسيس، لا أظنه يمتلكه، فهو يتعامل

بطريقة أخرى تختلف عن شخصياتنا وربما تناسبه وترضيه ولكن أتمنى إن تزوجها أن ترضيها هي الأخرى...

انتهت زيارة "طارق"، وجلست مع أخي الذي كان مبتهجًا ويظن أن الأمر هذه المرة سيتم، لم أخبره بما دار بيني وبين "طارق"، ولم أتمكن من إخفاء حالة الهمّ التي انتابتني،

مكثت تلك الليلة في بيت أخي ولم أتمكّن من العودة لبيت أمي ونمت وفي حضني ابنتا أخي" مودة" و"رحمة"، وتشغلني تلك الكلمات التي همست بها "فيروز" في أذني:

تحرري من تلك "القيود الناعمة"، أو اتركي أحدهم يحررك منها، أحلامك حلوة وناعمة وأنت تغرقين في حلاوتها، أنت "أسيرة الأحلام" يا "دعاء".

❋ ❋ ❋

38

عاد خالي الذي فاته اللقاء بـ"طارق"، ومرت أيام و"جمال" ينتظر مكالمة من "طارق" ظانًا أنه سيعود، عدت إلى عملي وعادت بعض المشاكل مع "سعاد" وعصابتها، هربت من نظراتهن إلى غرفتي بالمدرسة وشغلت نفسي بالقراءة، أخرجت جريدة وجلست أتصفحها وفوجئت بخبر جميل، كان الخبر عن "حاتم" زوج "فيروز"، الذي صرح أن الرواية التي نُشرت باسمه من تأليف زوجته، وأن هذا خطأ غير مقصود من دار النشر، وأن لها مؤلفات أخرى، وأن الدار ستطرح المجموعة كاملة باسمها قريبًا.

وقرأت بعدها على صفحات الإنترنت الكثير من النقد طاله منه الكثير من الأذى، وبعض السخرية، والكثير من السباب، وأخبار من هنا وهناك تروي قصة أنه سرق المؤلفات من زوجته وأنها اكتشفت هذا وفضحته، ثُمّ قرأت تصريحات دار النشر التي رأت في الأمر دعاية مميزة لاسمها وفرقعة إعلامية لم تحلم بها، بقي أمر مرض السيدة "فيروز" بعيدًا عن الإعلام، ولم يظهر لها إلا تصريح واحد:

" كتبت رواياتي لأنني أحبه"

وأرفقت صورة لها مع زوجها وفي عينيه بصيص فرحة ونشوة حب، وبينهما الجميلة "ياسمين"، هدأت نفسي أخيرًا وسعدت لهذا التطور وأيقنت أن زوج "فيروز" يحبّها فعلًا ويستحق حبها العميق والمخلص له.

ما زالت رسائل "نورهان" على هاتفي لا تتوقف، وكنت ألاحظ أن سعادتها تزيد يومًا بعد يوم وباتت تسابقني في قراءة القرآن وترسل لتسألني عن ما قرأته وما حفظته، شعرت بغيرة لأن حماسها يزيد عني!

أتت لزيارتي مرتين، اكتشفت أنها سخيّة اليد وأنّ لها وأبيها الكثير من أبواب الخير التي عرفتها قدرًا وأنا أسير معها، وأذني تدلني على علامات وعيني تشهد على ما تفعله.

أكثر ما ترك بصمة في نفسي زياراتها للمريضات الفقيرات في إحدى المستشفيات الحكومية واعتناؤها بهن والسعي لهن كما لو كنّ من أقاربها!

عرفت أيضًا أن هذا لم يكن أمرًا جديدًا عليها، فهي هكذا منذ سنوات، كانت أجمل بحجابها الأنيق، بل حجابها نفسه- كما أخبرتني بنفسها- زاد قلبها رقة، وجعلها تشعر بحلاوة وهي تفعل الخير، كانت غائبة عنها من قبل، ولم تذقها إلا الآن!

بدا لي أنها لم تعرف عن زيارة "طارق" لبيت أخي، والتي مرّ عليها أسبوع واحد.

في آخر زيارة لها فاجأتني بتغيّر عميق، ملابسها الأنيقة صارت أكثر اتساعًا وحجابها أصبح أكثر سترًا

بدت لي كالأميرة المتوّجة، حتى كلماتها أصبحت لا تخلو من اسم الله فبين كلمة وأخرى كان لسانها يحنّ للنطق بتسبيحة وحمد لله، وكيف لا؟! وقد صار الله عزّ وجلّ حبها الأكبر.

أعجبتني بهيئتها الجديدة، ما زالت حقيبتها فخمة وما زال حذاؤها أنيقًا.

خرجنا معًا وأنا أسير بجوارها فرحة بها كنت أغبطها فقد رأيت وجهها الجميل وقد أصبحت عليه مسحة من نور الهداية، جلسنا كعادتنا أمام البحر، وكان لا بد من بعض البوح.. ما زالت تحب طارق.

وقررت أن تشركني لحظة توبة صادقة ستتركه فيها وتنهي علاقتها به.."لله"

وتغسل عن قلبها بعض الدرن، أخبرتني أنها لن تذهب إليه في المستشفى مرة أخرى

وأنها لن تركض خلفه كما كانت تفعل، وأمسكت هاتفها وأخرجت منه شريحة خطها وعضّتها بأسنانها أمامي وألقتها في البحر وقالت:

- ليس منا من يأمن على نفسه الفتنة مهما بلغت تقواه؛ ولذا فإن صدّ الشبهات والابتعاد عنها منجاة.

أبكتني نظراتها الحائرة ورأيت دمعة تتسلل من عينيها لتنحدر على خدها التقطتها بيدي وقلت لها:

- أسأل الله أن يثبتك يا "نورهان"

ابتسمت وعيناها ممتلئتان بالدموع وقالت::

- شكرًا لله الذي أضاء لي الطريق بلقائي بك.

شعرت أنني لا أستحق تلك الكلمات فقلت وأنا أسترجع ذنوبي وأستحقر نفسي:

- بل شكرًا لله الذي أخذ بناصيتك إليه، وأما أنا فذنوبي كثيرة وتقصيري يحزنني.

قالت وهي تمسح وجهها:

- عندما كنت عندك بالبيت ورأيتك بلا حجاب، وتأكدت أنك فتاة رقيقة وجميلة ورغم هذا تغطين كل شيء لله تأثّرت كثيرًا، صرت أغار منك، فأنا أيضًا أرجو أن يحبّني الله، كما أنك أحسنت إليّ كما لم يحسن إليّ أحد من قبل فأنا أفتقد الصحبة الصالحة، وكنت أخشى الاقتراب من بعض المحجبات لأنني أعلم أنني على خطأ، كما أن قسوة بعضهنّ جعلتني أخشاهنّ جميعا، لكنني التقيت بك، لا بد أن هناك الكثيرات حولي مثلك، وأنا التي عمّمت الحكم عليكن جميعًا، جعلتِني أحبّ حسن الخلق فيك يا "دعاء"، لقد تخليت عن الفتاة التي كنت قد صرت إليها، فأنت مسحت بيديك غبارًا عن قلبي فرقّ أخيرًا.

وسبقتني "نورهان" بخطوة، وتعانقنا لنفترق على وعد بلقاء آخر قريب وعدت لبيتي وأنا أشعر بسعادة يشوبها بعض الوجع.

فأنا سعيدة لتوبتها وأتوجّع لأنني أعلم أنها تتوجّع فهي فعلا تحبّ "طارق".. دعوت الله لها بالثبات وسألته أن يربط على قلبها لتشفى الجراح، وأن يهيء لها من أسباب السعادة والرضا والسلام النفسي ما يعوضها ويأخذ بناصيتها إليه.

***

مرت أيام وفي ليلة صافية وبينما أستعد للنوم جاءتني مكالمة تليفونية من إحدى الممرضات بالمستشفى

أعطاهم الدكتور "طارق" رقمي ليبلغوني أن "فيروز" عادت للعلاج هناك وتطلب رؤيتي لأمر هام، توجهت فورًا في اليوم التالي إلى المستشفى بعد انتهاء يومي في المدرسة، رآني الدكتور"طارق" فاقترب فورًا وقال:

- مرحبا أستاذة "دعاء"

رددت متجاهلة نبرة صوته الساخرة وكنت سعيدة أنه توقف عن مناداتي دون ألقاب وقلت:

- أهلا دكتور "طارق".

سألني كما لو كان جنديا:

- هل تعرفين أي شيء عن نورهان؟

أجبته ببهجة:

- طبعًا فقد كانت معي أمس.

رفع حاجبيه وسألني متعجبا:

- هاتفها خارج نطاق الخدمة!

ابتسمت وقلت بفرح:

- لقد غيّرت رقم هاتفها.

قال بصوت متوتّر وقد أبصرت على وجهه علامات القلق وعدم الرضا:

- حتى حساباتها على الفايسبوك والياهوو والواتس آب وغيرها أغلقت بعضها ولا تجيب على الموجود منها!

قلت بثقة:

- طبعًا فقد تغيّرت تمامًا وأظنها وضعت ضوابطا جديدة لمعاملاتها على أرض الواقع وعلى الإنترنت أيضًا

ألم ترها بهيئتها وشخصيتها الجديدة؟

هزّ رأسه بدهشة وقال:

- لا لم أرها منذ أسبوع!

التفت متوجهة إلى غرفة "فيروز" بعد أن قلت له:

- لقد سبقتنا خلال أسبوع على الطريق، إنها تشتاق إلى الجنة.

سار خلفي كطفل صغير قائلًا:

- تغيّرت هكذا فجأة!... ولكن كيف؟

التفت إليه مرة أخرى وقلت بهدوء:

- كان فيها من خصال الخير ما يكفيها لتنهض بقوّة.. كلنا نحتاج إلى التغيير حتى أنت.. انظر لنفسك!

بين يديك نعمة كبيرة وهي حفظك للقرآن، لكنّك تحفظه لأن "طارق" صاحب الذاكرة القوية يستطيع أن يحفظ بسرعة، ولكن أين أنت من معاني القرآن في قلبك؟

عد واقرأ القرآن مرة أخرى ومن جديد ولكن بقلبك لتخشع جوارحك وتترجم معانيه فيك فيراك الناس قرآنا يتنفس بينهم، بدا وكأنني صببت على رأسه ماءً باردا فجأة وسكن قليلًا.

تركته شاردا واتجهت مباشرة إلى غرفة "فيروز" وطرقت الباب ودخلت بهدوء لأجدها ممدة على فراشها وبجوارها أمها التي كانت تبكي..

❊ ❊ ❊

39

كانت "فيروز" بعد جلسات الكهرباء التي هي جزء من علاجها المقرر من الأطباء وبعد تناول العقاقير تنام نومًا عميقًا لفترات طويلة، فجلست أتحدّث مع أمها التي قالت وهي تتفحّص وجه ابنتها وهي نائمة:

- سبحان الله تكون في قمّة السعادة حتى أنني أنسى أنها مريضة، ثم تنهار فجأة تتأرجح بين البهجة والكآبة، ربتُّ على كفها الذي كان يحتضن كفّي وقلت:

- الحمد لله هي في نعمة وأفضل من غيرها.

قالت بوهن:

- نعم، الحمد لله على كل حال.

وران علينا صمت مهيب ، وجلست أراقب "فيروز" وهي نائمة، وتساءلت في نفسي... حتى متى سيتعلّق قلبي بهؤلاء الموجوعين!

أشاركهم وكأنني منهم وهم منّي وأبحث معهم عن الأمل؟

ومرّ الوقت ولم تستيقظ وخفت أن لا أجد سيّارة أجرة كالمرّة السابقة فقمت على وعد أن أعود

وقبل أن أنصرف أعطتني أم "فيروز"، تلك الرواية التي كتبتها "فيروز "عنّي وجعلتني بسمات شخصيتي بطلة خارقة فيها، وكان

هذا سبب سؤالها عني، إنها تريدني أن أقرأها، قرأت أول صفحة ووجدتها قد كتبت في أعلاها وسط السطر:

"الأغلال الناعمة"

قرأت وأنا واقفة بجوارهما المقدّمة، ووجدتها رائعة، أبدعت"فيروز" في وصف ما نمرّ به عندما نستغرق في خيالاتنا الحلوة حيث كتبت:

"نحتاج أحيانًا لرحلات قصيرة دون أن نفارق مكاننا الذي نعيش فيه، بلا أمتعة ندسّها في حقيبة نحملها، وحيث لا نبحث فيها عن تذكرة سفر، قفزة عالية، وأجنحة ملائكية، وتحليق إلى سماء يتوسطها بصيص هلال، لا نجم حوله ينافسه، ولا سحب تحجب روعته..

حيث نبني قصورا وتسكنها أرواحنا الحائرة بحثا عن رائحة السعادة وبصيص الأمل.

نحلّق فوق مجاميع الأشجار الباسقة التي داعبتها الشمس وكستها بألوان زاهية، وربما تلاطفنا زخّات المطر، لحظات قصيرة حلاوتها خاطفة، كحلاوة السّكّر عندما يذوب "غزل البنات" على الشفاة الرطبة،

ثم نتدحرج مع سيول أحلامنا، فيلطمنا الواقع فجأة لنفيق من إغماءاتنا المتكررة ونضطر إلى الهبوط مرة أخرى لنعود إلى الوطن فينا لتستكين أرواحنا المضطربة في صدورنا، وتبرد حرارة الرجاء، ووهج التمنّى ببرد اليقين، ولطف ماء الوضوء، ثم سجدة تحتوينا لنقف من جديد، ونرتّل القرآن بشفتين أذابهما الذكر ونحلهما التسبيح".

أغمضت عيني للحظات ثم التفت ل"فيروز" وودت أن تستيقظ الآن في الحال لأشكرها.. ودّعت أمّها التي كانت تمشّط وجه ابنتها برموشها وهي تتأملها بإشفاق وحنان.

خرجت من غرفة فيروز، وتركت الجناح المخصّص للنساء، وجدت عائلة يبدو أنهم كانوا في زيارة قريب لهم يقفون أمام المصعد، فقررت استخدام الدرج.

رأيت "حسام"، هذا الشاب الذي التقيت بالدكتور"طارق" في غرفته أول مرة أتيت فيها إلى المستشفى

شاب بوجه مألوف الطلعة، قد يظن الناظر إليه أنه منكوب بسبب مسحة الحزن الملازمة لملامحه

ونظرات الانكسار المقيمة في عينيه.

كان يترنّم بلحن خفيف الإيقاع وعلى حين بغتة تسمّر مكانه مرهفا السمع في انتباه.. لقد تناهى إلى أذنيه صوت معين.. إنه صوت خطواتي.

كان يقف على الدرج بجسده النحيل ووجهه الذي أعياه المرض وينتظر أحد ما ليأتيه بكوب من القهوة من الماكينة الموجودة بالدور الأرضي.

حيّاني تحيّة وجيزة وقال بخجل:

- آنسة "دعاء"، أرجوك ساعديني، أريد كوبًا من القهوة.

ابتسمت له وقد سرّني أن طلب مني شيئًا، وقلت له:

- سأحضرها فورًا يا فنان.

تلاعبت على شفتيه ابتسامة امتنان خفيفة...

وركضت على الدرج وأنا أشعر بسعادة داخلية لأنني سألبّي أمنية صغيرة له، وكنت أرجو له الشفاء كما أرجوه لـ"فيروز" وكل من رأيتهم هناك.

أحضرتها وأنا أسير بهدوء حتى لا تنسكب بين يديّ وصعدت الدرج بحرص لأجده ما يزال ينتظرني، وقد استقبلني بابتسامة واسعة، وتناول منّي كوب القهوة بلهفة وقال بسعادة:

- شكرًا لك، كنت أحتاجها بشدة، والممرضات يأبين أن تحضرنها لي فأوامر الأطباء أن أقلل منها، لكنني أعشقها ورائحتها الزكية.

وأغمض عينيه وقرب أنفه من الكوب وتنفّس بعمق.

قلت وقد أسعدتني فرحته بها:

- رأيت الدكتور "طارق" يحضرها لك في الخفاء.

قال مبتهجًا:

- نعم، هو فقط من يحضرها كأنّها لنفسه ونضحك معًا..لكنه يسمح لي بكوب واحد كل فترة.

رشف رشفة من الكوب بحذر وسألني:

- هل كنت في زيارة السيدة "فيروز"؟

هززت رأسي بودّ وقلت له:

- نعم، لكنها كانت نائمة وجلست مع أمها قليلًا.

قال بألم:

- قلبي يتمزّق عليها وعلى أختها.

التفت بتعجب وسألته:

- هل لفيروز أخت؟! وما بها؟

أجابني بصوت ممزّق محترق:

- لها أخت تصغرها بستة عشر عامًا، لم تنجب أمهما غيرهما،

ضاعت من السيّدة "فيروز" بعد أن أصابتها حالة من الشرود الذهني كتلك التي تصيبني، وهي تمسك يدها في الطريق، وكان هذا منذ اثنتي عشرة عامًا، حيث كانت في الخامسة من عمرها، وكانت السيّدة "فيروز" وقتها في الواحدة والعشرين من عمرها، كانت بريئة جدًا كما أخبرتني أمها، فهي تزورني كثيرًا وتربّت على كتفي وأحيانًا ترقيني وتجلس لتسمع لي عندما يتوافق موعد تواجدي بالمستشفى مع الموعد الذي تعود فيه السيّدة "فيروز" لتلقّي العلاج هنا، فكلانا يعود كثيرًا.

ابتسم بمرارة بعد جملته الأخيرة وأكمل قائلًا:

-أظنّها الآن عروسًا في السابعة عشرة من عمرها، أو ربما توفاها الله.

قاطعته وقد أفزعني ذكر الموت وقلت:

- إن شاء الله ستعود إليهم ولعلّها بخير بين أيدٍ أمينةٍ...هل بحثوا في الملاجئ قال وقد ركّز عينيه على الحائط أمامه:

- بحثوا في كل مكان، الملاجئ، المستشفيات، ثلّاجات الموتي، بيوت الفقراء، "مصر" كبيرة يا آنسة "دعاء"، كيف سيجدونها!

قلت بألم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أوجعني قلبي.

قال بعد أن أبعد عينيه عن الحائط وما تزال كفّاه تحتضنان كوب القهوة:

- أخبرتني أمها أنها كانت تسير وتتفحّص وجوه الأطفال في كل مكان تمرّ به وكان الناس يخافون منها

آه لو رأيتِها يا آنسة "دعاء" لها نفس عيني "ياسمين" الخضراء الحلوة، لو كانت على قيد الحياة ستكون فتاة جميلة، وربما أخطبها وأتزوجها.

قلت بفضول:

- هل رأيت صورتها؟

قال وفي عينيه لمحة ابتسامة:

- أحضرت لي أمها صورتها وهي صغيرة قبل أن تضيع منهم، وحاولت أن أتخيلها شابة ورسمت وجهها بعد أن أدخلت الصورة على أحد البرامج الخاصة على حاسوبي والخاصّة بتعديل الملامح، وأحضرتها لها فبكت أمها بشدة عندما رأتها، وأخذها السيد "حاتم" زوج السيدة "فيروز" الذي نشرها فورًا على موقع "الفيسبوك" وحاول البحث عنها لكنه لم يصل إلى شيء.

قلت وقد أصابني الإحباط:

- فلنستودعها الله وهو سيحفظها، فحتي لو كانت في حضن أمها هو سبحانه الذي يحفظها وليس هي ولا أيّ أحد.

قال بصوت خافت:

- أمها تكرر أحد الأدعية كثيرًا.

"اللهم سخر لها من يرعاها من الصالحين"

فقد علّمها أحد أئمة المساجد هذا الدعاء، حيث كانت تتردّد عليه وترجوه أن يخبر الناس عن ابنتها كل جمعة ليبحثوا عنها.

قلت برجاء:

-آمين آمين

ران علينا صمت للحظات وقلت بعد أن لاحظت استنشاقه المتكرر وبعمق للأبخرة المتصاعدة من كوب القهوة الذي بين يديه:

- أراك تشمّ القهوة كثيرًا؟

قال وهو مغمض لعينيه وقد بدت على وجهه ابتسامة واسعة:

- لكل ذكرى في حياتي رائحة زكيّة، وطعم حلو لذيذ، ولون جميل.

قلت متعجبة:

- كيف؟!

أجاب وهو ما يزال يبتسم:

- رائحة القهوة تذكرني بوجه أمي وتلك السكينة التي كنت أشعر بها كل صباح وهي تتناول قهوتها وأبي يجلس بجوارها هادئًا مطمئنًا ليقرأ جريدة الصباح، وهي تطعمني بيديها وتبتسم لي، وطعم العسل الأسود الممزوج بالطحينة يذكرني بلحظات من الطمأنينة غمرت صدري يوما عندما كنت أتناول العسل في أحد ليالي الشتاء الباردة، حيث عاد أبي من السفر مشتاقًا لي فحملني بين ذراعيه واحتضنني حتى غلبني النعاس ونمت على كتفه وأنا أشعر بالدفء.

في الحقيقة يا آنسة "دعاء" أحلام يقظتي وذكرياتي كلها بروائح مميزة ونكهات فريدة وألوان صاخبة..

وربما مات الحبيبان وضرب الدهر بيني وبينهما بضرباته، وما زلت أروّض نفسي وأمنّيها وأمسح على أوجاعي حتى تهدأ.

وتبقى رائحة القهوة وطعم العسل ليشعراني بالسكينة والطمأنينة والدفء، وكأنّ أبي وأمي يعيشان هنا

وأشار"حسام" لصدره وقد بدأت ابتسامته ترتعش على وجهه.. ثم عادت نظراته لتستقر على الحائط وشرد قليلًا..

قلت بعد أن تفكّرت في كلماته:

- وأنا أيضًا... ما يزال طعم غزل البنات الذي كان يشتريه لي أبي في فمي.

سألني وهو يطالعني بنظرة غريبة وكأنه يعود تدريجيًا من جولة قصيرة في نفسه حيث تكمن ذكرياته مع أبويه وقد انزوت على وجهه ابتسامة طفولية صغيرة:

- وبماذا يذكرك طعم غزل البنات؟.... بالسكينة أم بالطمأنينة؟

ترددت قليلًا وكأنني أفتش في نفسي عن الإجابة، ثم قلت:

- يذكرني بال..ال....السعادة.

ابتسم وبدأ يقلّد صوت الباعة الجائلين أمام المدارس وقت خروج التلاميذ وقال بمرح طفولي:

- غزل البنات...غزل البنات.

وفجأة تذكّرت أبي وملمس كفه الدافيء وهو يحتضن كفّي الصغير، وصوته الحنون وهو يخبرني أنّ المدرسة جميلة، ومنديله الناعم وهو يمرره بلطف على وجنتيّ ليجفف به دموعي، وكلماته عندما كان يقول لي:

- عندما تشعرين بالضيق فكري فيّ وفي أمك، وتخيلينا وكأننا نجلس معك في الفصل...

وكنت أفعل، وكنت أتخيّل، وكانت حلاوة غزل البنات لا تغادر فمي، شعرت فجأة بحلاوته على طرف لساني فالتفت إلى "حسام"،

الذي بدأ يحدثني طويلًا عن لوحاته وعن معرضه الذي يأمل أن يعرض فيه لوحاته قريبا، وعن رغبته في العمل في مجال البحث عن المفقودين برسم صورهم أو أن يشارك في التحقيقات برسم المتهمين عندما يستمع لأوصافهم من الشهود.

أذهلني طموحه رغم مرضه، وتركته مبتهجا برائحة القهوة، وقلبي يوجعني على حاله وحال فيروز وأمها وابنتها الضائعة، ودعته وداعًا يجمع بين السرور له والحزن عليه؛ أمّا السرور فلأنه ما يزال يحلم ويفكر ولديه طموح ليعمل، وأما الحزن فلأنه وحيد...

شعرت أنه أخي الصغير أو ربما كابن لي، وكأنني قد صرت مسئولة عنه!!

وانصرفت بقلب غير قلبي وعقل غير عقلي وسرت وأنا أسأل نفسي وأتعجب...

لماذا أتعثّر بأصحاب الأوجاع على الطريق؟

ولماذا يحتل كل منهم مساحة في قلبي؟

❊ ❊ ❊

40

عدتُ إلى بيتي بمشاعر متخبطة وقلب مهترئ، فقد أحزنني حال أم "فيروز" ولا شك أن ضياع ابنتها الأخرى أثر سلبًا على حالة فيروز نفسها.

جلست أقرأ الرواية التي كتبتها "فيروز" عنّي، "الأغلال الناعمة" وفاجأتني كتاباتها مرّة أخرى

حتى شعرت أن شعر رأسي بدأ يقف من الخوف والدهشة، وشعرت بالرعب، وقفت فجأة وظللت أحملق في ما بين يديّ، بردت أطرافي وشعرت وكأنني أقف على زجاج مهشم!

كانت الرؤى التي تأتيني في الرسائل من الفتاة الغامضة مكتوبة كما وصفت لي تقريبًا بالرواية بتفاصيل دقيقة لم أخبر" فيروز" بها حتى رائحة الرسائل التي كنت أشمّها، كتبت فيروز عنها، إنها رائحة الصندل

الآن تذكرت عندما قرأت في الرواية!!

حتى أنني أسرعت أحضر الصندوق الذي كنت أحتفظ فيه بالرسائل وركضت إلى المطبخ أشعل عودًا من البخور بعطر الصندل، انتشرت رائحة البخور حولي ووقفت أشمها وأتنفس بعمق وعدت إلى غرفتي أشم الرسائل..

يا إلهي! كيف عرفت "فيروز" بأمر الرؤى!، ومن تلك الفتاة الغامضة!

مررت بليلة عصيبة لم أذق فيها طعم النوم، في اليوم التالي كنت أركض على الطريق إلى المدرسة بعد انتهاء طابور الصباح توجّهت فورًا لذلك الفصل الذي جمعت منه الرسائل، وقفت أمام الطالبات بعد أن حييتهن وقلت بصوت جاد:

أرجو من الطالبة صاحبة الرؤيا التي كتبتها لي في رسالة أن تأتيني في غرفتي للأهمية القصوى، أرجوها بشدة فالأمر هام بالنسبة إليّ.

تصفّحت وجوههن باحثة عن تلك الغامضة ونظرات الفضول في أعينهن تلاحقني، تركتهنّ وعدت إلى غرفتي والقلق يأكل رأسي.

مضى اليوم ولم تأتني أية طالبة، وفي بداية الحصة الأخيرة وبينما المدرسة هادئة وجدتها تقف أمامي إنها "سارة"!

أشرت إليها أن تقترب وطلبت منها أن تغلق الباب وتجلس، وسألتها:

- هل أنت صاحبة الرؤى؟

ابتسمت وهزّت رأسها بقلق وقالت:

- نعم، أنا أرى الكثير من الرؤى كل ليلة... كل ليلة، وتكررت الرؤى لك ياأستاذة "دعاء"، أنا أرسل لك البعض منها فقط.

قلت لها بجديّة وأنا أنظر في عينيها:

- هناك من كتب الرؤى في رواية كما وصفتِها تمامًا، فهل قرأتِها من قبل؟

غضبت "سارة" وشعرت بالحرج ووقفت فجأة وقالت:

- أنا لا أكذب يا أستاذة "دعاء" أقسم بالله أنني أرى تلك الرؤى التي أرسلتها لك وأنا نائمة.

قلت بارتياب:

- إذًا فسري لي هذا!!

وأخرجت الدفتر الذي كتبت فيه "فيروز" الرواية، حيث كنت قد وضعت علامات على الرؤى، قرأتها سارة وقالت باندهاش:

- حتى اسم الرواية.. لقد رأيتك أمس وفي يديك أغلال ناعمة لا تجرح لكنها ملتصقة بمعصميك

كنتِ معلّقة بها في سحاب أبيض تتأرجحين وكنتِ حزينة.

شعرت بالذهول وأمسكت الرواية وقلّبت سريعًا في أوراقها، ما وصفته"سارة" منذ لحظات مكتوب بالفعل أيضًا وسط الرواية وبتفاصيل مشابهة..

شعرت بارتباك شديد ولاحظت توتّر "سارّة"، وأحببت أن أخفف عنها فجلست أقصّ عليها قصّة "فيروز" من البداية وأخفيت سبب بداية زيارتي للطبيب حتى أحفظ سرّ زميلتها "أميرة" التي لا يعلم أحد بمرضها، وبعد أن انتهيت من كلامي قالت قبل أن تترك الغرفة:

- أسأل الله أن يشفيها..لا أعلم سبب تشابه كتاباتها والرؤى التي أراها!

قلت وما زلت قلقة:

- لعله تلاقي الأرواح...ربما!!

قالت "سارة::

-نعم.. فأبي يخبرني دائمًا أن للرؤى أسرارًا لن نستطيع تفسيرها أبدًا...اللهم اشفها وعافها يارب..

قلت بخفوت وأنا أراقبها تبتعد:

- اللهم آمين.

❊ ❊ ❊

41

في اليوم التالي أتتني رسالة من "نورهان" تخبرني عن خطبتها لـ"طارق" وتدعوني للحضور، ذهبت إليها ولازمتها طوال اليوم وساعدتها في ارتداء فستانها وحذائها وزيّنت البيت معها وضحكنا كثيرًا وكل من بالبيت يراقبنا ويبتسم، حتى حجابها لففته بيديّ حول وجهها الطيب، ونسّقت باقة الورد التي وضعتها بين كفّيها قبل أن أطبع قبلة على جبينها الذي عطرته سجدات كثيرة في الليالي التي مضت وهي تفرّ إلى ربها طائعة محبّة تائبة..

وفارقتها قبل موعد وصول "طارق" بربع ساعة حتى أتجنب لقاءه وأمه التي رأتني من قبل وحتمًا ستنزعج من وجودي، واكتفيت باقتباس بعض الفرحة من عيني "نورهان"، ومنحتها الكثير من الحب الأخوي من قلبي قبل أن أغادرها متعللة بأمر هام يريدني فيه أخي وقد كان بالفعل ينتظرني في بيته.

كنت في قمّة الفرح لأن "نورهان" سعيدة حتى أنني شعرت أنني أطير على الطريق وأنا ذاهبة إلى بيت أخي الذي كان يقلّب كفيه ويتعجب من عدم اتصال "طارق"، وينظر إليّ ويتحسر على حالي، حتى أنه ناداني بعد أن انتهينا من تناول فنجان من القهوة وحولنا تتناثر ضحكات "مودة" و"رحمة"، وانزوينا بعيدًا عن زوجته وابنتيه لنتبادل حوارًا سريعًا حيث قال:

- "دعاء" لا أدري لماذا لم يتصل الدكتور "طارق" مرّة أخرى، فهل دار بينكما حوار يشبه ما كنت تقولينه لـ"أحمد"؟

أجبته وأنا ابتسم، فقد كنت فرحة جدًا لأجلهما:

- خطب الدكتور"طارق" ابنة الدكتور"أيمن"..."نورهان".

رفع أخي حاجبيه وقال بدهشة:

- إذًا لم ترفضيه من نفسك لأنه ليس رائعًا ومتدينًا وملتزمًا بالدرجة التي تحلمين بها كما كنت ترددين كثيرًا.

أجبت وما زالت الابتسامة على وجهي:

- بل رفضته فعلا لأسباب أخرى، وليتنا لا نتناقش فيها، فقد خطب بالفعل وخطيبته رائعة.

أطرق في هدوء وقال بحزن:

- وأنت أيضًا رائعة، ليتك تعيشين الواقع مثل كل البنات، وتتركين طموحاتك الخيالية، لا يوجد إنسان كامل، لا بد أن تستيقظي يا "دعاء"...لقد ضيعتِه من يديك.

قلت بثقة:

- أنا سعيدة من أجله ومن أجل صديقتي فهي إنسانة رائعة.

نظر إليّ وقال بنظرة حزينة:

- أنا أقصد"أحمد".

أجبته وقد بدأت ابتسامتي تتقلّص وقلت:

- لعله خير يا أخي.

شعرت بالقلق من كلمات أخي، كما شعرت لأول مرة بالحنين إلى

"أحمد"، وددت لو جلست معه مرّة أخرى، وتمنيت لو أنني أعرف عنه أي شيء.

جاء وقت إجازة نصف العام، وقرر خالي "محمد" السفر لأداء العمرة، ووجدت أخي يشجّعني أن أسافر معه وتكفّل بمصاريف السفر!

عشت أجمل أيام حياتي في مكّة، كان الطواف حول الكعبة رائعًا، بكيت فيه كثيرًا، وسعيت وصليت وتخلصت من كل الحزن الذي كان يعكر عليّ صفاء قلبي، وغسلت كل أدران نفسي، ودعوت لكل من منحوني يومًا حبًّا ولو بقدر ضئيل، شعرت براحة شديدة، وملأ صدري السلام، دعوت لأخي وزوجته وبناته ثم دعوت لـ"أحمد" كثيرًا.

أمضيت ساعات أحدّثه في مخيّلتي وأصوغ الجمل مرات ومرات، باحثة عن أفضل وسلية أعبر بها عن رغبتي في تلبية أمله في الزواج مني لأنني أخيرًا أدركت صحة كلامه، وأنه فعلا إنسان رائع.

وقررت أن أهاتفه، وأخبره أنني أوافق على الزواج منه، وأعتذر عن كل لحظة مرت وأنا أعذبه.

عدت مع خالي إلى الفندق وحاولت الاتصال بـ"أحمد"، فوجدت هاتفه مغلقًا، كررت الاتصال في نفس اليوم عدة مرات، والحال كما هو.. ما زال الهاتف مغلقًا!

أرسلت رسالة لعلّه يراها عندما يفتح هاتفه:

"لا أدري لماذا كنت أحيد عن طريقك لئلا ألتقي بك! وأنا التي تبحث عنك الآن في كل مكان.. فهل تمنحني دقيقة لأمنحك عمري كله؟"

لم يأتِني رد على الرسالة، سهرت طوال الليل أنتظر منه اتصالًا، وأهلكتني الظنون، فأرسلت رسالة أخرى واضحة صريحة:

أوافق وأنتظرك لأقول "نعم... قبلت الزواج"

ظل الهاتف مغلقًا، أمضيت باقي الأيام بين سجدة ودعوة ورجاء، عدنا أخيرًا إلى أرض مصر، واستقبلنا أخي "جمال" في مطار برج العرب بالإسكندرية، وددت أن أسأله عن "أحمد" لكنني خجلت منه، وظللت أقلّب في الهاتف وحاولت مرة أخرى أن أتصل به.

رنّ الهاتف أخيرًا، وشعرت بدقّات قلبي تتسارع وتعرّقت يداي وارتجفت، وقبل أن يرد "أحمد" أغلقت بسرعة وقرّرت أن أهاتفه مرّة أخرى عندما أعود إلى البيت بعد أن أستأذن خالي، فقد خجلت من أخي "جمال".

وصلنا إلى بيت أخي، فتحت "نور" الباب وعلى وجهها تعبير غريب، لا أدري هل هو ضيق أم خوف، أم حسرة، أم حيرة، أم خليط من تلك المشاعر جميعًا.

دلفت بمرح بعد أن طبعت قبلة على خدها وهي تحتضنني بشوق بالغ، بحثت عن "مودة" و"رحمة" فأخبرتني أنهما نائمتان، أسرعت إليهما فوجدتهما نائمتين، ومعلّق على مقبض خزانتهما فستانان أنيقان أبيضان رائعان، وعلى الخزانة تستند بميل شمعتان من تلك الشموع التي تحملها البنات الصغيرات في الأعراس!

طرفا الشمعتين يبدوان وكأنهما بالفعل قد اشعلتا، وتعكّر البياض بلفحات سوداء كما تعكّر قلبي بعد أن اشتعلت النار فيه، التفت أسألهما عن الفستانين، وقد وقع في نفسي ما أخشاه فتوجعت، وكأنّ

طعنة نافذة اخترقت قلبي، خرجت "نور" من الغرفة وهي تضع يدها على فمها وبدا على أخي التوتر وهو يقول:

- إنهما... تصرّان على اللّعب بالشّمعتين وارتداء الفستانين كل يوم.. حفل زفاف "أحمد" كان منذ أيام، فقد تزوج من "رقية" ابنة خالته، وسيسافر بعد أسبوع إلى السعودية، فقد وقّع عقدًا للعمل هناك في شركة كبيرة، وستلحق به زوجته بعد ذلك إن شاء الله، تمّ الأمر سريعًا، العقبى لك يا "دعاء".

اغرورقت عيناي بالدموع وأشحت بوجهي عنه وأنا أعضّ على شفتي المرتعشة، وقف أخي وقد غمره حزن شديد وقد لاحظ كربي وتعجّب!، فأنا التي كنت أرفض الزواج من "أحمد"، ولم ينبس ببنت شفة، اقترب خالي وأمسك بكتفي، وقد كان يعلم بسريرتي فقد أخبرته بكلّ شيء حتى رسائلي واتصالاتي كانت بعد أن أخبرته.

طلب من أخي أن يتركنا وحدنا، وبكيت ما شاء الله لي أن أبكي على كتف خالي، حتى شعرت أن معيني قد جف، وأن قلبي المهترىء ما عاد ينبض.

ظل خالي بجواري حتى هدأت وسكنت، ظللت بملابسي حتى انفجرت شمس الصباح، وانتزعت لباس الليل بقسوة ومزّقته وصارت الدنيا أمامي عارية.

عدت مع خالي سقيمة إلى بيت أمي، ومرّ يومان وأنا أتخبّط من أوجاع حلّت بقلبي، ومررت بليال قمرها مخنوق، وأيام نهارها مشنوق، ثمّ عدت إلى العمل بعد انتهاء إجازة نصف العام.

لاحظ الجميع في المدرسة حالتي الكئيبة، أشفقت عليّ إحدى

المعلّمات ونصحتني أن أبكي وأخبرتني أن الدموع التي لا ثقل لها ستزيل عن صدري ثقلًا كبيرًا، حتى "رباب" التي تبغضني ربتت على كتفي لأول مرة

كانت غرفتي تمتلئ بالبنات كل يوم، تشاكسنني وتحاولن إضحاكي، ظنّ الجميع أنني فقدت عزيزًا من أقاربي، ولم يدركوا أنني قد متّ في تلك الليلة التي عدت فيها من سفري.

بحثت عن صدر حان أبثه همومي فتلفّتّ حولي ولم أجد إلا الأستاذة "نوال" التي سمعت مني كلماتي المبعثرة، وتركتني أخرج ما بجعبتي من عبرات...

يبدو أنني كنت أصدّ "أحمد" وأنا مطمئنة أنه سيعود... لأنه يحبني ولم أفطن إلى أنّه سيملّ ويرحل

وغرقت في أحلام مستحيلة شوشت رؤيتي، وأعمت قلبي، حتى أنني لم أدرك أنني أحبّه كل هذا الحبّ!

احتضنتني وقالت وهي تربت على ظهري كالطفل الصغير الذي تهدهده أمه ليسكن:

- بعض الأمنيات مستحيلة، والبعض لا نتحصل عليها لحكمة وللطف خفيّ من رب رحيم يعلم كيف نتحمّل وإلى أيّ حد نطيق، فيرزقنا، ويحجب عنا، وفي المنع منه كل العطاء.

أراح هذا التفسير عقلي المضطرب والمشوّش وربتت كلماتها على صدري، وتنفّست قليلًا، وتذكرت إيماني، ورجوت الله أن ينتشلني مما أنا فيه.

واعترتني حالة من الصمت حتى أنني صرت أستلذّه وأستعذبه،

وصارت الكلمات خطوة إلى مصير مجهول لا أريد الوصول إليه، لأن الصمت هو اللغة الوحيدة التي ستريحني.

وعندما كانت الكلمات تغريني بالنهوض من جديد كنت أخذلها فتسقط من بين يديّ، لأن في قلبي أسى، وفي حناياي لوعة، ولا أحد يجيد قراءة صفحات صمتي، ولا يسمع همس سكوتي... هجرتهم جميعًا.

صرت أبكي من الداخل بلا دموع،

صارت صفحات البوح عندي فارغة،

صار لديّ ندبة عميقة في قلبي.

تعكّزت على ابتهالي في وقت السحر، واتخذت من الاستغفار ترياقًا للسمّ الذي يجري في دمي، ما عادت الأحلام تغمرني فقد فقدت لذّتها، سئمت ومللت من التوق الدائم إليها!

قررت أن أكون عكازًا لغيري، وعزمت على تكريس ما تبقى من حياتي لله، أكملت العام و"أميرة" تستند على كتفي، وألاحقها من آن لآخر بابتسامة وجرعة أمل،

كنت أبحث عن أية طالبة تحتاج إلى عون أو إرشاد فأهرع إليها.

كانت "نورهان" تزورني من آن لآخر، وكنت أطمئن منها على "فيروز" التي علمت أن حالتها ما زالت تتأرجح بين هدوء ثم انهيار، وقررت أن أزورها بانتظام لأمنحها بعضًا من الحب، وتمنحني الكثير من الحنان، وترددت هل أخبرها أن هناك فتاة ترى الرؤى ذاتها التي تكتبها أم لا، فقد شغلتني همومي عن هذا الأمر...ودارت بي الأيام.

وذات صباح، كنت أجلس في غرفتي بالمدرسة، حيث دخلت من طرف النافذة حزمة غريبة من خيوط الشمس جعلت المكان حالمًا..

أتتني الرسالة الأخيرة على لسان "سارّة" التي جلست أمامي لتقول بصوتها المحبب إلى قلبي:

- أستاذة "دعاء" رأيتك أمس في رؤيا جديدة!

أجبرت نفسي على الابتسام وكان عبء ما أحمله ثقيلًا، وقلت بمرح مصطنع:

- هات ما عندك يا صاحبة الرؤى الغامضة.

ابتسمت وقالت ببهجة وهي تتأملني بعينيها الخضراوتين:

- رأيتك وقد عاد الحصان الأسود هزيلًا وأنت تطعمينه حتى يشبع، وما زالت الحدوة اللجين في يدك، لكنها أصبحت كالسوار، ثم ينحني الحصان مرة أخرى فتركبين وتعبرين إلى مستطيل أخضر، على جانبيه نهران من ماء رقراق عذب، رأيتك كأميرة تاجها تتحدر منه اللآلىء، وأمامك فتاة رائعة الجمال، كانت جميلة وكنتِ سعيدة.

أسعدتني تلك الرؤيا، وشعرت بانشراح صدري، وقلت في نفسي لعلّني سأموت قريبًا وسألقى أختي ونسعد في الجنة معًا، وأرتاح من الدنيا.

سألتني "سارة" بفضول:

-هل كتبت السيّدة "فيروز"عن تلك الرؤيا أيضًا في روايتها يا أستاذة "دعاء"؟

قلت وما زلت أتعجب من تشابه الرؤى التي تراها "سارة" بكتابات "فيروز":

-لا أعرف حبيبتي، لم أجد هذا في روايتها، سأزورها غدًا إن شاء الله ربما تخبرني بشيء جديد.

قالت بخفوت وهي تغادرني:

-أسأل الله أن يشفيها وكل مريض.

دعوت معها ثم قلت:

آمين، وأن تعود أختها التي ضاعت من يدها منذ سنوات لأحضانهم.

وقفت فجأة وتسمّرت مكانها ثم استدارت وعلى وجهها علامات الذهول واقتربت من المكتب ووضعت كفّيها عليه واقتربت بوجهها من وجهي وسألتني بانفعال:

- هل لها أخت مفقودة؟

قلت وقد بدأت دقات قلبي تشبه دقات طبول الحرب وأنا أقف وقد انتبهت الآن فقط إلى لون عيني سارة الذي يشبه لون عيني "ياسمين" ابنة "فيروز":

- نعم يا سارة.. هل ستخبرينني بشيء الآن!

قولي هيا..هيا أخبريني.

ردّت بصوت متلعثم من الاضطراب وقالت:

-أنا....أأأنا...وجدني أبي الذي يربيني الآن هو وزوجته على الشاطئ هنا بالإسكندرية منذ سنوات

كنت أبكي ولا أعرف شيئًا، أخبرني أنني كنت أردد كلمات غير مفهومة، وكنت أكرر كلمة واحدة "فرحة.. فرحة"

حملاني إلى أقرب قسم للشرطة وجلسا معي ومعهما ابنتاهما، تم تحرير محضر وأخذاني معهما لبيتهما خارج الإسكندرية فنحن لم ننتقل إليها إلا منذ عامين، تردد أبي عليهم ليسألهم كل أسبوع إن كان هناك من سأل عني، حتى أنه كان يحملني على كتفيه ويسير على

الشاطئ أمام الناس ويسألهم لعل هناك من يبحث عني أو يعرفني.. ومضى الصيف وخلا الشاطئ من المصطافين ثم مرت ثمانية أشهر ولم يسأل عني أحد، تم تسليمي لدار أيتام وظلّ أبي وأمي يترددان على الملجأ حتى أعطوني اسما تخيره أبي..."سارّة"، ونسبوني فيه لاسم آخر غير اسمه ليتمكن أبي من اصطحابي ليربيني في بيته مع بناته، وحتى الآن يبحث عن أهلي، أتعلمين يا أستاذة دعاء

كبرت وأنا أتساءل لماذا أكتب على كرّاستي اسمًا يختلف عن شقيقتيّ، وبكيت كثيرًا عندما ألبسني الحجاب بيديه وأخبرني أنه غريب عني، أرجوك تعالي معي إلى البيت لنخبرهم وخذيني إلى "فيروز " ولنجرّب لعلها أختي وأمّها أمي وسأحضر معي ملابسي التي كنت أرتديها يوم وجدني أبي.. مازلت أحتفظ بها، وكذلك صوري وأنا صغيرة..أرجوك...أرجوك.

مسحت دموعي التي سالت على كتفها كما سالت دموعها على كتفي بعد عناق طويل ومضيت معها إلى بيتها وقصصنا عليهم ما حدث، وجاءت معنا أمّها التي ربتها ومعها بناتها، وبدا لي أنهم يحبونها كثيرًا

وكان معنا والدها الذي ربّاها، والذي كان لسانه يلهج بالذكر والحمد والتكبير.

كنت أرتجف ونحن نمضي في الطرقات حتى وصلنا إلى غرفة "فيروز"، وأخذت من "سارة" الملابس التي كانت ترتديها منذ أكثر من عشر سنوات لأمهّد لدخولها عليهم.

طرقت باب الغرفة لأعلن عن وصولي وانتظرت قليلًا ثم دفعت

الدفّة بلطف ودلفت وأنا أحمل الملابس بين يديّ

رمتني "فيروز"- التي كانت جالسة كما رأيتها أول مرّة- بنظرة وكادت أن تستردها سريعًا لولا أنها علقت بالملابس في يدي..

ثم فتحت فمها ورفعت حاجبيها وقفزت من فوق فراشها وشهقت بفزع ثم صرخت وهي تشير بأصابعها للملابس وكأنها تتأكد مني وقالت:

"فرح"! إنها ملابس حبيبتي "فرح"!

رفعت إليها عينيّ المليئتين بالدموع وهتفت في تأثر:

نعم...هي...هي فرح.

لا أذكر ما الذي حدث فقد كنا جميعًا نصرخ بعد أن هبّت علينا عاصفة من الفرحة تحمل سحبًا محمّلة بكل البشريات أمطرتنا بمزيج من المشاعر الحلوة، وبين سجدة شكر وقبلات وأحضان والكثير من الدّموع كنا ندور حول أنفسنا وحول بعضنا البعض، حتى الممرضات شاركتنا العبرات، ورأيت الدكتور "طارق" يبكي لأول مرة!

علمت بعدها أن "فيروز" كانت ترى تقريبًا نفس الرؤى التي تراها "سارة" في نفس الوقت باختلاف خفيف، وأن الأوراق التي كتبت فيها" سارة" الرسائل، كانت محفوظة في درج بمكتب أبيها به زجاجة عطر صغيرة قد انسكبت منذ فترة وتشرّبها الخشب وكانت براحة الصندل، وأن "فيروز" كانت تشم رائحة كتلك في أحلامها وتستيقظ والرائحة ما تزال في أنفها!

أدركت أن هناك أحلامًا أخرى تختلف عن تلك التي نتخيّلها بأنفسنا، أحلام لا دخل لنا فيها، هديّة من الله لبعض الأرواح الطاهرة، فيها بشريات لهم ولغيرهم..

التقيت في هذا اليوم بالدكتور "أيمن" الذي شاركنا الفرحة ودار بيننا حوار قصير عن رسالة الماجستير التي أخبرته بخجل أنني لم أقدم أوراقها حتى الآن، ووجدته يخبرني قبل أن يتركنا لانشغاله الشديد:

- لا شك أنك الآن تدركين يا "دعاء" أن حالة "أميرة" تختلف عن "فيروز"، وأن حالة "فيروز" تختلف عن "حسام"، وأن ليس كل من يحلم أو يتخيل مريضًا ويحتاج إلى علاج ، وأن هناك من يتألمون أحيانًا.. لكنهم مبدعون.

فكلنا نحلم ونتخيّل ونتمنى بدرجات متفاوتة.. بعض الأحلام نراها في يقظتنا، والبعض يداهمنا ونحن غارقون في سبات عميق...

قاطعته بلطف وأضفت:

- وبعض الأحلام لا نستطيع تفسيرها كتلك الرؤى التي رأتها "سارة" ورأت مثلها شقيقتها "فيروز" في نفس الوقت وبتشابه للكثير من التفاصيل والرموز... سبحان الله!

هزّ رأسه موافقًا ورفع حاجبيه وقال :

النفس البشرية، والروح، والخيال، والنوم، إعجاز من الله يا ابنتي، والله عزّ وجلّ خلق فينا ما لم ندركه بعد من أسرار خفيّة...

استأذن في الانصراف واعتذرت عن تعطيلي إيّاه، وعدت لبيتي تلك الليلة وأنا أشعر بالسكينة، فقد كنت أحتاج إلى جرعة من هذا السلام النفسي لأضمد جراح قلبي، ونمت نومًا عميقًا لم أنمه من أسابيعٍ طويلة، فقد عادت "سارة" لبيت أمها بـ"فرح" وكانت هي "فرح"، ذاك الفرح الذي غادرني عندما خسرت "أحمد".

❊ ❊ ❊

42

"أحمد"

كانت مكالمة "طارق" هي القشة التي قسمت ظهر البعير، ما عدت أقوى على الركض وراء السراب

ذهبت مباشرة في اليوم التالي إلى مديري في الشركة وأخبرته أنني مستعد للسفر، فقد عرض عليّ من قبل أن أسافر لأتابع أعمالًا تخص شركته في السعودية.

بدأت أستعدّ للسفر، وحاولت أن أشغل نفسي بإعداد أوراقي، كنت أتعجل السفر قبل زواج "دعاء" من "طارق" والذي أكد لي في اتصاله أنه على يقين من قبولها للزواج منه وأنه لم يقبل على تلك الخطوة إلا بعد أن تأكّد من موافقتها وقبولها للأمر، كما أن تحفّظ "جمال" وهو يكلمني يدل أن هناك شيئًا ما قد حدث

لا بد أنها وافقت، ولماذا سترفضه!

اتصلت بي خالتي، ولامتني كثيرًا على غيابي عنها لفترة طويلة، وتوسلت إليّ لكي أزورها عندما علمت باقتراب سفري بعد أسبوع، سافرت واستقبلوني كما يستقبلون الأمير!

وجلست بينهم وأنا أشعر أنني فاكهة المجلس وقد كنت أفتقد إلى الشعور بالقبول منذ فترة طويلة، رأيت الرجاء في نظرات خالتي، وفرحتها بي تطلّ من عينيها كلّما التقت نظراتي بنظراتها.

استوقفتني أكثر من إشارة في كلام زوجها أن الطريق ممهّد، وأنني فقط عليّ أن أطلب، وأمري مطاع

تحدّثت معي "رقية" ولفتت نظري لأول مرة بحديثها عن أمي، فرفعت عينيّ وأزلت حجابًا كنت قد أسدلته على عيني وقلبي وجوارحي حتى لا أرى أي أنثى أخرى غير"دعاء"

فرأيتها لأول مرة ووجدتها تشبه أمي، شعرت بألفة وتلهّيت بكلامها وتطرقنا للحديث عن أشياء كثيرة، حتى أنها حدثتني عن"دعاء"، كانت تعلم أنني أعجبت بها وأنني أحببتها، وجدتها تقتحم الأمر بشجاعة وكأنها تصرّ على تنحيتها عن الساحة.

ناقشتني في سبب افتراقي عنها، وسردت من المعطيات ما جعلني أزداد يأسا من أمر اجتماعي بـ"دعاء" يومًا ما.

تناولت طرف الحديث وأصرّت ألا تقطعه، وكلّما حاولت أن انصرف عنها وجدتها ما زالت أمامي

كانت ذكية بالقدر الكافي لتملأ فراغًا كان يوجعني في صدري.. فتخدّرت آلامي قليلًا ورجوت أن تكون بلسما يشفي الجرح العميق الذي أصاب قلبي المهترئ بعد انصراف "دعاء" عني وإقبالها على الزواج من "طارق".

بتُّ تلك الليلة في بيتهم ولم يغمض لي جفن، وفي اليوم التالي طلبت الزواج من "رقية"، واتصلت بأختي التي أتت وزوجها في نفس اليوم، وتمّت الخطبة بإصرار من أبيها وخالتي.

نويت ألا أظلمها، وأن أكون زوجًا مخلصًا لها، وأن أتقي الله فيها. أخبرتها أنني لست إنسانًا كاملًا، فأجابتني أنها تحبني كما أنا بكل ما

فيّ من مميزات وعيوب.

اشترط عليّ والدها أن يتم الزفاف قبل سفري وكأنه يخشى أن أتراجع عن قراري بالزواج منها وخاصّة أنهم كانوا يعرفون جميعًا بأمر خطبتي لـ"دعاء" من قبل ومدى تمسّكي بها، حاولت أن أؤجل الأمر، لأطمئن لحال قلبي، لكنه أصرّ هو وخالتي.

وبدأ الترتيب للزفاف وأنا كقطعة الشطرنج، يحركونني كما يحبون، شاردًا، هائمًا، وكأنني مسحور!

وكانوا يكررون أمامي أن شرودي بسبب انشغالي في العمل، ربما ليبرروا لأنفسهم سبب الحال التي كنت فيها... فالمهم أن تتزوج"رقيّة" ممن تحبه...

نمت كثيرًا كما لم أنم من قبل، وكأنني أهرب من واقعي الرمادي.

كان يوم الزفاف كالطعام الذي لا ملح فيه، أو الحلوى التي ينقصها العسل، حاولت أن أحبّ"رقية"، وأحببتها فعلا ولكنه حبّ من نوع غريب، شعرت وكأنني مدين لها، أو أؤدي واجبًا نحو إنسانة خلوقة وودودة ومطيعة تحبني، بل وتعلم أنني كنت أحبّ أخرى غيرها قبل زواجي منها.

رجوت أن يساعدني ربي في ما لا أملك، وأخلصت إليها في ما أملك قدر استطاعتي، افتقدت دقّة القلب وهذا الوجع الخفيف الذي كان يتوسط صدري وكنت أحبّه، وشعرت أنني أعيش بلا روح....

وبعد الزفاف بيومين وصلتني رسالة من "دعاء" على هاتفي الجوّال وفوجئت بمحتواها!

وقفت مذهولًا، وشعرت بالقهر والحزن والندم وغاص قلبي في

أحشائي وصارت أقدامي ترتجف

وتلتها رسالة أخرى أوجعتني بشدة!، إنها تخبرني أنها ستوافق على الزواج مني!!، كيف تكتب هذا وكنت أظنها قد خطبت لـ"طارق" وستتزوجه!، ولماذا هذا التغير المفاجىء؟، هل أضعتها بغبائي من يديّ؟!

مرّت لحظات وأنا شارد أتخبط في ظنوني...

أحضرت الهاتف الأرضي وقمت بالاتصال بأختي وسألتها وقد شعرت أن صوتي يخرج من بئر عميق وقد ضاقت أنفاسي:

- هل سيزوركم أحد اليوم؟

أجابت ضاحكة:

- مرحبا بالعريس الغالي، اشتقت إليك يا أخي، هل تنوي زيارتنا اليوم أنت وعروسك؟

قلت بهدوء مصطنع:

- نعم بإذن الله.

قالت هي ببهجة:

- ما أسعدني بهذا الخبر... لن يزورنا أحد اطمئن وهيا بسرعة.

قلت بفضول وما زال الهاتف الجوّال بين يديّ وعيناي على الرسالة الأخيرة:

- ولا "دعاء"؟

أجابت بعد صمت لفترة قصيرة:

- ولا دعاء!!، هي أصلا في عمرة مع خالها.

أرسلها "جمال" مع خالها وتكفّل بمصاريف السفر بعد أن اتصلت أنت بنا وأخبرتنا أنك خطبت "رقيّة" حتى لا يتحرّج أحدكما من الآخر.

قلت بحذر وأنا أشعر بقشعريرة في جسدي كلّه:

- أظن زفافها قريبًا هي و"طارق"...

مضى وقت من الصمت المطبق قبل أن تقول بتعجب:

- أي زفاف!، الخطبة لم تتم أصلًا، ولم يعد "طارق" مرّة أخرى، حتى أن "دعاء" أخبرت "جمال" أنه خطب "نورهان ابنة الدكتور "أيمن".

ران عليّ صمت، وشعرت بدوار شديد، وكأنّ قلبي سيتوقف، حتى أنني بدأت أتمتم بأصوات لا معنى لها وشعرت بي أختي وقالت:

- ألم تكن تعلم!. ظننتك صرفت النظر عنها بعد آخر لقاء بينكما كما أخبرتني ولأنك لم تسألني عنها إطلاقا طوال الأيام الماضية!

حتى أن "جمال" أخبرني ألا أضايقك بذكرها حتى لا نفسد فرحتك بـ"رقيّة"

ولكن...... ألهذا تزوجت من "رقية" بتلك السرعة!

لأنك ظننت فقط أن "دعاء" خطبت!، هل تظنها كالدواء المسكّن لجرح قلبك، لا يا أخي اتّقِ الله في ابنة خالتك فإنها تحبّك.

أجبتها بهمهمات لا معنى لها وكانت كلماتي مبعثرة.. وددت أن أوضح لكنني في الحقيقة ضللت طريقي إلى الكلمات التي أستطيع أن أعبر بها عمّا كان يعتمل برأسي من أفكار، فقالت بلهجة صارمة لم أعتدها منها:

- "أحمد" توقف ولا تسأل عن"دعاء"مرّة أخرى، فأنت بالفعل قد

تزوّجت، ولا تفكّر إلا في "رقية"

حاولت أن ألتقط أنفاسي، وقلت بصوت مخنوق:

- سبحان الله!.. لعلّه خير.

قالت أختي بصوت حاسم:

- أنت عاقل يا "أحمد".. تمالك نفسك وانتبه لزوجتك وحياتك، نحن في انتظاركما حاول أن تأتي معها لزيارتنا..

أنهيت المكالمة مع أختي، وقمت بمسح الرسالتين من هاتفي، ودعوت الله أن يخرج حبّ "دعاء" من قلبي وألا يفتنني بها، وأن يعينني على الإحسان والإخلاص لزوجتي "رقية" ويجعلها قرّة عين لي.

وتركت نفسي للأيام تعلمني، وعشت كما أراد لي ربي، فالسعادة المطلقة فيما أراده لنا الله.

❊ ❊ ❊

43

"دعاء"

مرت شهور وبرد الجرح في قلبي وترك ندبة خفيفة كانت توجعني عندما تتحسسها الذكريات...

وعاد الصيف الذي كنت أعيش شهوره بملل، وفي ليلة هادئة نمت وخالي على مقاعدنا أمام التلفاز، وأيقظنا جرس الباب فجأة، فقمت فزعة وهرولت إليه، نظرت من "العين السحرية" المثبتة بالباب لأتحقق ممن يطرق الباب فلم أرَ أحدًا!

تسمّرت أمام الباب في خوف وهتفت من مكاني بصوت تحلّيت فيه بقوة مصطنعة:

- من بالباب؟

وأتاني صوتهما فقصر قامتيهما لم يمكنني من رؤيتهما من العين السحرية، كانتا "مودّة" و "رحمة" تقفان أمام الباب عندما فتحته، صاحت "مودة" بعد أن استدارت وقالت:

- فلتذهب الآن يا أبي، عمّتي فتحت لنا الباب.

حاولت أن أناديه فلم يجبني، يبدو أنه كان على عجل، فقد سمعت صوت محرّك سيارته يدور بعد لحظات

أقبلت على بنات أخي أقبّلهنّ وأحتضنهنّ وأسألهنّ عمّا حدث!

أجابتني "مودة" بصوت ناعس:

- اتصل خالي "أحمد"، وقال أنه يريد أبي بسرعة ويحتاجه لأمر طارئ..

اخترق اسم "أحمد" أذني وشعرت بجسدي يرتجف لذكره أمامي، وفقدت اتزاني للحظات ثم تمالكت نفسي واطمأنّ قلبي، إذًا عاد "أحمد" من حفل زفاف قريبته هو وزوجته "رقيّة" وأخته "نور" وصغيرته التي أنجبتها له زوجته منذ شهرين، فقد أخبرني أخي أنهم سافروا في أوّل النهار.

أخذت "مودّة"، و"رحمة" إلى الفراش وقام بعدهما خالي لينام في غرفته، وبقيت ساهرة وحدي، وبدأت الأفكار تفرقع في ذهني كما تفرقع حبّات الفيشار في القدر الحار..

لماذا لم يخبرني أخي قبل أن يأتي بابنتيه لكي أتهيّأ وأستعدّ لاستقبالهما؟

وقد كانت بيننا مكالمة منذ ساعة!

هل هناك عطل بسيّارة أحمد؟!

أم هناك شيء آخر؟

غلبني النعاس وأنا أتمتم لهما بالدعاء، فكنت لا أحمل لهما في قلبي إلا كل الخير، وكنت كلما أتوجّع وأتحسس تلك الندبة على قلبي ألهج بالدعاء لهما في سجدة في وقت السحر أن يرزقهما الله السعادة والسكينة وأن يرزقني سكنًا آنس به يحبني وأحبه.

أيقظني رنين الهاتف الذي كنت أحمله بيدي وأنا أنتظر صوت أخي لأطمئن أنه عاد لبيته بسلام كما تعوّدت أخيرًا، فقد ازداد تعلّقي

به، وازداد تعلّقه بي.

جاء صوته حزينًا أسيفا مخنوقا وكأنه انتهى للتو من بكاء شديد وقال بصوت متقطّع:

- عدنا إلى البيت أنا و"أحمد"، إنا لله وإنا إليه راجعون.. سنسافر بعد قليل إلى المنصورة

قاطعته فزعة وقلت:

- إنا لله وإنا إليه راجعون... من؟

أجابني ليفاجئني:

- ماتت زوجتي "نور"... وماتت "رقية" في حادث رهيب!

خرجت مني صرخة مكتومة وسالت دموعي وأنا أعضّ على قبضة يدي، علا نشيج أخي وهو يبكي ثم أردف قائلا:

- نجا "أحمد" وابنته بأعجوبة..الحادث رهيب...عبرت شاحنة الطريق فصدمت سيارتين...

غلبني البكاء الشديد وهربت مني الكلمات، وكأنّي فقدت حاسّة النطق، أشفقت على أخي الذي ظلّ يردد:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

حاولت أن أتمالك نفسي وذكّرته بالله، وأخبرته ألا يقلق على ابنتيه، وألا يشغل باله بأمرهما

حدّثني قليلًا لكنني لم أفهم من كلماته شيئًا فقد كان يتلعثم مضطربًا ويبكي بشدة.

أيقظت خالي وجلسنا والحزن يقبع على صدورنا ننتظر أية رنّة هاتف أو دقّة على باب البيت...

ومرّ الوقت وأذّن للفجر، وأنا في الشرفة أراقب الطريق وأنتظر أخي، وقفت سيارة أخي أمام باب البناية، وترجل منها "جمال" وهو يحمل حقيبة جمع بها بعض الملابس لابنتيه، ثم تلاه "أحمد" وقد خلع الحزن عليهما رداءه، رفع رأسه ورمقني بنظرة واستردّها سريعًا، وانحنى ليحمل شيئًا، ثم اعتدل لأراه وبين يديه لفافة بيضاء يهتز فيها كف ابنته الرضيعة سمعتها تغمغم وهو يحملها.

ثم صرخت "لجين" فجأة فغاص قلبي في أحشائي وأسرع "أحمد" نحو الدرج الذي طوى درجاته سريعًا بخطواته الواسعه متجاوزًا أخي الذي كان يصعد ببطء ودموعه تسيل... حتى وصل إلى الباب الذي كنت قد أسرعت لأفتحه وبجواري خالي.

نظر إليّ بعينيه وكأنهما بئران عميقان من الحزن ثم وضع "لجين" بهدوء بين يديّ ولم ينبس ببنت شفة، ثم غلبه بكاء شديد فأشفقت عليه، وسالت دموعي وأنا أنصت إليه هو و"جمال" وهما يتحدثان بعبارات ممزقة وصوت مهترئ حزين مع خالي الذي ظلّ يذكّرهما تارة بأجر الصابرين، وتارة برحمة الله، وتارة بأن يستغفرا ويدعوا لهما.. شهق أخي شهقة فاحتواه خالي في حضنه وبكى بحرقة شديدة، كنت قلقة عليه لأنه مريض..

لم أفتح فمي، فقد انعقد لساني، وهربت مني الكلمات وأنا أتراجع بـ"لجين" إلى الخلف ثم أحتويها في حضني.

ودّعني خالي ونزل بخطوات بطيئة وهو يتّكىء على عصاه بوهن متّجها إلى السيارة ليسافر معهما.

وسبقه "أحمد" يهرول على الدرج ليختفي عن عيني، وانهرت باكية وانفطر فؤادي.

جلست وشعرت وكأنّ "رقيّة" و"نور" تجلسان معي وتوصياني على البنات.

كانت صورتهما لا تفارق مخيلتي، وجدتني أستدعي في ذاكرتي كل اللحظات التي أمضيتها مع زوجة أخي.

كفكفت دموعي وقد بدأت أنتبه وانتشلت نفسي من الحالة التي كنت فيها.. فالصغيرة جائعة وتبكي..

احتضنتها برفق وأنا أبحث في الحقيبة التي أحضرها "أحمد" معها عن زجاجة الرضاعة الخاصة بها

بدأت تهدأ قليلًا بعد أن شبعت..

دسست أنفي في عنقها لأشم رائحة الصغار، سكنت بين يديّ ونامت أخيرًا، وبكيت أمها وأنا أتأمل براءتها وقلبي يتمزّق..

مر اليوم وهي بين يديّ، نسيت كل شيء وتعلّق قلبي بالبنات حيث ظلّت "مودة" و"رحمة" تتبعاني وأنا أحملها طوال النهار، وتسألاني عن سبب غياب أمهما وأنا أهرب من الإجابة..

لم أخبرهما أن أمهما قد ماتت، لم أحبّ أن يكون مصدر علمهما بهذا الخبر المؤلم منّي..

شغلتهما بالصغيرة وانشغلت معهما بها، نهدهدها ونراقبها.

كنت أرعى الصغار وقلبي ينزف، وتمنّيت أن يخبرني أحدهم أن الخبر كاذب وأن "نور" و"رقية" لا تزالان على قيد الحياة.. لكنها الحياة!

بعد يومين عاد أخي "جمال" وأخذ "لجين" منّي ليسلّمها لأبيها لكي تراها جدّتها بعد أن هدأت وقد أصابت السكينة قلبها وانفضّت النساء قليلًا من حولها وخفّت ضجّة العزاء، شعرت بوخزة في صدري

وهو يحملها بعيدا عنّي، لاحقتهما بعينيّ وأنا أخبره أن يهزّها بهدوء لتنام وأن يربّت على ظهرها كثيرًا بعد أن يطعمها.

التفت إليّ بنظرة ودودة كسرها حزنه على زوجته وقد فقد بعضًا من وزنه وصار فكّه مجوفًا وغاصت عيناه في جمجمته وقال بحنان:

-لا تقلقي يا "دعاء" أنسيت أنني قد مررت بكل هذا مع ابنتيّ..

يبدو أنك تعلّقت بها، نامي قليلًا يا "دعاء" فوجهك تبدو عليه علامات الإرهاق، سامحينا فقد أثقلنا عليك كثيرًا.

خجلت منه ووقفت أمسح وجهي وأنا مرتبكة، فاقترب منّي أخي وطبع قبلة بحنان على جبهتي ثم طالعني بنظرات تحمل الكثير من المعاني.

ومرّت أيام وسافر"أحمد" وعاد لعمله وترك ابنته عند جدّتها لترعاها، ولم أتمكّن من رؤيته..

ظلّ الحزن يعضّ قلبي على "نور" وكنت أدعو لها كثيرًا في سجودي، أفسحت لها مكانًا في قلبي بجوار أختي "حنين" رحمها الله فصارتا لا تغيبان عنّي لحظة!

بعد شهور مرض خالي مرضًا شديدًا، حتى أننا جئناه بطبيب في البيت، علّقت له المحاليل، وامتلأ ذراعه بوخزات الحقن، وأصبحت ألازمه دائمًا وأنام تحت قدميه، أطعمه، أوضّئه وأساعده ليتكئ أو يجلس ليصلي

غمرني بالدعاء الذي تمنيت من الله أن يتقبله.

غادرنا بهدوء بعد أن لفظ الشهادتين في ليلة من ليالي الجمعة، وانتقلت إلى بيت أخي لأرعى ابنتيه وليكون قريبًا من عمله.

تذكّرت "أحمد" وحبّي له، وكنت أعلم أنه ما يزال حزينًا على زوجته ولا شك أنه ما يزال يتخبط في أحزانه..

لم أتمكن من منع نفسي من التفكير فيه، حاولت... وفشلت، لا أدري لماذا لم تتحقق الرؤيا الأخيرة التي أخبرتني بها "سارّة"

لماذا لم تبقَ لجين في يدي؟!

انتظرت أية إشارة منه لكنه لم ينبس ببنت شفة، حتى أنه لم يسأل عنّي ولو مرة واحدة!

كنت أنتظر أن يأتي فجأة ويتزوجني ثم أسافر معه، رجوت الله أن يربط على قلبي، مرّت أيام أخرى وما زال عازفًا عنّي وكنت أتتبع أخباره وأنا أسترق السمع لمكالماته الهاتفية مع أخي "جمال" ليطمئن على ابنتيه..

تملّكني شعور باليأس وشعرت بالانكسار بين يدي ربّي وسألته أن ينتشلني مما أنا فيه وأن يريح صدري، عدت لأحلام اليقظة ولكن هذه المرة كان هو بطلها الوحيد..

صار "أحمد" حلما أتمناه، وطال انتظاري، تأكدت الآن أنني أحببته، فكّرت أن أرسل إليه رسالة أخيرة، لعلّ الحياة تبتسم لي مرة أخرى، أحضرت هاتفي وكتبت ويداي ترتعشان كلامًا أسأل فيه عن حاله وحال ابنته وأرفقته بدعاء طيب، وتراجعت ومسحتها، وتذكرت "نورهان" عندما تركت حبّها لـ"طارق" إرضاءً لله فأتاها الله به، وقلت كما قالت.. سأترك حبّه لله.

فكيف أزعم أنني أستعفف ثم أرسل رسالة كهذه لرجل غريب عنّي، نعم.. سأتركه لله.

❈ ❈ ❈

44

أنهت "رحمة" قراءة ما كتبته عمّتها "دعاء" في مذكّراتها التي دوّنتها في دفتر أنيق احتضنت صفحته الأولى كلمتين..

"غزل البنات"

أزاحت الأغطية عن قدميها وفتحت باب غرفتها التي لازمتها لساعات وهي تقرأ حيث لم تغادرها إلا الآن

رفعت عينيها فإذا بعقارب الساعة توشك أن تتعانق عند منتصف الليل، ولم تعد بعد شقيقتها "مودّة" والتي سافرت إلى دمياط مع خطيبها ووالدته لاختيار أثاث بيتهما فالزفاف بعد أسبوعين.

جلست تتأمل عمّتها "دعاء" وهي تقف متدثّرة بشال أمها الذي تصرّ على ارتدائه حتى الآن رغم أطرافه البالية.. فهي لا تشعر بالدفء إلا حين تختبىء فيه.

وقد صارت تشبهها الآن وهي توشك أن تتم السابعة والثلاثين من عمرها، عشر سنوات مرّت على ما سطر من أحداث في هذا الدفتر.

قامت وسارت إليها في تؤدة وبخطوات مترددة وقلبها يئنّ ودموعها تسيل إشفاقًا عليها..

التفتت "دعاء" إليها حيث كانت تراقب الشارع من نافذة بيت أمها حيث بنايتهم القديمة وحيث كانت تقضي الليالي ساهمة وغارقة في

أحلام يقظتها منذ سنوات، كان القلق يبدو واضحًا على محيّاها وهي تقول بعد أن رمقتها بنظرة خاطفة:

- تأخّرت أختك... هاتفتني منذ قليل تقول إنهم على وشك الوصول إلى مدخل الإسكندرية.

وقفت "رحمة" بجوارها وهي تحتضن مذكراتها التي أنهت قراءتها للتو.

لاحظت "دعاء" دموعها فرفعت ذراعها واحتوتها بحنان ثم غطّت كتفيها معها بشال أمها الكبير وقالت:

- لا تبكِ حبيبتي، أردتك فقط أن تطّلعي على ما مررت به في حياتي، حتى لا تكرري أخطائي.

أخشى عليك فأنتِ تشبهينني كثيرًا، هكذا كانت تقول لي أمك رحمها الله.

شعرت "رحمة" أن دموعها تزداد حرارة وحرقة فرفعت يدها لتمسحها وهي تنصت لعمّتها التي أردفت قائلة:

- أتمنى أن توافقي على زيارة "عمر" ووالدته لنا هنا في بيت جدك وستجلسين معه مرة ومرتين وثلاث وكما تطلبين.. فالقرار لك في النهاية، وستتحدثين معه بكل أريحية ووضوح، أعطه فرصة ليعبّر لك عما يدور بخلده، وما يحمله لك من خير فهو شاب عفيف..

كوني عاقلة كأختك "مودة" فهي اختارت خطيبها بالعقل وبقدر معقول من القبول، وها هي مغرمة به الآن بعد عقد نكاحهما ووافقت على إتمام الزفاف وهي لم تتم العشرين من عمرها بعد، دعك من الخيال ففارس الأحلام المثالي والخالي من العيوبِ الذي

تنتظرينه لن يأتي.

مسحت "رحمة" دموعها بأطراف أصابعها وقالت:

- هل كل ما في هذه المذكرات حقيقي يا عمتي؟ حتى مشكلة "فيروز" وما كتبتِه عن زوجها و"أميرة" و"سارة" والرؤى التي كانت تراها و.."حسام"؟

أجابتها بثقة وقالت:

- نعم.. و"نوال" و"سعاد" والمدرسة والمستشفى..

سألتها "رحمة" بفضول:

و"نورهان" هل تزوجت فعلا من "طارق"؟

أجابتها "دعاء":

- نعم ولديهما الآن بنت وولدان..

ما زالت في عيني "طارق" بقيّة من تلك النظرة المتعالية التي تخبرك أنه فوق المنافسة!

ولكن يبدو أن الحب الذي يحمله قلب "نورهان" له قد بدأ يعمل عملًا جميلًا في نفسه، فقد بدأ يتغير وقد فاءت إليه السكينة واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه.

غضنت "رحمة" جبينها وقالت بشجن:

- ولماذا اخترت "غزل البنات"

تنهّدت "دعاء" بعمق وقالت بعد صمت لهنيهة:

- أدركت أخيرًا أن أحلام اليقظة حلاوتها وقتية لا تدوم طويلًا...

كحلاوة "غزل البنات "وهو يذوب على الشفاة الرّطبة، لحظاتٍ لا

تدوم ولا يبقى بعدها إلّا الشوق إليها مرّة أخرى، وتمرّ اللحظات فننسى المذاق الحلو، ونبحث عن شيء آخر أكثر لذّة فنشتهيه، وأنّ الواقع الذي نعيشه ونرضى فيه بقضاء الله ونفرح بمعيته حلاوته أكبر لأنها تدوم.

قالت "رحمة" وهي تشيح بوجهها وتعضّ على شفتيها لتخفي دموعها التي سالت مرّة أخرى وقالت:

- عشر سنوات مرّت على هذا اليوم، ما زلت أذكر وجه أبي عندما جاء بنا أنا وأختي وطرقنا بابك ليلًا لم يخبرنا أن أمي ماتت هي وزوجة خالي في هذا الحادث..

ظللنا ننتظر عودة أمي حتى أخبرنا أبي وبكينا بين يديك طويلًا، لم يعد خالي إلى مصر بعد هذا الحادث إلا مرّة واحدة بعد وفاة أبي منذ عامين.. حتى أنه لم يعد لاصطحاب ابنته بل سافرت بها جدّتها رحمها الله إليه..عندما ذهبا معا لأداء فريضة الحج..

لماذا لم يتزوجك طوال تلك السنوات العشر وهو وحيد مع ابنته!؟

فهو لم يتزوج حتى الآن؟!

طالمًا كان يحبك كل هذا الحب؟

هل مشاعره التي في هذا الدفتر هي من خيالك يا عمّتي؟

التفتت "دعاء" إلى "رحمة" بتأثّر وقالت:

- لا...لا يا"رحمة" عودي إلى الصندوق وستجدين مجموعة من الأوراق جمعتها في ظرف واحد، كان خالك يدوّن كل لحظة تمرّ وهو معي، بالتاريخ واليوم والساعة، خمس ورقات طويلة كان قد كتبها وكان يعنونها دائمًا بكلمة واحدة "بوح"، أراد أن يخرج ما في صدره وكنت أضيّق عليه ولم أسمعه يومًا كما أراد، اكتشفَتْها أمك رحمها الله وهي

ترتب بيته، مطويّة بعناية ومخبّأة خلف إطار معدني على مكتبه

كانت تنظّف البيت ليبيتا فيه ليلة واحدة، وكان هذا قبل أن يعودا معًا تلك المرّة الأخيرة من السعودية ومعهما الصغيرة "لجين".

لأن "أحمد" و"رقية" لم يجهّزا بيتا لهما في مصر قبل سفرهما، فرأت أمّك الأوراق مخبّأة خلف الإطار فحملتها بعيدًا عن بيتهما..

وتكتمت الأمر وحملت الأوراق إلى بيتها وخبّأتها بين ملابسها حتى لا يراها أحد..

أتعلمين.. وجد أبوك تلك الأوراق قدرًا بعد وفاة أمك بين ملابسها في خزانتها في جيب أحد معاطفها المعلّقة، وأطلعني على ما فيها فاحتفظت بها.. كتب"أحمد" بنفسه عن أول لقاء لنا عندما جاء ليخطبني،

و"دقّة الحبّ" ومشاعره عندما رفضْته.

وعن قلقه بعد أن رآني في أحد الأيّام وأنا أخرج من عيادة الدكتور "أيمن"،

وأيضًا عن تخبطه وذاك الزلزال الداخلي الذي أصاب نفسه بعد أن رآني يوم لقائه ب"طارق" أمام المستشفى، ثم حديثه المؤلم معه على الهاتف، وأخيرًا عمّا حدث بعد أن قرأ رسائلي على هاتفه عندما كنت في السعودية مع خالي"محمد"رحمه الله

وكانت تلك أشدها إيلامًا، فقد أرسلت الرسالتين بعد فوات الأوان وفي وقت غير ملائم.

نقلت من أوراقه العبارات نقلا ودوّنتها في دفتري، كنت أخشى أن يطلبها مني أخي مرّة أخرى ويمزّقها فوددت أن يكون لديّ بعضا من هذا ال"بوح".

هنا يا"رحمة" ذكرياتي عن مرحلة واحدة قصيرة من عمري دوّنتها من أجلكما وخاصّة أنت، وسأتخلّص منها بعد قليل.. فقد انتهى وقت البوح.

مالت"رحمة" برأسها وأسندتها على رأس عمّتها وتساءلت بتأثّر:

- لكن لماذا لم يتزوجك حتى الآن؟

أجابتها"دعاء" بصوت مخنوق وكأنه يصدر من بئر عميق وقالت:

- كان أبوك ينتظر في كل مرّة يتحدث فيها على الهاتف مع "أحمد" وهو يطمئنّ عليكما أن يطلبني للزواج مرّة أخرى، لكنه لم يفعل، أظنه يخشى على ابنته "لجين" من قسوة زوجة الأب، وأظن نار الحب قد أطفأها رفضي البارد له مرارًا وتكرارًا..

فتحت "رحمة" المذكّرات مرّة أخرى وقلبت في الصفحات ثم سألت عمّتها:

- الكلام على لسان أمي و"نوال" و"نورهان و"طارق" و.. من أين لك بخواطرهم؟

قالت "دعاء" وعلى وجهها ابتسامة حالمة:

- كتبت عنهم يا حبيبتي، خططت رواية تحكي قصّتي بنفسي، وكأنهم أمامي يتحدثون، فكلّ منهم كانت لي حوارات معه، في مكتب الأستاذة "نوال"، وعلى الشاطئ مع "نورهان"، وفي المطبخ مع أمك الحبيبة.. ومع طارق في المستشفى وفي بيت والدك.

احتفظت بكل هذا في ذاكرتي، وكنت أتجوّل به وجاءت لحظة كان لابد فيها من البوح.

ساد الصمت للحظات وقد بدا على"دعاء" التفكير..أطرقت "رحمة" في التفكير هي الأخرى، لكن ما لبث أن جاء صوت "دعاء" مجددا وهي تقول:

- شيء أخير..."أميرة"... كنت أراها أميرة ولكنّ هذا ليس اسمها الحقيقي فقد غيّرته هو واسم والدها ووالدتها حتى لا أفضح سرّها كما وعدْتها، خشيت أن أموت فجأة ويقع الدفتر في يد شخص ما...

والآن أعطِني "غزل البنات" لأمزّق أوراقها وأحرقها تباعًا.

في تلك اللحظة رنّ جرس الباب وعادت أخيرًا "مودة"، أسرعت "دعاء" لتفتح الباب

بينما وقفت "رحمة" تحدّق وتراقب الشارع من خلف زجاج نافذة بيت جدّها القديم ذي النوافذ العالية ولمعت عيناها بعد أن اتخذت قرارين هامين، أحدهما يخصّها، والآخر يخصّ عمّتها..

دلفت إلى غرفتها بسرعة مستغلّة انشغالهما وأغلقت الباب جيدًا، ثمّ أحضرت هاتفها الجوال وفتحت الدفتر الذي سطرت فيه عمّتها ذكرياتها.

وهمست لنفسها وهي متربّعة فوق الفراش وقد نصبت ظهرها بينما تعض على شفتها السفلى وتغمض عينا واحدة محاولة ضبط عدسة الهاتف لتلتقط الصور:

- لابد أن يعلم خالي أنها ما زالت تحبه، حان وقت البوح يا خالي العزيز، هيا استيقظ..

وانهالت الرسائل على هاتف خالها "أحمد" الذي أيقظه صفير هاتفه المتواصل بلا انقطاع، وقام برأس بدأ الشيب يزحف إلى مقدمته بلطف فزاده وسامة وقد احتفظ بقوامه الرياضي ونظرته الهادئه وابتسامته اللطيفة ليتفحّص الهاتف.

عندما رأى رسائل "رحمة" اتسعت عيناه دهشة وبدأ يقرأ.. ثم دقّ قلبه مرّة أخرى..

❋ ❋ ❋

45

في اليوم التالي استيقظت"دعاء" مبكّرا على صوت هاتفها الجوال الذي يبدو أن صوته أيقظ أيضا "رحمة" التي كانت ساهرة طوال الليل، تترقب شيئًا ما!، وتنتظر تلك اللحظة..

وصلت رسالة!

فتحتها "دعاء" وقرأتها في صمت:

- دقّة قلب قوية، ووجع خفيف، غير مؤلم لحد المرض، يتوسط صدري عندما أفكر بك، وكأنّي على وشك السقوط من مكان مرتفع.. وجع خفيف لكنني أحبّه.

كاد عقلها أن يطير حيرة وجنونًا وبدا عليها الارتباك، فقفزت "رحمة" من تحت الغطاء وخطفت الهاتف من يد عمّتها وصاحت بحماس بعد أن تفحّصت الشاشة المضيئة:

- إنه رقم خالي "أحمد"

رمتها عمتها بنظرات كلّها عتاب حيث بدأت تغضب وسألتها وقد شحب وجهها:

- ما الذي فعلتِه يا "رحمة"؟

هربت "رحمة" من أمامها إلى غرفة أختها وأغلقت الباب وهي ترد في صوت متلعثم من الاضطراب:

- لا شيء.. دعيني أنام.

ومرّت ساعة راقبت فيها "دعاء" شاشة الهاتف عشرات المرّات، تمشّت سمات القلق في وجهها، وسارت في البيت تتفحّص إشارة الشبكة، ترفع الهاتف وتحرّكه يمينًا ويسارًا ثم تقترب من النوافذ وتميل برأسها...

تسارعت دقّات قلبها، وقد جفّ لسانها وتخشّب في فمها، زلزال داخلي يكاد أن يفتك بها، سمعت صوت رنين الهاتف فانتابتها رجفة في جسدها كله.. إنّه يتصل بها..

ابتلعت ريقها بصعوبة ورفعت الهاتف على أذنها وقالت بصوت مهتزّ:

- "أحمد"!

قال بعد صمت لوهلة سمعت فيها همهماته المرتجفة:

- "دعاء"..لا أدري هل سأكون الآن سببًا في سعادتك، أم سببًا في شقائك، فقد فرّقتنا الأيام وضربت بيننا ضربتها، وهأنذا أعود وبين يديّ ابنتي "لجين"..

وما زال قلبي يتعافى من أوجاع حلّت به بعد وفاة أختي وزوجتي، ولا أخفي عليك، فقد دخلت "رقيّة" قلبي الذي كان كلّه لك... وكانت تعلم.

وكانت أول دقّة حبّ منه لأجلك أنت... وكانت هي تعرف.

وكانت أول أيامي معها وقلبي يتوجع وقد ظننتك لغيري... وكانت تشعر، فصبرت وتحمّلت وتغافلت، ومنحتني حبّا فاحتلّت مساحة من قلبي.. فهل تقبلين الزواج منّي على حالي؟

لعلّ قلبي يسكن لديك وتطيب جراحي.

شعرت "دعاء" بدوار وتملّكها شعور بفرحة خفيفة لكنها مشوبة ببعض الألم، ووجدت نفسها تعذره فقد ردّته كثيرًا عندما كان يريد الزواج منها، وإن كان هذا عقابها فقد رضيت، وإن كان حلمها الحلو به مرارة خفيفة فستتجرّعها راضية، غرقت في صمتها للحظات وهو ينتظر ردّها على الهاتف..

ثم صارت الفرحة تزداد وتزداد وكأنّ ينبوعا قد انفجر في قلبها وأجابته بصوت يرتجف:

- نعم..نعم

وما زالت الرّجفة في جسدها كله، انهار وقارها فجأة وتبدّل حالها عندما صرخت من خلفها "مودة" و"رحمة" فصرخت وقفزت معهما في الهواء وكأنها صغرت عشر سنوات، وسريعًا ما أدارت لها الأيام وجهها المشرق، وكشفت الشمس نقابها عن السعادة التي كانت محجوبة عنها، وعاد فارس أحلامها من سفره بعد أسبوع وتزوجها.

كان زفافها بسيطًا وهادئًا في بيتها القديم، تورّدت وجنتاها وحدهما، وتكحلت عيناها برؤية "أحمد".

انسحبت من بين الحضور لتجد نفسها بجواره حيث اقترب من أذنها وهمس بحنان:

- أحبّك..

التفتت إليه بكل جوارحها ونظرت طويلًا في عينيه وقالت:

- أحبّك..

فقال بسعادة وقد أشرقت على وجهه ابتسامة رائعة:

- أخيرًا رأيت انعكاس صورتي في عينيك، ألم أقل لك، دقيقة واحدة ستكفي لكي تبدأ شرارة الحب، عيناك هذه الليلة تخبراني أوضح من أي وقت آخر أنك تحبينني..

أجابته بخفوت وقد بدأ قلبها يرجف:

- دقيقة واحدة لا تكفني.

ابتسم وقال بثقة:

- كانت كافية لأعرف يقينًا ومنذ سنوات أنني أحبك، ورغم البعاد.... فالقمر ما يزال قمرًا في عيني

وقلبي الأنيق قد اختارك أنت..

في تلك اللحظة اقتربت "لجين" فانهالت "دعاء" على وجنتيها بالقبلات وجلست بينهما غارقة في الكثير من المشاعر الحلوة...

***

وبعد أسبوعين، كانت "رحمة" تقف بجوار "عمر" وهي تحمل في يدها اليمنى- التي زينها خاتم خطبتها له- باقة ورد رائعة وهي تنتظر شقيقتها العروس "مودة" التي وقف عريسها يمسك يدها بحب في مشهد يشبه استقبال الأميرات على أبواب القصور لتبدأ مراسم التتويج، ثم يساعدها لتترجل بفستانها الأبيض من سيارة خالها "أحمد" المزيّنة لتدلف إلى بهو العمارة الأنيقة التي ستسكن فيها.

ابتسم "عمر" ورمق "رحمة" بمكر وقال:

- تبدو عمتي "دعاء" جميلة اليوم، كان خبر زواجها الأسبوع الماضي من خالك "أحمد" مفرحًا لي..أتدرين لماذا؟

أجابته وهي تتصنع الغضب بدلال:

- بالتّأكيد لأنها تحبك وكانت تدافع عنك...

ثم أردفت بنبرة آمرة:

- توقف عن مناداتها عمّتي.. فهي عمّتي أنا فقط.

أردف "عمر" بصوت مبتهج وقد احتلّت وجهه ابتسامة واسعة:

- ليس هذا هو السبب.

غضنت "رحمة" جبينها وسألته بتعجب:

- وما السبب إذًا أيها العبقري؟

أجابها وهو يكاد يطير من الفرحة:

- خالك "أحمد" قرر أن يكون زواجنا في إجازة نصف العام لأن عمتي "دعاء" ستسافر معه بالطبع، ومن غير المعقول أن تعيشي وحدك في البيت.

شهقت "رحمة" ووضعت يدها على فمها، والتفتت إليه مذهولة وقد اتسعت حدقتا عينيها، ثم ابتسمت بخجل وهرولت مرتبكة خلف أختها وعمتها، ووقف "عمر" يضحك على الدرج..

❊ ❊ ❊

على الصفحة الأخيرة من ذلك الدفتر الوردي، والذي زيّنت صفحته الأولى كلمتا

"غزل البنات"

سطرت "دعاء" من جديد وبعد مرور عام على زواجها من "أحمد" ثم سفرها معه تلك الكلمات:

وأخيرًا...

طافت السعادة في نفسي وسكنت إلى زوجي كما يسكن الطير الغريب للعش الهادئ،

وكما يميل الغصن الأخضر على جدول الماء العذب،

ذقت معه رحيق الحب.

وأخيرًا رزقت زوجًا آنس بقربه وجواره وأجد لذّة العيش في الحديث معه والسكون إليه،

حلّقت معه فوق السحاب ورأيت في صفحة السماء صورة الحب،

تخلصت أخيرًا من "الأغلال الناعمة".

ما عدت أحلم بفارس وهمي، فأنا أعيش الحبّ بين يديه، وأشتاق إليه كل لحظة ويشتاق إليّ

ورأيت الحبّ يترجم بلغات أخرى لا تحتاج إلى حروف ولا كلمات، إحسان في خلق، وصبر عليّ إن قصرت، وحنان إن مرضت، وإنصات إن تكلّمت، وعون إن احتجت

وأنس إن استوحشت، وأمان إن خفت.

فشوق الأرواح العاشقة يحتاج إلى أفعال جميلة تشبه حلاوته لتعبّر عنه، وما عدت أبحث عن الكمال فكلنا نسعى على نفس الطريق، وها هو قد أتمّ حفظ القرآن.. ولم أفعل أنا!

بعضنا يكمل فيه شيء وينقص شيء، فتأتي هدايا الله لتجبر كسر قلوبنا.

أدركت أخيرًا أنني كنت ترسًا صغيرًا في الحياة، أدور- رغم ضآلتي-

حول نفسي ليدور شيء آخر أكبر بسبب دوراني...أسباب تشدّ بعضها بعضًا..

وكل ما حدث لي كان رحمات من ربي وبحكمة منه، فكل ابتلاء مررت به كان "هدية من الله" لأنه يرحمني، حتى ابتعاد "أحمد" عني وزواجه كان هديّة.. نعم!!

فقد اكتشفت وأنا في عيادة الطبيب بعد عام من زواجي أنني عاقر، ولا يوجد علاج طبي أو جراحي لحالتي

فقد ولدت هكذا بحكمة من ربي..

تحققت الرؤيا التي رأتها "سارة" منذ أكثر من عشر سنوات، وبقيت "لجين"بين يدي، وكانت هدية من الله لأنه يعلم أنني أحتاجها حتى وأنا مع حبيبي "أحمد".

تحررت أخيرًا من تلك" الأغلال النّاعمة" التي كانت تأسرني، وعقد الودّ بين قلبي وقلبه عقدًا لا يحلّه إلا ريب المنون، وصرت لا أرى لذّة العيش إلا بجواره.

تمت


دار البشير
للثقافة والعلوم